Wasit University Repository

Wasit University Repository

repository.uowasit.edu.iq

# تاريخ الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي ت520ه/1126م للسياسة والعمران

The History of the Fatimid State in the Light of Al-Turtushi's (d. 520 AH /1126 CE) Philosophy of Politics and Civilization

الكشاوي, فاضل عبد الرضا حايد

إشراف: أ.د حيدر مزهر عسكر العابدي

جامعة واسط — 2026

https://repository.uowasit.edu.iq/handle/123456789/236

https://doi.org/10.31185/uowasit-80

حُمِّل هذا الملف من مستودع جامعة واسط

Downloaded from the Wasit University Repository — repository.uowasit.edu.iq

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جـامعـــــــة واســـــــــــط
كليـة التربيـة للعلـوم الإنسانيـــة
قســـــــم التاريـــــــــــخ

# تاريخ الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي ت520هـ/1126م للسياسة والعمران

أطروحة تقدّم بها الطالب

فاضل عبد الرضا حايد الكشلوي

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة واسط ، وهي جزء من

**نيل شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي**

بإشراف

أ.د حيدر مزهر عسكر العابدي

1448هـ 2026م



ژ ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى
ژ



**(سورة يونس : الآية 14)**

# الإهـداء

**إلى روح والِـدي**

**طيّب الله مثواه وأسكنه فسيح جناته**

**إلى خيط الأمل الذي ينير لي المستقبل ... أمي الحبيبة**

**إلى من كانت لي سنداً في أوقات التعب، ودافعاً في**

**لحظات التردد، ومصدراً للصبر والأمل ... زوجتي الغالية**

**أُهدي هذا الجهد المتواضع**



# شكر وتقدير

اللهم لك الحمد حمداً لا منتهى له دون علمك ولك الحمد حمداً لا أمد له دون مشيئتك ، ولك الحمد حمداً لا جزاء لقائله إلاّ رضاك ...

بدايةً أتقدم بالشكر مقروناً بالاعتراف بالفضل إلى أستاذي المشرف حيدر مزهر عسكر الذي تابع بروح علمية مخلصة خطوات الدراسة ، وبذل قصارى جهده في توجيهي وإرشادي إلى طريق البحث العلمي الصحيح فكانت النتيجة هذه الحصيلة العلمية .

ويدعوني واجب العرفان أنْ أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى أساتذتي في قسم التاريخ وأخص منهم بالذكر كلاً من الأستاذ الدكتور محمد حسين السويطي رئيس قسم التاريخ والأستاذ الدكتور فاضل جابر ضاحي والأستاذ الدكتور عقيل عبدالله والأستاذ الدكتور أحمد محمد جودي والأستاذ الدكتورة اسراء مهدي مزبان والأستاذ الدكتورة سوسن فاضل والأستاذ الدكتور رياض عبد الحسين والأستاذ المساعد الدكتور شمخي يابر عويد والأستاذ المساعد الدكتور صباح حسن البدري والأستاذ المساعد الدكتورة شيماء بدر لرعايتهم واهتمامهم وتشجيعهم المستمر على مواصلة البحث والدراسة .

وأتوجه بالشكر والتقدير الخالص إلى الأخ والصديق محمد طه صبر نوح لما أبداه من مساعدة في توفير المصادر فشكراً لك أيّها الأخ العزيز والزميل الخلوق .

والشكر موصول إلى القريبين من الروح زميلي الدراسة ومتكئي في الصعاب من رسموا البسمة على شفاي الأخوين إسماعيل محمد إسماعيل وحسين ذياب عوض .

ولا يفوتني أن أسجل عظيم امتناني وخالص شكري إلى موظفي المكتبات الجامعية وغيرها من المكتبات، التي استعرت منها بعض المصادر التي أغنت بحثي ولا سيما مكتبة قسم التاريخ ،ومكتبة كلية التربية ، والمكتبة المركزية في جامعة واسط، ولكي لا أبخس حق أحد ، وعرفاناً بالجميل ، أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل الذين واكبوني في رحلتي العلمية ، وتمنوا لي الخير والسداد والتوفيق ، فجزاهم الله خير الجزاء ، وجعله في ميزان حسناتهم ، ومن الله التوفيق .

الباحث

## إقرار المشرف

أشهد أنّ إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ(تاريخ الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي ت 520هـ/1126م للسياسة والعمران) لطالب الدكتوراه (فاضل عبد الرضا حايد) في قسم التاريخ /كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة واسط قد جرى تحت إشرافي بمراحلها كافة وأرشحها للمناقشة .

التوقيع

المشرف : أ.د حيدر مزهر عسكر

التاريخ : ٥/ ٧/ 2026

توصية رئيس القسم

بناءً على التوصيات المقدمة من قبل المشرف والمقوم اللغوي أرشح هذه الرسالة للمناقشة .

التوقيع

أ.د. محمد حسين علي الشويلي

رئيس قسم التاريخ

التاريخ: ٥/ ٧/ 2026

# إقرار المقوم اللغوي

أشهد أنّ هذه الأطروحة الموسومة بـ(تاريخ الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي ت 520هـ/1126م للسياسة والعمران) لطالب الدكتوراه (فاضل عبد الرضا حايد) في قسم التاريخ /كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة واسط ، قد تمت مراجعتها من الناحية اللغوية وتصحيح ما ورد فيها من أخطاء لغوية وتعبيرية وأصبحت مؤهلة للمناقشة

التوقيع

الأسم: حسين علي خضير

الدرجة العلمية: أستاذ مساعد دكتور

العنوان : كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة واسط

التاريخ :٩/٧/ 2026

## إقرار لجنة المناقشة

نشهدُ نحنُ أعضاء لجنة المُناقشة قد اطّلعنا على هذهِ الأطروحة الموسومة بـ (تاريخ الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي ت٥٢٠هـ/١١٢٦م للسياسة والعمران) للطالب(فاضل عبد الرضا حايد بسالة)، قد ناقشنا الطالب في محتوياتها وفيما لهُ علاقة بها. ونعتقد أنّها جديرة بالقبول لنيل درجة الدكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي بتقدير ( جيد جداً عال ).

التوقيع:
رئيس اللجنة: أ.د اسراء مهدي مزبان
التاريخ: ١٥/ ٩ / ٢٠٢٦

التوقيع:
عضواً: أ.د جنان جودة جابر
التاريخ: ٨ / ٩ / ٢٠٢٦

التوقيع:
عضواً: أ.د علي خضير عبد العباس
التاريخ: ٩ / ٩ / ٢٠٢٦

التوقيع:
عضواً: أ.د سوسن فاضل كاظم
التاريخ: ٩/ ٩ /٢٠٢٦

التوقيع:
عضواً: أ.م.د شمخي يابر عويد
التاريخ: ١٠/ ٩ / ٢٠٢٦

التوقيع:
عضواً ومشرفاً: أ.د حيدر مزهر عسكر
التاريخ: ١٤/ ٩ / ٢٠٢٦

---

صُدّقت من قِبل مجلس كُليّة التّربية للعُلوم الإنسانيّة/ جامعة واسط/ على قرار اللجنة

الأستاذ الدكتور محمود حمود عراك

محمود حمود عراك القريشي
عميد كليّة التربية للعُلوم الإنسانيّة
التاريخ: ١٥/ ٩/ ٢٠٢٦



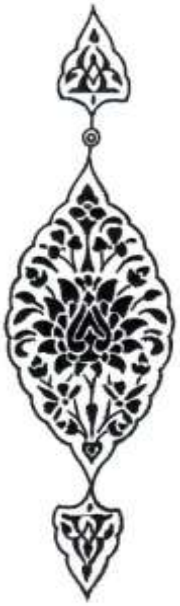
# المُحتَويات

| الموضوع | الصفحة | |
|---|---|---|
| | من | إلى |
| الآية القرآنية | أ | أ |
| الإهداء | ب | ب |
| الشكر والتقدير | ج | د |
| إقرار المشرف | هـ | هـ |
| إقرار المشرف اللغوي | و | و |
| إقرار لجنة المناقشة | ز | ز |
| المحتويات | ح | ي |
| المقدمة وتحليل المصادر والمراجع: | 1 | 9 |
| التمهيد: الطرطوشي سيرته وفلسفته الفكرية | 11 | 30 |
| **الفصل الأول: فلسفة الحكم والإمامة للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي** | 32 | 117 |
| المبحث الأول: ملامح ونشأة فلسفة الإمامة عند الإسماعيلية | 32 | 92 |
| أولاً: الإمامة في القرآن الكريم وتفسيره | 32 | 63 |
| ثانيا: الإمامة في السيرة النبوية | 64 | 80 |
| ثالثا: فلسفة الإمامة عند الإسماعيلية | 81 | 92 |
| المبحث الثاني : مقومات الحاكم العادل وصفات الإمام عند الطرطوشي | 93 | 117 |
| أولاً : العلم عند الإمام | 93 | 100 |
| ثانياً : العدل عند الإمام | 101 | 105 |
| ثالثاً: منزلة الإمام من القرآن | 105 | 111 |
| رابعاً: أخلاق الإمام | 111 | 117 |
| **الفصل الثاني: السياسة الرشيدة في الدولة الفاطمية في ضوء** | 119 | 184 |

| الموضوع | الصفحة | |
|---|---|---|
| | من | إلى |
| **فلسفة الطرطوشي** | | |
| المبحث الأول: سياسة الخلفاء الفاطميين مع الرعية في المغرب | 119 | 140 |
| المبحث الثاني: محاسن سياسة الفاطميين في مصر | 141 | 167 |
| المبحث الثالث: مبادئ السياسة المالية للدولة الفاطمية | 168 | 184 |
| **الفصل الثالث : العمران البشري والمؤسسات الحضارية للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي** | 186 | 252 |
| المبحث الأول : المؤسسات السياسية | 188 | 214 |
| أولاً: الخلافة | 188 | 197 |
| ثانياً: الوزارة | 197 | 207 |
| ثالثاً: القضاء | 207 | 214 |
| المبحث الثاني: العمران والنشاط الاقتصادي | 215 | 232 |
| المبحث الثالث: العمران الاجتماعي في الدولة الفاطمية | 233 | 252 |
| **الفصل الرابع: مثالب السياسة وآليات السقوط للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي** | 254 | 309 |
| المبحث الأول : مثالب السياسة في المغرب العربي | 254 | 269 |
| المبحث الثاني: مثالب السياسة في مصر | 270 | 309 |
| أولاً: القداسة في نظام الوراثة | 270 | 279 |
| ثانياً: نفوذ النساء في البلاط الفاطمي | 279 | 287 |
| ثالثاً: الصراع بين طوائف الجيش | 288 | 309 |
| الخاتمة | 311 | 312 |
| قائمة المصادر والمراجع | 314 | 341 |
| الخلاصة باللغة الانكليزية | A | C |

# المقدّمـــــة

# وتحليل المصادر والمراجع



**المقدِّمة**

شهدت الساحة الإسلامية في نهاية القرن الثالث وبدايات القرن الرابع الهجري قيام الدولة الفاطمية، التي مهد لها تنظيم عقديّ انتشر في مختلف البلدان واعتمد منهج السرية والكتمان، لذا غاب الكثير من مفاصل تأريخ تلك الدولة عن الباحثين، واشترك الكثير من المؤرخين في تضييع تأريخ الدولة الفاطمية، وعدم الوقوف عند منجزاتها، لأسباب منها سياسية ومنها عقديّة، والسعي لعدم إظهار محاسن تلك الدولة، وشهد تاريخها محطات مهمة من الإنجاز على المستوى السياسي والعمراني وبالأخص بالمعنى البشري منه، وهناك مراحل من التدهور والصراعات الداخلية التي عصفت بالدولة من خلال سياسات وهفوات حملت تراكمات نمت وتفاقمت بمرور الزمن إلى أن وصلت إلى مراحل غابت فيها الحلول .

إن دراسة موضوع يتعلق في الدولة وبنائها على أسس العدالة والصلاح من خلال سياسة متوازنة أساسها العلم والمعرفة ونظام إداري دقيق وصارم تحفظ فيه حقوق المجتمع ويهيئ مقومات البناء والنهوض ذو أهمية بالغة للارتباط الوثيق بالإنسان والسعي لغرض توفير ما يحتاج إليه وتحقيق المصلحة العامة للمجتمع لذلك اكتسبت تلك الدراسات أهمية واسعة في الاوساط العلمية والثقافية وشغلت جانباً مهماً من التفكير الإنساني لذلك وقع اختيارنا على دراسة ما خطته أنامل المفكرين والفلاسفة العرب ومنهم الطرطوشي(ت520هـ) الذي عاش جزءاً من حياته في كنف الدولة الفاطمية على الرغم من أنّه حمل اعتقاداً مذهبياً مغايراً لمذهب تلك الدولة، إذ كان على المذهب المالكي ومع ذلك لم يقف عائقاً في رفضه ومعارضته للسياسة الظالمة التي انتهجها الوزير الأفضل (487هـ . 515هـ/1094 . 1121م) ثم كان مؤيداً وداعماً لوزارة المأمون البطائحي ( 515هـ . 519هـ / 1121 . 1125م ) الذي سعى للإصلاح في الدولة الفاطمية ، وتعبيراً عن دعم الطرطوشي للوزارة أهدى له كتاب سراج الملوك الذي عبر فيه عن فلسفته وأفكاره العلمية الإصلاحية وبيان عوامل النجاح و العلاقة بين السياسة

والأخلاق في الحكم وأسباب الإخفاق في السلطة السياسية والإدارية لذلك رأينا إعادة طرح تلك الأسس والمبادئ التي بيّنها الطرطوشي كونها قواعد عامة ونتاج تجارب أمم ممكنة التطبيق في أيّ زمان ومكان، والعمل على تنفيذها على تاريخ الدولة الفاطمية من أجل بيان تطبيقات وشواهد تاريخية لتلك الأسس ومعرفة مواطن الضعف والقوة التي مرت بها الدولة الفاطمية لغرض الوصول إلى محاسن فلسفة التاريخ ألا وهو الاطلاع على تجارب الأمم السالفة من أجل قراءة الحاضر واستشراف المستقبل والوقوف على أسس النجاح وقواعده في بناء الدولة ومعرفة عوامل التراجع والانهيار فيها .

لذلك وقع اختيارنا على عنوان الأطروحة الموسوم (تاريخ الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي 520هـ/1126م للسياسة والعمران)، لدراسة تاريخ الدولة الفاطمية من خلال القواعد الفكرية والفلسفية للطرطوشي على مستوى السياسة والعمران على وفق المنهج التطبيقي في الدراسات التأريخية.

أما فرضية البحث هي أن نشوء الدول وازدهارها الحضاري، وصولاً الى مراحل تراجعها وانهيارها هي نتيجة تطبيق أسس وقواعد سياسية وعمرانية اكتسبت من تجارب حضارات ودول سابقة أما مرحلة الانهيار هي نتيجة اختلال تلك الأسس والقواعد ونسعى الى تطبيق ذلك على تاريخ الدولة الفاطمية لمعرفة مدى صلاحية تلك الفلسفة التي وضع معالمها الطرطوشي.

ولا بُدّ من الإشارة إلى الدراسات السابقة أو المقاربة لموضوع البحث منها دراسة للباحث فائز خلف عمير بعنوان (قيام الدولة الفاطمية وانهيارها في ضوء نظرية ابن خلدون(ت 808 / 1406م)، وجاءت الدراسة على وفق الأطر الفلسفية التي وضعها ابن خلدون في مراحل نشوء الحضارة، والدراسة الأخرى هي رسالتنا الموسومة (الدولة الفاطمية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة(297 ــ 567هـ/909 ــ 1171م) وتم فيها دراسة تاريخ الدولة الفاطمية بعين النظريات الفلسفية المعاصرة وهي نظرية التحدي والاستجابة لأرنولد توينبي, ونجد أنّ ظاهر نظريته هي دراستها للحضارات

قديمها وحديثها إلا أنه لم يغفل دور الدولة باعتبارها حلقة من حلقات الحضارة, بدءاً بالمجتمع ثم الدولة وصولاً إلى الحضارة، وهناك دراسة للباحثة سهام جميل جاسم المحمدي بعنوان (الطرطوشي ومنهجه في كتابه سراج الملوك (دراسة وتحليل)، وتلك الدراسة من الدراسات الفكرية المجردة التي ركزت على دراسة وتحليل فكر الطرطوشي ولم تتناول أحداث تأريخية سوى حياة وسيرة مؤلف الكتاب، وهناك دراسات استشراقية منها دراسة للمستشرقة الروسية اسيمينوفا بعنوان (تاريخ مصر الفاطمية)، وركزت الدراسة على جوانب من التاريخ الفاطمي من وجهة نظر تأريخية من خلال بيان نظام الحكم الفاطمي في مصر، وكذلك تناولت الجوانب الاقتصادية الزراعية والتجارية، ولم تغفل الدراسة الجوانب الاجتماعية، وبينت الدراسة معالم الأسس والنظم الفاطمية في إدارة تلك الجوانب، وهي دراسة مغايرة لأسلوب دراستنا .

ووفقاً للمتطلبات البحثية والموضوعية، تم تقسيم الأطروحة على تمهيد ومقدمة وأربعة فصول وخاتمة، إذ احتوت المقدِّمة على شرح أهمية الموضوع وعرض أهم مصادره، وقد خصص الفصل الأول لدراسة فلسفة الإمامة في الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي , وتضمن مبحثين الأول فلسفة وجود الإمام وقسم إلى الإمامة في القرآن الكريم، وفي السيرة النبوية، وفلسفة الإمامة عند الإسماعيلية، والمبحث الثاني صفات الإمام في ضوء فلسفة الطرطوشي، وقسم الى العلم عند الإمام، والعدل ومنزلته من القرآن، وأخلاق الإمام .

وتناول الفصل الثاني السياسة الرشيدة للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي، وذكر في المبحث الأول سياسة الخلفاء الفاطميين مع الرعية في المغرب، والمبحث الثاني محاسن سياسة الفاطميين في مصر، والمبحث الثالث مبادئ السياسة المالية للدولة الفاطمية .

وتضمن الفصل الثالث العمران البشري في الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي وقسم على ثلاثة مباحث، الأول المؤسسات السياسية،

وهي الخلافة والوزارة والقضاء، والثاني العمران والنشاط الاقتصادي، والأخير العمران الاجتماعي في الدولة الفاطمية .

وركز الفصل الرابع على مثالب السياسة للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي وتضمن مبحثين الأول مثالب السياسة في المغرب العربي والثاني مثالب السياسة في مصر التي تناولت القداسة في نظام الوراثة ونفوذ النساء في البلاط الفاطمي والصراع بين طوائف الجيش .

وجاءت الخاتمة لتبين أهم النتائج التي خرجت بها الدراسة .

وأفادت الأطروحة من العديد من المصادر والمراجع التي أغنتنا في الكثير من المعلومات التي تخص دراستنا وسنذكر البعض منها وهي :

**أولاً : كتب التاريخ :**

كان لكتب التاريخ العام أو تاريخ الدول أهمية كبيرة في الدراسة بما فيها كتب التاريخ والعقائد للإسماعيلية، وتكمن أهميتها فيما قدمته من معلومات ذو قيمة كبيرة، في نقل الاحداث التاريخية التي رافقت قيام الدولة الفاطمية، والتي اعتمدتها الدراسة .

1- **إفتتاح الدعوة** ، لمؤلفه القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن حيون التميمي المغربي (ت 363هـ / 973م)، وهو كتاب قيم أفادت منه الدراسة في جميع فصولها، تناول فيه أمر الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب، إلى ظهور عبد الله المهدي وقيام الخلافة الفاطمية، حيث سلط الضوء على دور الدعاة وعلى رأسهم الداعي الشهير أبي عبد الله الشيعي، ودوره في قيام الدولة في المغرب وتحوّل الدعوة الإسماعيلية إلى تنظيم عقدي وسياسي، وهذا الكتاب أمدّنا بمعلومات ثمينة في نشوء الدولة الفاطمية ومحاولات فتح مصر، وأرخ الكتاب لخلفاء الدولة الفاطمية الذين حكموا في بلاد المغرب .

2- **المجالس والمسايرات** ، لمؤلفه أبي حنيفة النعمان ويعدّ هذا الكتاب وثيقة مهمة عن الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب، وهو عبارة عن مجموعة من الأقوال صادرة عن الأئمة الفاطميين المعاصرين للنعمان، ولاسيما الخليفة

المعـز لـدين الله(341. 365هـ/951. 975م) وزود الدراسـة بمعلومـات قيمّـة عـن العقائـد الفاطميـة وعـن نظـام الإمامـة الفاطميـة وسـلطة وسياسـة الخلفـاء الفاطميين .

3-**الكامـل فـي التـاريخ** ، لمؤلفـه عـزّ الـدين أبـي الحسـن علـي بـن أبـي الكـرم بـن محمـد بـن عبـد الكـريم بـن عبـد الواحـد الشـيباني المعـروف بـأبن الأثيـر (ت630هـ / 1233م)، ركـز فيـه مؤلفـه علـى تـاريخ العـالم الإسـلامي، وهـو مـن مصـادر التـاريخ العـام، حـاول فيـه التـوازن بـين جميـع الأقـاليم، وقـد أفـادت الدراسـة مـن هـذا الكتـاب فـي فصـولها كافـة، وذكـر فيـه احـداث الفـاطميين فـي المغـرب بصـورة تفصـيلية سـنة بعـد اخـرى فـي مختلـف المجـالات منـذ بدايـة نشـاط ابـي عبـد الله الشـيعي فـي ايكجـان إلـى رحيـل الخليفـة المعـز لـدين الله إلـى مصـر وكانـت الفائـدة كبيـرة ومثمـرة لكونـه كـان متوازنـاً ومعتـدلاً أكثـر مـن غيره .

4-**البيـان المغـرب فـي أخبـار الأنـدلس والمغـرب**، لمؤلفـه أبـي عبـد الله محمـد أو أحمـد بـن محمـد المراكشـي المعـروف بـابن عـذاري (ت695هـ/ 1295م)، ويُعـدّ هـذا الكتـاب مـن أغـزر الكتـب وأوسـعها فـي أخبـار إفريقيـة والمغـرب وعرضـها فـي حـوادث كـل عـام ، أخـذنا مـن عـدة أجـزاء مـن هـذا الكتـاب، وهـو ذو أهميـة خاصـة لأنّـه يشـتمل علـى روايـات كثيـرة، مُسـتقاة مـن مصـادر معاصرة للأحداث وهذا الكتاب أفاد الدراسة في مواضع كثيرة .

5- **العبـر وديـوان المبـتدأ والخبـر فـي تـأريخ العـرب والعجـم والبربـر ومـن عاصـرهم مـن ذوي الشـأن الأكبـر**، لمؤلفـه أبـي زيـد عبـد الـرحمن بـن محمـد بـن محمـد ابـن خلـدون (ت 808هـ / 1405م)، وهـو مـن مصـادر التـاريخ الإسـلامي العـام ،حـاول فيـه المؤلـف اسـتيعاب أخبـار جميـع الـدول الإسـلامية، التـي قامـت فـي المغـرب أو المشـرق الإسـلامي، وقسـمّ المؤلـف كتابـه علـى أبـواب عـدّة، وأفـرد بابـاً لكـلّ دولـة مـن الـدول الإسـلامية، فـأورد معلومـات كثيـرة عـن الدولـة الفاطميـة وخلفائهـا، وامتـاز الكتـاب بغـزارة مادتـه وعمقهـا فـي المجـال السياسـي والاقتصـادي وأمـدنا بمعلومـات عـن القضـاء وكـذلك

معلومات قيمة عن قبائل المغرب، كل من كتامة وصنهاجة وزناته، وبين ابن خلدون فيه العلاقة بين أبواب كتابه وما تضمنه سراج الملوك للطرطوشي من أبواب، موجهاً نقداً لها، مبيناً انها كانت بحاجة الى نضوج أكبر.

6- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** ، لمؤلفه تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر أبي العباس الحسيني العبيدي (ت 845هـ / 1441م)، أوقف المقريزي هذا الكتاب على ذكر الخلفاء الفاطميين وعدّهم من الأئمة، ويُوصف بأنّه أشمل الكتب عن تاريخ الفاطميين منذ قيام دولتهم في بلاد المغرب، وحتى سقوطها في مصر، تناول أخبارهم بالشرح والتفصيل، وذكر الاحداث السياسية التي وقعت في خلافة كل خليفة، وكذلك معلومات كثيرة عن اخبار وزراء الدولة وانجازاتهم في مجالات كثيرة وامتاز بتوخي الموضوعية في إيراد الحقائق والأخبار، فضلاً عن اعتماده على وثائق ومصادر لاتزال أصولها مفقودة، وقد أخذنا منه الكثير من النصوص التي كانت قريبة من نصوص كتاب الطرطوشي، وزوّد الدراسة بمعلومات ثمينة في أغلب فصولها .

7-**عيون الأخبار وفنون الآثار**، لمؤلفه عماد الدين إدريس بن الحسن بن عبد الله بن علي القرشي المعروف بالداعي إدريس (ت 872هـ / 1467م)، ويقع هذا الكتاب في سبعة مجلدات ضخمة، تناول في المجلد الرابع تفاصيل عن حياة الأئمة الإسماعيلية، من الإمام إسماعيل بن جعفر وبعده محمد بن إسماعيل، ومن ثم عبدالله الرضي إلى أحمد التقي وتناول المجلد الخامس الأحداث التي أدت إلى قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، وذكر عهد الخليفة عبدالله المهدي والقائم بأمر الله، وحركة أبي يزيد بن كيداد وذكر في المجلد السادس أخباراً عن الخليفة المعز وانتقاله إلى مصر، وقد أفادنا الكتاب إفادة عظيمة انعكست على معظم فصول الدراسة .

1- **النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة**، لمؤلفه ابن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن الاتابكي (ت 874هـ/1469م) ، ارخ المؤرخ في هذا

الكتاب لجميع من حكم مصر منذ الفتح العربي الاسلامي سنة 20هـ/640م إلى سنة 872هـ/1467م وتناول تراجم الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر فضلا عن ذكره الكثير من تاريخ وأحوال هذه البلاد أفادت منه الدراسة في جميع فصولها .

**ثانياً : كتبُ الجغرافية التاريخية والبلدان:**

لا يمكن لأي باحث الاستغناء عن كتب الجغرافية، وذلك لحاجته الماسة لها في بيان المواقع الجغرافية، والتعريف ببعض الأماكن التي يرد ذكرها في الدراسة، ويأتي في مقدمة تلك الكتب:

1- **معجم البلدان**، لمؤلفه شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي (ت626هـ/ 1228م)، وهو موسوعة جغرافية تاريخية مرتبة بحسب حروف المعجم، جمع فيها المادة الجغرافية والتاريخية حتى عصره، وهذا المصدر كان ذا فائدة كبيرة لدراستنا، إذ عرفّنا بالعديد من المدن، وزودنا بمعلومات قيمة عن مواقع تلك المدن بشكل دقيق .

2- **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**: لمؤلفه تقي الدين المقريزي أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ / 1441م)يعد هذا الكتاب موسوعة غنية بالمعلومات الدقيقة عن ديار مصر وفيه وصف للمدن وأحيائها وشوارعها ومنشآتها، وربط الأماكن بالأحداث والأشخاص والمؤسسات وجمع بين التاريخ السياسي والجغرافية، وذكر معلومات قيمة عن نظام الوزارة الفاطمية ونفوذها فضلا عن تزويدنا بالمعلومات الكثيرة عن الجوانب العمرانية والاجتماعية والاقتصادية، وامتاز المقريزي في هذا المصنف بالدقة وغزارة المادة وسلامة العبارة ووضوح الاسلوب وكانت الفائدة من الكتاب كبيرة في جميع فصول الدراسة بمواضيع مختلفة .

**ثالثاً: كتب التراجم :**

كان لكتب التراجم أهمية كبيرة في بيان سير القادة والأفراد ونشاطاتهم الذين ورد ذكرهم في الدراسة ونخص بالذكر منها:

1- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، لمؤلفه أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر المشهور بابن خلكان ( ت 681 هـ / 1282م )، وهذا الكتاب معجم تأريخي ضخم، ومن أحسن ما كتب في تراجم الرجال، رتبّه مؤلفه وفق حروف الهجاء، وقد أفاد الدراسة كثيراً في تراجم بعض الشخصيات، ومعلومات وتراجم عن الخلفاء والوزراء المتأخرين عن الدولة الفاطمية .

2- **كتاب المقفى الكبير** ، لمؤلفه تقيّ الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي (ت 845 هـ / 1441 م )، وهو كتاب في التاريخ أرخ فيه لكل من دخل مصر من سيدنا ابراهيم (عليه السلام)، والصحابة إلى زمن المقريزي منتصف القرن التاسع الهجري ويُعدّ من أهم كتب التراجم المصرية والمغربية، فهو قاموس رجال وقد رتبّه المقريزي بحسب حروف المعجم، وكتبه بثمان أجزاء، وقد احتوى هذا الكتاب على تراجم كثيرة لا نجدها في كتب أخرى .

## رابعاً: المراجع الحديثة:

كان للمراجع الحديثة أهمية في دراستنا لتاريخ الدولة الفاطمية، منها محمد حمدي المناوي في كتابة الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، أفادت منه الدراسة في معرفة أحوال الوزارة وشخوصها، ومن المراجع الأخرى رمضان محمد رمضان، في كتابه الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية، وفيه تفصيل عن الحياة الاجتماعية لما فيها من علاقة بموضوع دراستنا، ومن المراجع المهمة في ذكر معلومات عن فلسفة الطرطوشي للباحث في مجال الفلسفة علي حسين الجابري في كتابة مفكرو الإسلام والعمران البشري وفيه بيان لفلسفة الطرطوشي في السياسة والعمران البشري .

وختاماً أقول الحمد الله الذي وهبني من القوة ورزقني العزيمة لإنجاز هذا البحث، وأتمنى من الله عزّ وجلّ أن لا تكون عثراتي فوق ما قدرت، وأسال الله القدير أن يوفقنا جميعاً.

# التمهيد

## الطرطوشي سيرته وفلسفته الفكرية

**أولاً: سيرته الشخصية**

محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري أبو بكر[1](ت520هـ) وحضي بكنى وألقاب منها ابن أبي رندقة في البلاد التي نشأ فيها وهي كلمة فرنجية تأتي بمعنى (رد تعال)[2] وعرف بالطرطوشي نسبة إلى طرطوشة[3] في بلاد الأندلس، وتلقب بالقرشي نسبة إلى انتمائه إلى قبيلة قريش[4]، والأندلسي[5]، لولادته ونشأته في بلاد الأندلس وعرف بالمالكي[6] تعبيراً عن مذهب مالك بن أنس، إذ كان فقيهاً عالماً، ولقب أيضاً بالأسكندري[7] كونه سكن واستقر ومارس حياته العلمية في الإسكندرية.

كانت ولادة الطرطوشي في مسقط رأسه مدينة طرطوشة في سنة (451هـ/1095م)[8]، ولم تذكر المصادر تفاصيل عن نشأته الأولى، أو الأسرة التي عاش في كنفها، سوى بعض الإشارات منها ما ذكره هو عن أحد الرجال الذين عرفوا بالشجاعة وكان من أخواله، وذلك في قوله: "**وكان**

(1) الضبي، بغية الملتمس، ص135 ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5/ص115 .

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص30 ؛ المقريزي، المقفى، ج7/ص220 .

(3) مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر وهي آخر ثغر الأندلس في الشرق محادة لبلاد الإفرنج متقنة العمارة مبنية على نهر ابره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعدّ في جملتها تحلّ فيها التجار وتسافر منها إلى سائر الأمصار، واستولى الأفرنج عليها في سنة (543هـ/1148م). وكذلك على جميع حصونها . اليعقوبي، البلدان، ص195 ؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص30 .

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص262 .

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص262 .

(6) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص30 .

(7) مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1/ص183. 184 .

(8) العليمي، الأنس الجليل، ج1/ص301 .

**بسرقسطة فارس يقال له ابن فتحون، وكان يناسبني من جهة أمي فيقع ابن خال والدتي، وكان أشجع العرب والعجم، وكان المستعين أبو المقتدر[1] يرى له ذلك ويعظمه، وكان يجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه"[2]**، ويتبين من ظاهر النص أنّ الطرطوشي كان يتفاخر في انتمائه الى أسرة كان لها شأن في الأندلس عرفت بالشجاعة وكانوا رجال حرب، أضف الى ذلك ولادته في مدينة طرطوشة آخر ثغر للأندلس من جهة الشرق وأهلها على صدام مستمر مع جيوش الفرنجة الطامعة في أرض الأندلس[3] لذلك نرجح أنه من أسرة امتهن رجالها القتال .

وذكر في حديثه عن تفاصيل رحلته إلى الشرق أنّه لا يمتهن أيّ حرفة ولم يمارس التجارة في حياته، وذلك في قوله: **"وأمّا أنا فلمّا هممت بالرحيل من بلدي إلى المشرق في طلب العلم، وكنت لا أعرف التجارة ولا لي حرفة أرجع إليها، فجزعت من الخروج وكنت أقول: إنّي إن ذهبت نفقتي ماذا أفعل؟ وكان أقوى الآمال في نفسي أن أحفظ البساتين بالأجرة وأدرس العلم بالليل، ثم استخرت الله تعالى فرحلت وكانت معي نفقة وافرة في هميان**

(1) أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى(430-503هـ) مولى أبي حذيفة الجذامي، مؤسس دولة آل هود، من ملوك الطوائف في الأندلس وحاكم طائفة سرقسطة. كان مقيما في تطلية من كبار الجند، فلما اضطرب أمر الأمويين استولى عليها (سنة 410هـ/1019م) وتلقب (المستعين بالله) وملك لاردة ثم سرقسطة سنة(431هـ/1039م) وانتقل إليها. وانتظم له الأمر، وضخم ملكه، فقسّم بلاده على أبنائه، فجعل لكل منهم ولاية، وكانوا خمسة. واستمر في الحكم إلى أن مات وكان أشهر حكام أسرته كل من أحمد بن سليمان(المقتدر بالله)، ويوسف بن أحمد(المؤتمن بالله)، وأحمد بن يوسف(المستعين بالله). ابن الآبار، الحلة السيراء، ج2/ص246 ؛ الزركلي، الأعلام، ج3/ص132 .

(2) سراج الملوك، ص701 .

(3) اليعقوبي، البلدان، ص195 ؛ عنان، دولة الإسلام، ج1/ص404 .

**علـى وسـطي"**[1]، مـن قـراءة الـنص نلاحـظ أنـه كانـت لديـه نفقـة وافـرة وفـي ذلـك دلالـة علـى أنـه كـان مـن أسـرة ميسـورة الحـال ولـم يعـانِ فـي تـوفير نفقـة السـفر، ولـيس لديـه مهنـة أو عمـل فـي بـلاده سـوى طلـب العلـم، ويبـدوا أنّـه درس علـى يـد أكـابر العلمـاء مـنهم أبـو الوليـد البـاجي[2]، إذ نقـل عنـه قولـه: "**لـم أرحـل مـن الأندلس حتى تفقهت ولزمت الباجي مدة**"[3].

أمّـا زواجـه كـان عونـاً لـه فـي سـيرته العلميـة، إذ تـزوج مـن سـيدة ميسـورة الحـال منحتـه داراً اسـتثمرها فـي السـكن فـي طابقهـا العلـوي، وأنشـأ فـي الطـابق السـفلي مدرسـة للتـدريس[4]، وذكـر الطرطوشـي أنّـه كـان لـه ولـد مـن زواجـه فـي مصـر وذلـك فـي قولـه: "**قـد دورت الـبلاد شـرقاً وغربـاً، فمـا اختـرت مملكـة تزوجت فيها وولد لي فيها غير هذه المملكة**"[5].

أمّـا رحلتـه نحـو المشـرق فـي سـنة (476هـ/1083م)[6] كـان مقصـده فيهـا طلـب العلـم وقـد نـال منـه فـي بـلاد الأنـدلس المقـدار الـذي سـمي بـه فقيهـاً وذلـك مـا ذكـره فـي طريـق رحلتـه نحـو الشـرق، إذ قـال: "**فخرجـت مـن بـلاد السـويدية**[7]

---

(1) سراج الملوك، ص665 .

(2) سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي، من أبرز أعلام الفقه المالكي والحديث في الأندلس، ولد في بطليوس سنة (403هـ/1012م)، وارتحل للمشرق طالباً للعلم فمكث 13 سنة، تنقل بين الحجاز وبغداد ودمشق ثم عاد ليصبح قاضياً ومفكراً بارزاً للمذهب المالكي، له مؤلفات عظيمة مثل المنتقى في شرح الموطأ وغيرها، توفى سنة (474هـ/1081م) بالمرية . ينظر: الذهبي، سير أعلام، ج18/ص535 ؛ الحميري، الروض المعطار، ص75 ؛ مخلوف، شجرة النور، ج1/ص178 .

(3) الضبي، بغية الملتمس، ص135 .

(4) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2/ص245 . 246 .

(5) سراج الملوك، ص148 .

(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص262 .

(7) بلدة سورية تقع شمال شرق سوريا جنوب مدينة المالكية كانت ترسو فيه مراكب الأفرنج يرفعون منه أمتعتهم على الدواب إلى أنطاكية، وكان الرشيد العباسي قد دخل أنطاكية في بعض غزواته

**إلى أنطاكية وهي إذ ذاك حرم للروم فسرينا ليلتنا وأصبحنا على باب أنطاكية ... فقال: ما لك أيّها الفقيه؟ فقلت: خيراً فراجعني فقلت خيراً"[1]**، وفي النص دلالة على أنّ الطرطوشي كان معروفاً بالعلم وكان فقيهاً، وكذلك شهد بعلمه القاضي أبو علي الحسين بن محمد بن فرو الصدفي(ت514هـ/1120م)[2]، الذي ذكر أنّه أخذ منه السنن وذلك في قوله: "**صحبته بالأندلس عند الباجي ولقيته بمكة وأخذت عنه أكثر السنن لأبي داود عن التستري**"[3].

وعلى ما يبدو أنّ الطرطوشي اتخذ من مكة محطة للسفر لزيارة بيت الله الحرام وما تمثله تلك الزيارة من دعم ديني ومعنوي لمن حلّ بها، ومن ثم أكمل رحلته إلى مقصده وهو أرض العراق، والظاهر من توقيت الترحال إلى هناك، سياسة جذب العلماء التي مارسها الوزير نظام الملك زمن السلاجقة عند وصوله إلى السلطة في العراق، وما بذله من دعم لطلاب العلم، ممّا نتج عنه استقطاب المفكرين والعلماء من جميع أنحاء العالم، ومنها بلاد الأندلس التي جاء منها الطرطوشي، وذكر ذلك في قوله: "**وكان الذي مهد له ذلك بإذن الله تعالى وتوفيقه أنه أقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، فبنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء، وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ثم أجرى لهم الجرايات والكسى والنفقات،**

---

فاستطابها جدا وعزم على المقام بها . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ص268 ؛ مجموعة مؤلفين، المعجم الجغرافي للقطر السوري، ج3/ص692.

(1) سراج الملوك، ص665 . 666 .

(2) الحسين بن محمد بن فرو الصدفي المعروف بالقاضي أبو علي الصدفي، عالم ومحدث أندلسي عرف برحلته في طلب العلم وروايته للحديث من كبار علماء الأندلس والشرق . القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2/ص91 ؛ ابن بشكوال، الصلة، ص40 ؛ ينظر: الذهبي، سير الأعلام، ج18/ص539 .

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص30 .

**وأجرى الخبز والورق لمن كان من أهل العلم مضافا إلى أرزاقهم، وعم بذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام وهي بيت المقدس إلى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين، وخراسان بأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم، حامل علم أو طالبه أو زاهد أو متعبد في زاويته إلّا وكرامته شاملة له سابغة عليه. فكان الذي يخرج من بيوت أمواله في هذه الأبواب ستمائة ألف دينار في كل سنة"[1] .**

وبين الطرطوشي طريق رحلته في تحصيل العلوم، وذكر مقدار الفائدة التي نالها من العلم عند وصوله إلى بغداد، وكان ذلك في قوله: **"فلمّا وصلت إلى بغداد دخلت المدرسة العادلية[2] فسمعت المدرس يقول: مسألة إذا تعارض أصل وظاهر فأيّها يحكم؟ فما علمت ما يقول ولا دريت إلى ما يشير حتى فتح الله وبلغ بي ما بلغ"[3]** ، ودرس في بغداد الفقه على يد أبي بكر محمد بن الحسين الشاشي(ت507هـ/1114م)[4]، ثم سافر إلى البصرة

(1) سراج الملوك، ص 514 .

(2) لم يرد في المصادر المتوفرة لدينا ذكر لمدرسة أسمها العادلية في بغداد، وربما كان المقصود المدرسة النظامية التي بناها الوزير نظام الملك في بغداد سنة(457هـ/1064م)، كونه قد أخبر عن أول من درس في المدرسة وهو الشيخ إبراهيم بن علي بن يوسف المعروف بأبو إسحاق الشيرازي، وكذلك درس الطرطوشي في بغداد عند أئمة الشافعية كل من أبي بكر الشاشي الذي كان مدرساً في النظامية وأبي سعد بن المتولي وأبي أحمد الجرجاني . ينظر: الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص4 ؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4/ص30 ؛ ابن كثير، طبقات الشافعيين، ص462.

(3) الضبي، بغية الملتمس، ص135 .

(4) مُحَمَّد بن أَحْمد ابْن الْحُسَيْن، أَبُو بكر الشَّاشِي، من ألقابه فخر الإسلام، كان شيخ الشافعية ورئيس المذهب في بغداد، درس في المدرسة النظامية . ينظر: ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، ج1/ص85 ؛ الذهبي، سير أعلام، ج19/ص393 . 394 .

لطلب العلم، وداوم على السماع من أبي علي التستري (ت479هـ/1086م)[1] سنن أبي داود، لذلك عرف بالحديث عنه[2].

ومن خلال تواجد الطرطوشي في العراق كون في ذاته فلسفة الزهد التي عرف بها، وذكر ذلك في قوله: "**وها أنا أحكي لك أمراً أصابني طيش عقلي وبلبل حزمي وقطع نياط قلبي، فلا يزال مرآة لي حتى يواريني التراب. وذلك أنّي كنت يوماً بالعراق وأنا أشرب ماء، فقال لي صاحب لي وكان له عقل: يا فلان لعلّ هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء قد كان إنساناً يوماً من الدهر، فمات فصار تراباً**"[3]، والظاهر من النص أنّ تلك الكلمات كان لها بالغ الأثر في نفس أبي بكر الطرطوشي، ممّا أيقظ فيه الزهد في الحياة الدنيا، وتبني فلسفة الموعظة والإصلاح، بعد إدراكه أن نهاية كل إنسان هو الرحيل إلى دار الآخرة، وأمّا الجسد الفاني الذي يستهلك الإنسان أغلب مراحل حياته ساعياً لتوفير رغد العيش، ويتحول في نهاية المطاف إلى تراب .

وتبنى الطرطوشي فلسفة الزهد في ملذات الدنيا الزائلة وقال في ذلك: "**أليس في هذا ما صغر الدنيا وما فيها؟ أليس في هذا ما حقر الملك عند من عظمه والمال عند من جمعه؟ أليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى عن الشهوات؟ وقال مسعر: كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر غداً وليس من أجله، إنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره**"[4]،

---

(1) أبو علي التّستري، علي بن أحمد بن علي البصري السّقطي، راوي سنن أبي داود عن أبي عمر الهاشمي . ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج32/ص166 ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج5/ص345 .

(2) ابن نقطة، التقييد لمعرفة رواة السنن، ص117 .

(3) سراج الملوك، ص99 .

(4) سراج الملوك، ص100 . 101 .

وكان من صفاته مضافاً إلى علمه ودينه وورعه، التواضع والزهد والتقشف والرضى بالقليل[1]، وتلك هي بعض ميزات الصوفية، ولاسيما أنّ الطرطوشي قد اعتقد بأعمالهم وتسمى بالصوفي[2] ورافق أحد الصوفية، وهو عبد الله السائح[3]، في رحلته إلى بلاد الشام، ومن ثم الي مصر[4]، وعاش في بلاد الشام مدة عرف فيها عالما زاهداً ورعاً متواضعاً واستمر في إعطاء الدروس فيها والتعبير عن فلسفته فيها التي قوامها التقشف وتهذيب الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[5] .

وتنقل الطرطوشي في بلاد الشام بين دمشق وبعدها بيت المقدس التي داوم فيها على التدريس، وشهد بذلك أحد تلاميذه[6] وهو الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الأندلسي[7] أنّه درس الفقه

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج5/ص231 .

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5/ص231 .

(3) أبو محمد عابد وزاهد ومتصوف، من أعلام القرن الخامس الهجري، تميز بورعه الشديد وانقطاعه التام عن الدنيا، سمي بالسايح لكثرة سياحته وانتقاله في الأرض طلباً للانفراد بعبادة الله تعالى، والبعد عن الشهرة، قضى معظم حياته في عزلة عن الناس، منها في جبل لبنان يقتات النباتات البرية هرباً من الشبهات، واكتسب شهرته التأريخية بعد أن زاره أبو بكر الطرطوشي وصاحبه ثم أقنعه بالإنتقال معه الى الأسكندرية لشهود الجمعة ومخالطة المسلمين، متمسكاً بمبدئه الصارم في تحري الحلال الخالص حيث اشترط ألا يأكل إلا الحلال، مما جعل قاضي الأسكندرية يتكفل له برغيف شعير واحداً يومياً، طول فترة إقامته . ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ص138 ؛ أرسلان، الحلل السندسية، ج3/ص17 ، 18 .

(4) الضبي، بغية الملتمس، 136 . 137 .

(5) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2/ص245 .

(6) ابن بشكوال، الصلة، ص558 ؛ الضبي، بغية الملتمس، ص135 .

(7) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري: من أهل إشبيلية يكنى: أبا بكر، من علماء الأندلس، رَحل إِلَى الْمشرق سنة (1092/485م)، فَدخل الشأم وَلَقي بهَا أَبَا بكر الطرطوشي، وتفقه عِنْده. ورحل إِلَى الْحجاز فِي سنة (1095/489م)، وَدخل بَغْدَاد

عند أبي بكر الطرطوشي سنة (485هـ/1092م)[1]، وعرف بعزوفه عن التقرب للحاكم على الرغم من الدعوات له، وذلك ما ذكره ياقوت الحموي في قوله: "**فكان يقنع بشظف من العيش وكانت له نفس أبيّه، أخبرت أنّه كان ببيت المقدس يطبخ في شقف[2]، وكان مجانبا للسلطان استدعاه فلم يجبه، ورامو النقص من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر**"[3]، وفي ذلك النص دلالة عن سياسته تجاه السلاطين، ورفض الدعوات التي تحاول أن تجعله ضمن حاشية الخلفاء والحكام من العلماء، مقابل منافع دنيوية، ثم انتقل إلى جبل لبنان وكان محطته التي التقى فيها رفيق دربه إلى الإسكندرية[4]، عبدالله السايح الذي أقنعه في الذهاب إلى مصر لأرض تسمى الرشيدة فيها مقومات العيش، وبالرغم من أنّ الطرطوشي تبنى فلسفة الزهد عند الصوفية، إلّا أنّه لم يتفق معهم في السياحة والعيش وحيداً معزولاً في البراري وذلك في قوله: "**أنت هاهنا لا تلقى أحداً ولا يلقاك وإن مت لم تجد من يواريك، وفي مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم وحضور الجماعة في الجمعة ما لا**

---

مرَّتَيْنِ، وَصَحب أَبَا بكر الشَّاشِي، وَأَبا حَامِد الْغَزالِيّ، وَغَيرهمَا من الْعلمَاء والأدباء، وَأخذ عَنْهُم. ثمَّ رحل عَن بَغْدَاد، وَمر بِمصْر والإسكندرية، ثمَّ عَاد إِلَى الأندلس سنة (493/1099م)وَكَانَ من أهل التفنن فِي الْعُلُوم، مُتَقَدما فِي المعارف كلهَا، متكلماً فِي أَنْوَاعهَا، حَرِيصًا على نشرها، وكان قاضياً في مَدِينَة إشبيلية. ينظر: ابن بشكوال، الصلة، ص558 ؛ النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص105 .

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص296 .

(2) شقف معناها قطعة مكسورة من إناء أو فخار . ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج8/ص171 .

(3) معجم البلدان، ج4/ص30 .

(4) الضبي، بغية الملتمس، ص135 .

**يخفى عليك"**[1]. ومن ذلك بين الطرطوشي عواقب العزلة وآثارها عند الصوفية .

وأجهد نفسه في سبيل إقناع الشيخ عبدالله السايح إلى مرافقته في رحلته إلى مصر، وقد أجاب عن جميع شكوك صديقه في عواقب سفره ومقدار المصلحة المتحققة، وذلك في قوله: "**فقال له عبد الله: أنا هاهنا آكل الحلال، وأعيش في المباح دون تقلف من ثمر هذه الأشجار، ولا أجد في غير هذا الموضع من المباح ما أجد فيه. فقال له الحافظ أبو بكر: إن تنظر مصر موضعاً يعرف برشيد فيه شيئان مباحان: الملح والحطب تقيم به ويكون عيشنا من هذين المباحين**"[2]، وبعد أن وافق على مرافقته إلى مصر، أبدى له مخاوف أن يفارقه، بسبب إقبال الناس عليه هناك، فأعطاه العهد أن لا يفعل ذلك[3] .

وبعد وصول الطرطوشي ورفيقه إلى رشيد[4]، علم بمقدمهما أهالي الإسكندرية، وكانوا بحاجة إلى الفقيه أبي بكر، فقدموا اليه بزعامة القاضي أبي حديدة[5]، وجهدوا في الطلب من أبي بكر الطرطوشي الذهاب معهم إلى الإسكندرية، فكلمهم عن رفيق دربه والعهد الذي بينهما، واستطاعوا إقناع

---

(1) الضبي، بغية الملتمس، ص135 . 136 .

(2) الضبي، بغية الملتمس، ص136 .

(3) الضبي، بغية الملتمس، ص136 .

(4) بفتح أوله، وكسر ثانيه، بلفظ الرشيد: بلدة على ساحل البحر والنيل، قرب الإسكندرية . ينظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2/ص617 .

(5) لم تذكر المصادر تفاصيل وافية عن سيرته، سوى أنه كان فقيهاً كان يتولى قضاء الإسكندرية عند قدوم أبي بكر الطرطوشي الى مصر، وكان له دور في استقباله واقناعه هو ورفيقه عبد الله السايح للانتقال من الى الإسكندرية، وتكفل بتوفير رغيف خبز يومياً لرفيق الطرطوشي ليسهل استجابة الطرطوشي له . ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ص136 ؛ الزبيري وآخرون، الموسوعة الميسرة، ج3/ص2467 .

عبدالله السايح أن يرافقهما إلى الإسكندرية بعد التزامهم بتوفير قوت يومه، الذي شرط فيه رغيفاً من الشعير في كل ليلة[1]، وبذلك انتقل أبو بكر الطرطوشي إلى الإسكندرية وباشر التدريس وقيل فيه: "**وقعد للتدريس، ونفع الله به كل من قرأ عليه وانتشر علمه**"[2]، وتوفى في الإسكندرية سنة (520هـ/1126م)[3] .

أمّا نتاجه العلمي، فقد أحصي له اثنان وعشرون مؤلفاً[4] أو أكثر بقليل، أغلبها فُقِد وبعضٌ منها مازال مخطوطاً، وهي كتاب (مختصر تفسير الثعالبي)، و(الكتاب الكبير في مسائل الخلاف)، وكتاب (شرح رسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني)، وكتاب (الأسرار والعبر)، و(كتاب يعارض به كتاب الإحياء للغزالي)، وكتاب (الفتن)، وكتاب( تحريم الإستمناء)، وكتاب (نزهة الإخوان المتحابين في الله)، وكتاب (رسالة العدة عند الكرب والشدة)، وكتاب (النهاية في فروع المالكية)، وكتاب (نفائس الفنون)، وكتاب (المجالس)، وكتاب (منتخب في عيون خصائص العباد) وفيه ثلاثة أجزاء تحدث فيها عن الغنى والفقر و(رسالة أبي بكر الطرطوشي الى ابن تاشفين)[5]، أما المؤلفات المطبوعة منها خمسة كتب، هي:

(1) الضبي، بغية الملتمس، ص136 . 137 .

(2) الضبي، بغية الملتمس، ص136 .

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص264 .

(4) أبوبكر، مقدمة تحقيق كتاب سراج الملوك، ص31 .

(5) ينظر: أبو بكر، مقدمة تحقيق كتاب سراج الملوك، ص31 - 46.

1- كتاب الحوادث والبدع، وتضمن البدع التي ليس لها أصل في كتاب الله، ولا سُنة، ولا إجماع، ويعدها بعضهم عبادات وقربات وطاعات وسنن[1] .

2- سراج الملوك، ، وقسم الطرطوشي كتابه على أربعة وستين باباً، وتباينت في عدد الصفحات بين القلة والكثرة، وتضمن الكتاب فلسفته في الدورة الحضارية وهي عبارة عن قسمين، مرحلة الرغد والازدهار التي يكون فيها السلطان عادلاً والقانون محترماً والرفاه الاقتصادي حاضراً والنظام المالي في أحسن حالاته، أمّا مرحلة الانحطاط هي التي يكون فيها السلطان ظالماً مستبداً بعيداً عن الأخلاق والقانون والنظام غائباً، والأحوال الاقتصادية والمعاشية متردية والظلم في السياسة المالية ظاهراً[2] .

3- رسالة في تحريم الجبن الرومي وكتاب تحريم الغناء والسماع، وهذا الكتاب عبارة عن رسالتين للطرطوشي الأولى حرم فيها الجبن القادم من بلاد الروم إلى الإسكندرية[3]، وكتاب تحريم الغناء والمزامير واللهو الذي يقوم بعضهم باسم الدين[4] .

---

(1) تحقيق علي بن حسن الحلبي، طبع لعدة مرات، الأُولى في تونس سنة (1959م) تحقيق محمد الطالبي، آخرها الطبعة الثالثة سنة (1998م) . ينظر: الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص21 .

(2) تحقيق محمد فتحي، صدرت الطبعة الأُولى في القاهرة سنة (1994م)، وهو من أهم كتب الطرطوشي، وطبع الكتاب أكثر من مرة . ينظر: فيريبيه، مدخل إلى فكر الإسلام، ص161 .

(3) تحقيق عبد المجيد تركي، صدرت طبعته الأولى سنة (1997م) . ينظر: الطرطوشي، رسالة التحريم، ص125، 131.

(4) تحقيق عبد الله محمود محمد، صدرت طبعته الأُولى سنة (2002م) في بيروت . ينظر: الطرطوشي، رسالة التحريم، ص160 . 161 .

4-كتاب الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي إتيانه واجتنابه، وجاء فيه تفسير لفظ الدعاء، والترغيب فيه، وبيان آدابه، وتعيين أفضل أوقات الدعاء، وتفسير آيات القرآن الكريم التي خصت الحث على الدعاء[1].

**5**-كتاب برّ الوالدين ما يجب على الوالد لولده وما يجب على الولد لوالده، تضمن الكتاب الأحاديث الواردة في حقوق الوالدين وصلة الرحم، والآثار الواردة في برّ الوالدين، وفي العقوق وما يتصل بها من أحكام[2] .

**ثانياً: فلسفته الفكرية**

عند الحديث عن فلسفة الطرطوشي نجد حاجة إلى بيان بعض الردود، وذلك لمحدودية ورود صفة الفيلسوف عند التعريف بترجمة أبي بكر الطرطوشي، وذلك لعدة أسباب منها أنّه تلقب بألقاب هي أسمى من لقب فيلسوف في عصره، وهي الإمام الفقيه الحافظ المحدث الثقة الزاهد الفاضل العالم العامل كبير الشأن، جليل المقدار والميزان[3]، مقابل ذلك إنّ عنوان الفلسفة أثير حوله الشكوك، وهنالك علماء وقفوا بالضد من بعض المباني الفلسفية منهم ابن قتيبة(276هـ/889م) الذي قيل فيه: "**تناول في اثنين من كتبه مسائل الخلاف التي كانت سائدة في عصره، فراح يدافع بقوة عن القرآن والحديث تجاه مطاعن الفلاسفة وأهل الشكّ من علماء الكلام**"[4]، وبين الباحث فؤاد معصوم الصراع القائم بين الدين والفلسفة في قوله: "**قضية**

(1) الطرطوشي، الدعاء المأثور، ص7 . 8 .

(2) تحقيق محمد صالح محمد الليبي، صدرت الطبعة الأُولى في سنة (2019م) في اليمن . ينظر: الطرطوشي، برالوالدين، ص98 . 99 .

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج7/ص300 ؛ السمعاني، الأنساب، ج2/ص260 ؛ أبو طاهر السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص137 ؛ العماد الأصبهاني، خريدة القصر، ص290 ؛ الضبي، بغية الملتمس، ص135 .

(4) الدينوري، عيون الأخبار، ج1/ص16 .

**الصراع بين الدين والفلسفة قديمة، وكان هذا الصراع يشتد ويقوى أحياناً ويخف ويهدأ أحياناً أخرى، وكان الدين هو الغالب دائماً، واستطاع أن يحرم الاشتغال بالفلسفة لفترات، ومن مختلف البلاد، وتمكن أن يجعل منها خادمته لفترات أخرى"[1] .**

ولابد لنا من معرفة من أين جاءت كلمة فلسفة، منها قول إنّها بمعنى الحكمة[2]، وعبارة الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية وهي فيلاسوفيا وتفسيرها: محبة الحكمة فلمّا أعربت قيل: فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة منه ومعنى الفلسفة: علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح[3]، وظهرت في الإسكندرية معالم الفلسفة الأفلاطونية التي وضفت الفلسفة في الدفاع عن الدين، وقيل فيها: "**مذهب فلسفيّ قالت به مدرسة الإسكندرية ... وفيه نزعة صوفيّة تمزج الفلسفة بالدِّين، وتؤكِّد على أن الصُّور المثاليّة عبارة عن حقيقة مطلقة"[4]**، ولا تخرج الفلسفة عن إطار الأخلاق الإسلامية التي رسخها الإسلام، ويتوافق ذلك مع ما بيّنه أفلاطون في قوله: "**من أراد قراءة الفلسفة فليطهر أخلاقه من الرذائل؛ فإنّه لا يتعلم الفلسفة الطاهرة من كان نجسًا، كما لا يمكن أحدًا أن يرى وجهه في ماء كدر، ومرآة صدئة"[5]**، أمّا العلاقة بين الحكمة ومصطلح الفلسفة ذكر الباحث علي حسين الجابري أنّ الحكمة أوسع مفهوماً من محدودية عبارة الفلسفة اليوناني[6]، ومن جميع

(1) اخوان الصفا، ص119 .
(2) ابن منظور، لسان العرب، ج9/ص273 .
(3) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص153 .
(4) عبد الحميد، معجم اللغة، ج1/ص104 .
(5) البطليوسي، رسائل في اللغة، ص320 .
(6) الفلسفة الإسلامية، ص13 .

ذلك نصل إلى نتيجة أنّ الفلسفة هي قرينة ممكن اتصاف الطرطوشي بها وهي ليست الفلسفة اليونانية المجردة بل هي الحكمة العلمية والإصلاح الأخلاقي والسياسي المستمد من التجارب البشرية .

أمّا عمل الطرطوشي بالفلسفة كان من خلال نتاجه العلمي، إضافة إلى ما عرف عنه من فلسفة الزهد التي كانت منهجاً فلسفياً نتج عن قناعة بحتمية الأدوار الحضارية التي مرّ بها الإنسان، ولا بدّ من اختيار الحياة الأصلح في الدار الدنيا والآخرة لذلك تبنى في سلوكه الفلسفة الإصلاحية النبوية، وكان له ردود على آراء الغزالي(ت505هـ/1111م) الفلسفية وألف كتاباً في ذلك ذكره الحميري(900هـ/1495م) في قوله: "**وعاصر الغزالي، وله في إحيائه كلام، وكان منحرفاً عنه سيء الاعتقاد فيه**"[1]، وقصد مكان تواجد الغزالي في الشام إلّا أنّ الأخير غير مكان إقامته لتجنب لقاء الطرطوشي، وذلك ما ذكره الضبي(599هـ/1202م) في قوله: "**وكان له غرض في الاجتماع مع أبي حامد الغزالي يجعل طريقه على البيت المقدس، فلمّا تحقق أبو حامد أنه يؤمه حاد عنه**"[2].

والدليل الآخر ما ذكره ابن خلدون(808هـ/1406م) بأنّ ما عنده من فكر فلسفي وضع قواعده وعين أبوابه الطرطوشي وذلك في قوله: "**وكذلك حوّم القاضي أبو بكر الطّرطوشيّ في كتاب سراج الملوك وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ... ولا تحقّق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما**"[3]، وفي قوله هذا اعتراف ضمني أنه لم يخالف الأبواب والمسائل التي وضعها الطرطوشي في كتابه سراج

(1) الروض المعطار، ص392 .

(2) بغية الملتمس، ص135 .

(3) تاريخ، ج1/ص52 .

الملوك، وأنه سعى إلى تحقيق القصد واستيفاء المسائل، وذلك أثبت أهمية ما كتبه الطرطوشي بوصفه واضع حجر الأساس لفلسفة ابن خلدون .

أما كتابات الباحثين المتأخرين التي أدركت ما كتبه الطرطوشي من فلسفة في السياسة والعمران في كتابه سراج الملوك، فهي ليست بالقليلة، منهم علي حسين الجابري الذي كتب دراسة بعنوان (الطرطوشي وعلم العمران الحضري)[1] ، وتضمنت الدراسة فقرة بعنوان (فلسفة الطرطوشي في الحضارة والسياسة والعمران) وقال فيه: "**هكذا شهد واضع فلسفة الحضارة والتاريخ وعلم العمران والسياسة الطرطوشي بالسبق في مباحث التفسير السياسي لحركة التاريخ العربي بحسب دوافعه الأخلاقية والفلسفية**"[2] .

وهناك دراسة أخرى حملت عنوان (الدور العلمي للطرطوشي في تاريخ فلسفة العمران والسياسة من خلال كتاب سراج الملوك) ، للباحث محمد عايد الحسيني، قال فيها: "**لذلك ننظر إلى فلسفة الطرطوشي الحضارية بأنّها دعوة لإصلاح الأنظمة الحاكمة**"[3] .

ومن الباحثين المصري محمد عبدالله عنان، الذي قال في الطرطوشي: "**المفكر والفيلسوف السياسي أبو بكر الطرطوشي، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة، وهو صاحب كتاب " سراج الملوك " الذي يعتبر بموضوعه ونظرياته المبتكرة، من الكتب التي وضعت أسس السياسة الملوكية في التفكير الإسلامي، ويشير ابن خلدون إلى هذا الكتاب في مقدمته ويعتبره من الكتب التي سبقته في موضوعه . وقد وضع الطرطوشي كتابه أثناء إقامته بمصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، وأهداه في مقدمته**

(1) ينظر: مفكرو الإسلام، ص46 . 56 .

(2) مفكرو الإسلام، ص51 .

(3) الدور العلمي للطرطوشي، ص361 .

**إلى خلفه المأمون البطائحي، وتأثر في كتابته بتفكير فيلسوف العصر، العلامة ابن حزم القرطبي"[1].**

وجاء المستشرق رامون فيرييه، ليؤكد فلسفة الطرطوشي في كتابه سراج الملوك[2]، وبيّن ما ذكره الطرطوشي من ضياع الأندلس من العرب قبل قرون وذلك في قوله: "**وفي النهاية، يوجد شيء مأساوي، في كتاب الطرطوشي، يكمن في إعلانه عبر تحليله الاقتصادي خسارة العرب الأندلس قبل ثلاثة قرون ونصف من ذلك، فعلى الرغم من كون المال مرادفاً للرفاه، فإنّ كثرته تقود لا محالة إلى تعاسة الشعوب"[3]**، وفي ذلك دلالة على صحة القواعد الفلسفية الاقتصادية التي وضعها الطرطوشي، وهي من مقدمات زوال الحضارات في سياق الدورة الحضارية للشعوب، وتجنباً لعدم الإطالة نكتفي بهذا القدر من ذكر الدراسات التي بينت الفكر الفلسفي للطرطوشي .

أمّا فلسفة الطرطوشي التي سطرها في كتابه سراج الملوك، وشرح مواردها في قوله: "**أمّا بعد. فإنّي نظرت في سير الأمم الماضية. والملوك الخالية وما وضعوه من السياسات في تدبير الدول. والتزموه من القوانين في حفظ النحل. فوجدت ذلك نوعين: أحكاماً وسياسات"[4]**، وهنا بيّن أنّ الأحكام التي جاءت من ديانات تلك الأمم لم يأخذ بها كونها جاءت حسب معتقداتهم الدينية، أمّا السياسات التي أسماها بالأصول الصحيحة والقواعد الواجبة، التي عملوا بها بسيرة العدل وحسن السياسة، وتؤدي إلى صون

(1) دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، ص294 ـ 295 .
(2) ينظر: مدخل إلى فكر الإسلام الاقتصادي، ص157 . 163 .
(3) مدخل إلى فكر الإسلام الاقتصادي، ص163 .
(4) سراج الملوك، ص8 .

الحقوق وحفظ الأموال وتدبير الحروب وصون الأعراض[1]، تلك هي موارد فلسفته، ولم يستثنِ أخذ الحكمة من البلدان التي صدر عنها القليل، أضف إلى ذلك موارده الإسلامية وذلك في قوله: "**وإنّما صدر عنهم الشيء اليسير من الحكمة. فنظمت ما ألفيت في كتبهم من الحكمة البالغة، والسير المستحسنة، والكلمة اللطيفة، والطريقة المألوفة، والتوقيع الجميل، والأثر النبيل، إلى ما رويته وجمعته من سير الأنبياء عليهم السلام، وآثار الأولياء، وبراعة العلماء، وحكمة الحكماء، ونوادر الخلفاء، وما انطوى عليه القرآن العزيز الذي هو بحر العلوم، وينبوع الحكم، ومعدن السياسات، ومغاص الجواهر المكنونات**"[2]، من جميع ذلك كون الطرطوشي فلسفته التي سجلها في كتابه سراج الملوك، والذي جعل فيه من الأطر والقوانين الفلسفية التي كونت سياسات وقواعد قابلة للتطبيق في مختلف الأزمنة والبلدان، ليكون وسيلة لمن عمل به من الملوك وأهل الحكم والرئاسة للوصول إلى أكثر القوانين عدلاً وحكمة وصلاحاً، كونها نابعة من قوانين إلهية وتجارب أمم سالفة، وقال فيه: "**وسميته سراج الملوك، يستغني الحكيم بدراسته عن مباحثة الحكماء، والملك عن مشاورة الوزراء**"[3] .

وبذلك وضع الطرطوشي قواعد عامة لحركة التاريخ التي تبنى بها الدعوة لإصلاح نظام الحكم الذي يقوم على أساس العدل، وذلك في قوله: "**واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا: الملك بناء والجند أساسه، فإذا قوي الأساس قام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء، فلا سلطان إلّا بجند ولا جند إلّا بمال، ولا مال إلّا بجباية ولا جباية إلّا**

(1) سراج الملوك، ص8 .

(2) سراج الملوك، ص9 .

(3) سراج الملوك، ص10 .

**بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل فصار العدل أساساً لسائر الولايات"**[1]، وبذلك تكون فلسفة الطرطوشي في سياسة الدولة والعمران الحضاري الاجتماعي، تقوم على أساس العدل، بدءاً من رأس السلطة الحاكم القاهر العادل،[2] الذي يؤسس لجيش قوي قادر، يمتلك جميع الإمكانات من القيادة والعدة والعدد والخطط العسكرية[3]، من خلال سياسة مالية متوازنة توفر موارد للبلاد مستقرة، وتنظم الجباية على أساس العدل، الذي يراعي المستوى المعاشي للأفراد، يقابلها تقديم خدمات وعمارة حضارية موزعة بالتساوي على المجتمع[4]، وبذلك يكون الإنجاز الحضاري هو فعل مشترك يساهم به الجميع .

ولم يضع الطرطوشي زمناً محدداً لانهيار الحضارة أو الدولة وزوالها، كما حدد ابن خلدون(808هـ/1406م) أدواراً للحضارة تنتهي بالتدهور والزوال بعد أن يتجاوز مرحلة الترف ويتجه نحو السكون وذلك في قوله: "**ثمّ إذا اتّسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرّفه دعاهم ذلك إلى السّكون والدّعة**"[5]، وبذلك حدد ابن خلدون مراحل للأدوار الحضارية تنتقل بها الشعوب من البداوة إلى التحضر، إلى أن تصل إلى مرحلة الغنى والرفاه التي هي مرحلة الضعف والانهيار.

(1) سراج الملوك، ص215 . 216 .

(2) سراج الملوك، ص199 .

(3) ينظر: سراج الملوك، ص492 . 494 .

(4) ينظر: سراج الملوك، ص495 . 499 .

(5) تاريخ ابن خلدون، ص150 .

كما ظهرت كتابات لفلاسفة متأخرين مثل اسوالد اشبنجلر[1] ، وكتابه (تدهور الحضارة الغربية)، الذي صدر بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وتبنى فلسفه جبرية دلت أن تاريخ الحضارات يرضخ لدورة حياة كأيّ كائن حيّ، وذكر فيه حتمية انهيار الحضارة بعد أن تصل إلى مرحلة المدنية ثم الانحلال والفناء[2] ، وكذلك الكاتب الإنكليزي كولن ولسن[3]، في كتابه (سقوط الحضارة) الذي ذكر فيه مرحلة سقوط الحضارة الغربية[4].

أمّا الطرطوشي فقد وضع شروطاً خاصة تعيشها الدولة في حال وجودها تكون عوامل تدهور وزوال للحضارة أهمها غياب العدل ومن آثارها ضعف السلطان وانتشار الظلم، الذي يؤدي إلى حدوث الفوضى وذلك في قوله: " **فإذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع، ولو جعل ظلم**

(1) مؤرخ وفيلسوف وعالم اجتماع ولد في سنة (1880م–1936م) في مدينة بلاكنبورغ الهرتس في ألمانيا من أب يدعى برنهرد وأم من أسرة غرنتسوف ويدين بالمسيحية البروتستنتية، تلقى تعليمه الثانوي في مدرسة هلة ثم انتقل إلى جامعة برلين حيث تخصص في العلوم الطبيعية وانتقل إلى جامعة ميونخ ، توفي في سنة (1936م) . أحمد الشيباني , مقدمة ترجمة كتاب تدهور الحضارة الغربية لاشبنجلر , ج 1/ص9.8 .

(2) تدهور الحضارة , ج 1/ص12 .

(3) فيلسوف وكاتب إنجليزي وهو فيلسوف وجودي وروائي وباحث في علم النفس والظواهر الخارقة ولد في ليستر سنة (1931م) في إنجلترا لعائلة فقيرة من الطبقة العاملة ، تأخر في دخول المدرسة ، وتركها مبكراً في سن السادسة عشر ليساعد والده، عمل في وظائف مختلفة ساعده بعضها على القراءة في وقت الفراغ ، نشر مؤلفه الأول (اللامنتمي) سنة (1956م) وهو في سن الخامسة والعشرين . شبكة الأنترنيت ، مقال منشور على موقع :
en.wikipedia.org/wiki/Colin_Wilson.

(4) ولسن , سقوط الحضارة , ص55.

**السلطان حولاً في كفة كان هرج الناس ساعة أرجح وأعظم من ظلم السلطان حولاً"[1] .**

ومنها ابتعاد السلطان عن الرعية، والاحتجاب عنهم، وفي ذلك تعدد أصحاب القرار وانعدام الدقة في تقييم السياسات ومن ذلك ما ذكره الطرطوشي في قوله: **"وأمّا الاحتجاب فهو أدخل الخلال في هدم السلطان وأسرعها خراباً للدول، فإنه إذا احتجب السلطان فكأنه قد مات، لأن الحجب موت حكمي فتعبث بطانته بأرواح الخلائق وحريمهم وأموالهم"[2].**

ومن العوامل المهمة الأخرى لتدهور الدول هو تردي الأحوال الاقتصادية لأسباب منها الظلم والجور في فرض الضرائب وجباية الخراج ممّا يؤدي إلى تدني الحياة المعيشية والهجرة من الأراضي الزراعية، فضلاً عن انخفاض نسب الجباية بسبب انخفاض الإنتاج ومن ذلك ما ذكره الطرطوشي في قوله: **"الخراج عمود الملك وما استعزز بمثل العدل وما استذلل بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد وتعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج الجور والتحامل"[3]**، ونكتفي بهذا القدر في إيضاح فلسفة الطرطوشي الأخلاقية لتجنب التكرار، ونترك للقارئ الاطلاع على تفاصيل أكثر في ثنايا الدراسة .

(1) سراج الملوك، ص200 .

(2) سراج الملوك، ص237 .

(3) سراج الملوك، ص496 .

# الفصل الأول

# فلسفة الحكم والإمامة للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي



**المبحث الأول:** ملامح ونشأة فلسفة الإمامة عند الإسماعيلية

**المبحث الثاني: مقومات الحاكم العادل وصفات الإمام عند الطرطوشي**

## المبحث الأول

## ملامح ونشأة فلسفة الإمامة عند الإسماعيلية

إن جدلية الإمامة شغلت حيزاً واسعاً في الأوساط الفكرية والفلسفية على الصعيدين الديني والسياسي، وطرحت الكثير من الآراء منها ما كان مقبولاً وآخر كان قريباً للشبهات، وجاءت أهمية الموضوع لارتباط تلك المرتبة أو السلطة في أحقيتها في الزعامة والقيادة الدينية والسياسية، وذلك بسبب ورودها في أهم مصدري التشريع للقوانين الإسلامية الدينية والسياسية، وهما القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وبالأخص في بدايات ظهور الدولة الإسلامية، وما وصلت إليه من نفوذ على المستوى العالمي، وتوسعها على حساب امبراطوريات عظمى موغلة في القدم، ولها أثر على الصعيد السياسي العالمي مثل الإمبراطورية الفارسية والرومانية، أمّا رؤية الفاطميين في ضرورة وجود الإمام في صدارة الموقع الديني والسياسي وفي حياة الإنسان، كون الإسلام هو من أسس لتلك الفلسفة من خلال النصوص القرآنية والسيرة النبوية، مع وجود الاختلافات في التفاسير للمعنى الحقيقي الذي لا يتعدى عدم الفهم الواقعي للنص، أو تشويه المعنى بسبب الاختلافات والصراعات المذهبية والسياسية .

### أولاً : الإمامة في القرآن الكريم وتفسيره

جاءت أهمية موضوع الإمامة في القرآن الكريم كونه مصدر التشريع الأول الذي استمدت منه السلطة الدينية والشرعية وظهر العديد من الدراسات التي وثقت وفسرت موضوع الإمامة في الإسلام[1] لذلك سنتناول

(1) ينظر: عارف تامر، الإمامة في الإسلام، ص64-227 .

ذلك باختصار ونبيّن أهم الآراء في التفاسير الإسلامية للآيات التي ورد فيها ذكر الإمامة و كانت قريبة زمانياً وموافقة لفلسفة الفاطميين .

عند دراسة البدايات الأولى لخلق البشر نلاحظ أن الله تعالى أطلق على آدم (عليه السلام) لقب خليفة كما في قوله تعالى "ژ ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ"[1] والتاريخ الإسلامي مليء بالتفاسير وسنتناول ما كان معاصراً أو سابقاً للفاطميين والذي تضمن إشارات للنظام السياسي الإسلامي .

منها ما ذكره التستري(283هـ/896م) في تفسير الآية بقوله "**إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قال: إنّ الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه السلام قال للملائكة: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وخلق آدم عليه السلام من طين العزة من نور محمد صلّى الله عليه وسلّم**"[2].

كذلك جاء الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ليعطينا تفسيراً للآية قريباً من تفسير التستري(283هـ/896م) من خلال سؤال جابر بن عبدالله الأنصاري[3] له عن أول شيء خلقه الله تعالى فأجاب بقوله: "**يا جابر إنّ الله خلق قبل الاشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث يشاء الله تعالى ... فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول السماوات ومن الثاني الأرضين**

---

(1) سورة البقرة، الآية 30 .

(2) تفسير التستري، ص27 .

(3) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام من صحابي أنصاري من بني غنم بن كعب بن سلمة أحد بطون قبيلة الخزرج، ولأبيه عبد الله بن عمرو الذي قُتل في غزوة أحد أيضًا صُحبة، وأمه نسيبة وقيل أنيسة بنت عقبة بن عدي الأنصارية .اختُلف في كنيته فقيل أبو عبد الله، وقيل أبو عبد الرحمن، وقيل أبو محمد .أسلم جابر صغيرًا حين شهد الغزوة مع أبيه . ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج4/ص382 ؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1/ص35-36 .

**ومن الثالث الجنة والنار ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله تعالى ومن الثالث نور ألسنتهم وهو التوحيد لا إله إلّا الله محمد رسول الله"[1].**

وعند التدبر في ذلك الحديث نلاحظ أنّ نبي الله آدم (عليه السلام) خلق من نور محمد (ﷺ)، وأنّ الله تعالى خلق المؤمنين من ذلك النور، ورسم صورهم وصفاتهم من الإيمان والطاعة والتوحيد، وذلك أثار عدة تساؤلات، هل أنّ الله تعالى أوجد نظاماً للكون راعى فيه الجوانب العبادية الروحية وأهمل الجوانب السياسية التي هي على مساس مباشر بحياة البشر، وهذا الأمر بعيد عن الحكمة، فضلاً عن ذلك أنّ كتاب الله حوى الكثير من القصص الدالة على حكم الأنبياء والرسل وصولاً إلى الرسول الخاتم (ﷺ)، وليس هنالك دليل على أنّ الله تعالى نظم تتابع الأنبياء والرسل لهداية الناس وصولاً إلى نبوة محمد (ﷺ) وبعدها ترك الخلق بلا هادي ولا مرشد.

وهناك تفسير للآية السابقة في ما ذكره الشيخ الصدوق (381هـ/991م) في أسباب خلق الخليفة قبل بقية الخلق في قوله: "**فدلّ ذلك على أنّ الحكمة في الخليفة أبلغ في الحكمة في الخليقة ، فلذلك ابتدأ به لأنّه سبحانه حكيم ، والحكيم من يبدأ في الأهم دون الأعم، وذلك تصديق قول الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) حيث يقول: (الحجة قبل الخلق، ومع الخلق، وبعد الخلق)، ولو خلق الله عزّ وجلّ الخليقة خلواً من الخليفة لكان**

(1) الحرضي، بهجة المحافل، ج1/ص15 . ينظر: القسطلاني، المواهب اللدنية، ج1/ص48 ؛ ابن حجر الهيتمي، الفتاوى، ص44 ؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ج1/ص214 ؛ أبو الفداء، كشف الخفاء، ج1/ص302 .

**قد عرضهم للتلف، ولم يردع السفيه عن سفهه"**[1]، وهنا لا فرق بين الحجة أو الخليفة لا سيما أنّه مكلف من قبل الله تعالى وقد حمل الصفة ذاتها، وأنّ المسؤوليات والمهام التي أحاطت به لا يؤديها بتكليفها الشرعي إلّا من كان نبياً أو وصياً لنبي كما في قصة موسى وهارون(عليهما السلام).

ومن هؤلاء المؤمنين الذين خلقهم من نور محمد (ﷺ) وذكر جميع صفاتهم التي قدرها بعلمه، وهو الذي رد على الملائكة بأنّه أعلم بما لا يعلمون، ألا يستحق أن يكونوا قادة وهداة وخلفاء لله والنبي (ﷺ) وهم خلقوا من فاضل نوره، وكذلك سؤال الملائكة عن النتيجة التي يصل إليها الخلق في سفك الدماء، وهنا نطرح سؤالاً، ما الداعي لذلك الصراع؟ والأقرب إلى الجواب أنّ أهم دواعي سفك الدماء هو التنافس على الحكم والنفوذ ، فضلاً عن ذلك ترك الله تعالى الأمر الأكثر أهمية وهو الذي تدخل في وضع أحكام أصغر الأمور في حياة الإنسان .

وفي تفسير آخر بيّن الترمذي(320هـ/932م) أنّ المقصود بالخلافة هو مزاولة الحكم والنيابة عن الحق وذلك في قوله: "**وكان المقصود النيابة عن الحق بقوله : « خليفة » لقولهم : « مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ». وهذا لا يقع إلّا ممّن له حكم ، ولا حكم إلّا لمن له مرتبة التقدم وانفاذ الأوامر**"[2] وبذلك فسرها أنّها السلطة السياسية والدينية مجتمعة بيد الخليفة لمسك مقاليد الحكم التشريعية والتنفيذية .

(1 ) كمال الدين، ج1/ص4 .

(2) ختم الأولياء، ص200 .

وفسّر أحد الباحثين أنّ خليفة الله في أرضه مثل الإنسان الكامل الذي فاق علمه علم الملائكة، إذ أوصله ذلك إلى سجود الملائكة له بأمر من الله تعالى وتلك الصفات وذلك العلم كان تحت عنوان خليفة كونه عكس جمال من استخلفه وكماله ومن لم يملك تلك المنزلة لا يحق له وليس كفؤاً أن يسمى خليفة لله والرسول أو يدعي ذلك بدون تعيين من قبل الله تعالى أو النبي(ﷺ) والدلالة على ذلك التصريح في القرآن الكريم على خلافة آدم وداود(عليهما السلام) [1].

ونزولاً إلى القبول بخلافة غير الصالح ذكر الزمخشري (538هـ/1143م) أدلة على عدم صلاحية الفاسق للحكم وليس من العدل أن يسمى إماماً للمسلمين وأخذ بفتوى أبي حنيفة(ت150هـ/767م) في موقفه من نصرة زيد بن علي في ثورته ضد حكم(105ـ 125هـ/724 ـ 743م) هشام بن عبد الملك وذلك في قوله: "**وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علي رضوان الله عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقى وأشباهه**"[2]، وبيّن أنّ أهم واجبات الإمام هي منع الظلم وذلك يتنافى مع تكليف الظالم بإمامة المسلمين[3]، وهنا قارن بين إمامة المؤمن العادل وغيرها من (اللصوص) كما أسماهم الذين استولوا على المناصب بعيداً عن الخطة الإلهية في تمكين الأصلح والأكثر تقوى وإيمان.

(1) الآملي، تسنيم، ج3/ص140،143 .
(2) تفسير، ج1/ص184 .
(3) الزمخشري، تفسير، ج1/ص184.

وفي آية أخرى من قوله تعالى ژ ڈ ڈ ډ ډ ڎ ڎ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ"[1]، من تفسير تلك الآية دلالة أنّ الله تعالى هو من منح الملك والحكمة والعلم وذلك من فضله على عباده ولولاه لفسدت الأرض، وبيّن القاسم بن إبراهيم الرسي (246هـ/860م) أنّ تلك الآية دالة على الإمامة وأنّ الله تعالى أودع علمه وحكمته لدى الأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) واستدل على أن الاختيار من عند الله تعالى لا من الناس[2] وبدليل القرآن الكريم في قوله ژ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ژ"[3].

ذكر الطرطوشي(520هـ/1126م) ذلك في قوله: " **لولا أنّ الله تعالى أقام السلطان في الأرض يدفع القوي عن الضعيف وينصف المظلوم من الظالم، لأهلك القوي الضعيف وتواثب الخلق بعضهم إلى بعض، فلا ينتظم لهم حال ولا يستقر لهم قرار فتفقد الأرض ومن عليها، ثم امتن الله تعالى على الخلق بإقامة السلطان، فقال تعالى: ژ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ژ [4]، يعني في إقامة السلطان في الأرض فيأمن الناس به**"[5]، تلك المنزلة وذلك العمل لا يستحقه إلّا من كان صالحاً أو ولياً من أولياء الله، وذلك هو الفضل على العالمين ليعمل من أجل إقامة العدل الذي لا يسود في المعنى الإسلامي إلّا بتنفيذ أحكام الله .

أشار الطبري(310هـ/922م) في تفسيره إلى الخلق في المعنى الإلهي من صلب آدم "**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنّي أعلم ما لا**

---

(1) سورة البقرة، الآية 251 .
(2) تثبيت الإمامة، ص66 . 67 .
(3) سورة القصص، الآية68 .
(4) سورة البقرة، الآية 251 .
(5) سراج الملوك، ص44 .

**تعلمون" فكان في علم الله جل ثناؤه أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياءُ ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة**"[1]، في ذلك دلالة أن الله تعالى قدر أحوال الناس وحدد الأنبياء والصالحون بعيداً عن العبث وهو العليم الخبير، وفسرها مقاتل بن سليمان (ت150هـ/767م) بقوله " **فلمّا أراد الله- تعالى- أن يخلق آدم- صلى الله عليه-، أوحى إليهم أنّي جاعل في الأرض خليفة يعبدونني، ويطهرون لي الأرض**"[2] .

إنّ التكليف في تطهير الأرض في حاجة إلى توافر معطيات عدّة أهمها رأس النظام الديني والسياسي وهومن بيده القوة والنفوذ، وقال فيها أحمد بن حنبل (241هـ/855م) " **فأخبر قبل كون آدم أنّه إنّما خلقه للأرض، وأنّه لا يتركه في الجنة حتى ينقله عنها إليها، وإنما كان تناوله الشجرة سبباً لوقوعه إلى الأرض التي خلق لها، وللكون فيها خليفة، ووالياً على من فيها**"[3] وذلك يعني أنّ الله تعالى جمع لآدم السلطتين الدينية والسياسية والولاية المطلقة على الأرض فملك موازين القوى وكان قادراً على تنفيذ المشروع الإلهي في خلافة الأرض .

وقال فيها الطبري(310هـ/922م) "**يقول: ساكنًا وعامرًا يسكنها ويعمُرها خلَفًا**"[4] ،وهنا حدد فيها صفة البناء والإعمار في شقيها المادي الذي يصدق عليه توفير السكن والحياة الكريمة، والروحي الذي يتم من خلاله بناء الإنسان الكامل الذي يصدق عليه صفة خليفة، وقال فيها الماتريدي(333هـ/944م)" **لكنّه بِكرمه، وبالذي عَوّد خلقه من تقديم**

(1) جامع البيان، ج1/ص462 .
(2) تفسير، ج4/ص521 .
(3) مسند، ج12/ص345 .
(4) تفسير، ج1/ص449 .

**إحسانه وإنعامه في الابتلاءِ على الشدائد والشرور**"[1] أي أن تلك الخلافة وذلك التكليف في الزعامة والقيادة هو من نعم الله تعالى على خلقه لإعانتهم على تجاوز المحن والشدائد كونه هو المنظم والقائد لعمليات الحماية والدفاع عن كيان الأمة وحفظ كرامة الإنسان من الاعتداء وهو المنقذ والهادي روحياً وإيمانياً.

وفسرها ابن الجوزي(597هـ/1200م) "**وفي معنى خلافة آدم قولان: أحدهما: أنّه خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحكم في خلقه، وهذا قول ابن مسعود ومجاهد . والثاني: أنّه خلف من سلف في الأرض قبله، وهذا قول ابن عباس والحسن**"[2]، هنا في قوله الأول أنّ الله تعالى أعطاه السلطتين الدينية والسياسية وهو خليفة الله في أرضه وتلك المنزلة لا يستحقها إلّا من ملك شروطها وأمّا غير ذلك فهو بعيد عن الخلافة الإلهية وليس من العدل أن ينال صفتها .

وفي آية أخرى قال الله تعالى لنبيه داود: **ژ ئې ئې ئى ئى ئد ى ي ي ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح ژ**[3]، وهنا من ظاهر الآية أنّ المراد منها أنّ الله تعالى من منح الخلافة والحكم لإصلاح أمر العباد وإشاعة مبدأ الحق والعدل، ومن ذلك جاء تكليف داود( عليه السلام)وأنّ الله متابع لسلوك الناس والحكام مواعداً بجزاء المحسنين وعقاب المسيئين وفي ذلك تعيين مباشر لشخص الحاكم .

وبيّن الطرطوشي أنّ أغلب أبواب الفساد في الدول من تقليد الأعمال إلى من هم ليسوا أهلاً لها وتبيّن ذلك من حرصهم عليها وتهافتهم إليها لأنّ

---

(1) تفسير، ج1/ص431 .

(2) ابن الجوزي، زاد المسير، ج1/ص50 .

(3) سورة ص، الآية 26 .

أهل الصلاح والحق لا يسعون إلى اعتلاء مراكز الحكم لثقل المسؤولية ولا سيما أنّها تكليف من الله تعالى لإدارة شؤون البلاد والعباد، ووصول الفاسدين للحكم له تأثير مباشر في حياة الناس وله تداعيات اجتماعية سلبية في حال شعورهم بأنّ حقوقهم وأموالهم مغتصبة من قبل هؤلاء [1] لذلك من دواعي رحمة الله تعالى بأن لا يترك الأمر للناس، وذكر الطرطوشي من قصص لقمان الحكيم "**فأتاه جبريل عليه السلام بالنبوة من عند الله الذي يصطفي لنبوته من يشاء فقال لقمان يا جبريل إن أمرني ربي فسمعٌ وطاعةً، وإن خيرني اخترت الحكمة، فرضي الله تعالى قوله وأعطاه الحكمة، وصرف عنه الرسالة إلى داود عليه السلام، فكان داود يقول: طوبى لك يا لقمان، أوتيت الحكمة وأوتي داود البلية**"[2] ومن ذلك تبيّن بأنّ خوف داود كان من ثقل أعباء السلطة والحكم وباشر إدارة شؤون الناس ولم يقتصر على الجوانب العبادية وتبليغ الرسالة بل كان ملكاً وحاكماً ورسولا[3].

وهناك من الآيات التي ذكرت الإمامة بشكل صريح منها " **ﮋ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﮊ**[4] ، قال فيها زيد بن علي(122هـ / 739م) بأنّ معناه خليفة[5]، وفسّر الطبري (310هـ/922م) إنّي جاعلك للناس إماما بقوله "**تتقدمهم أنت، ويتبعون هديك، ويستنون بسنتك التي تعمل بها، بأمري إيّاك ووحيي إليك**"[6] وفسّر الماتريدي (333هـ/944م) بقية الآية

(1) سراج الملوك، ص561 ، 562 .
(2) سراج الملوك، ص562 ، 563 .
(3) ينظر: مكسيموس، الكنز الثمين، ص498 . 503 .
(4) سورة البقرة ، الآية 124 .
(5) غريب القرآن، ص89 .
(6) تفسير ، ج2/ص18 .

بأنّ الله استثنى الظالمين من ذرية إبراهيم من الإمامة[1]، وذكر الفضل بن شاذان(260هـ/873م) الجزء الذي ذكر الله فيه الظالمين بأنّهم مستثنون من الحكم في الرعية والدليل من القرآن حين خاطب الحكام في قوله " ژ ۋ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئەئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ژ "[2] وهنا الخطاب موجّه إلى أئمة العدل الذين هم الأقرب لسماع الموعظة والأخذ بها، وذلك أبعد التحقق من الظالمين الذين لا يحسنون العدل، ولا يستجيبون للموعظة[3] ، وكذلك نجد أنّ كلمة (إمامة) في أحد معانيها تعني السلطة، والحكم والخطاب موجه إلى الأئمة الذين لديهم المعرفة والعلم بمتطلبات إقامة العدل.

ذكر الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله "**إنّ الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً وإنّ الله اتخذه نبيّاً قبل أن يتخذه رسولاً وإنّ الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال:** " إنّي جاعلك للناس إماماً " قال : فمن عظمها في عين إبراهيم قال : "**ومن ذريتي، قال : لا ينال عهدي الظالمين " قال: لا يكون السفيه إمام التقي**"[4]، والمفهوم من الحديث أنّ الإمامة في حاجة إلى توافر شروطها لنيل الاستحقاق لإمامة الناس والتكليف بها لحفظ مصالحهم في الدنيا والآخرة ومن لا يحمل تلك الصفات ليس قادراً على إمامة الناس والتصدي للمسؤولية العامة في إدارة شؤون الخلق .

وبيّن الطرطوشي ضرورة وجود السلطان وأنّه المدبر الذي يعيد ترتيب الكون على العدل في قوله "**إنّه من حجج الله تعالى على وجوده سبحانه ،**

---

(1) تفسير ، ج9/ص161 .

(2) سورة النساء، الآية 58 .

(3) الأزدي، الإيضاح ، ص95 .

(4) الكليني، الكافي، ج ١/ ص 175 ؛ مقاتل ابن عطية، أبهى المداد،ج1/ص518 .

**ومن علاماته على توحيده ، لأنّه كما لا يمكن استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر ينفرد بتدبيره كذلك لا يتوهم وجوده وترتيبه ، وما فيه من الحكمة ودقائق الصنعة بغير خالق خلقه ، وعالم أتقنه ، وحكيم دبره**"[1]وبذلك لابد من حكمة الله تعالى أن لا يترك الكون بدون مدبر وهادي للخلق ترتبط صفاته بصفات الخالق، ولا سيما أنّه المكمل لمشروع الله تعالى في اتمام فلسفة الوجود.

ومروراً بعقائد الإسماعيلية بالإمامة نورد قول النيسابوري (410هـ/1019م) "**الإمامة هي قطب الدين ، وأساسه والتي يدور عليها جميع أمور الدين والدنيا ، وصلاح الآخرة والأولى ، وينتظم بها أمور العباد ، وعمارة البلاد ، وقبول الجزاء في دار المعاد ، وبها يصل إلى معرفة التوحيد ، والرسالة بالحجة والبرهان والدلالة إلى معرفة الشريعة وبيانها، وإنّما قلنا إنّ الإمامة هي قطب الدين وأساسه، ولم نقدم الرسالة على الإمامة، لأنّ في إثبات الإمامة إثبات الرسالة، والمقر بالإمام مقرّ بالرسول ... لأنّ الإمام لا يخلو العالم منه في كل وقت وزمان، والرسول يكون في وقت دون وقت**"[2]، أي أنّ جميع أدوار الحياة بتخطيط ورعاية إلهية من خلال التسليم والطاعة لإمام العصر وهو السبيل إلى نيل الدنيا والآخرة، ولاسيما أنّ فلسفة خلق البشر تقوم على التكامل في الوجود بين الحياة الدنيا والانتقال إلى عالم الآخرة وذلك يستدعي إلى وجود قائد عالم وحكيم وهادي إلى سبيل الله، وأنّ وجود إمام في كل عصر، من متطلبات معرفة الخالق وعدم ضياع جهود الرسل والأنبياء في نشر الرسالة وديمومة بقائها والعمل على توسعها ونشرها إلى مختلف أنحاء العالم .

(1) سراج الملوك، ص 198 . 199 .

(2) اثبات الإمامة، ص27.

وفي قوله تعالى: ﮋ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﮊ[1] ورد في تفسير الآية عند مقاتل بن سليمان(ت150هـ/767م) قوله: "**يقول جعلناهم قادة للخير يدعون الناس إلى أمر الله- عزّ وجلّ- وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ يعنى الأعمال الصالحة**"[2] ، وهنا إشارة إلى أنّ الإمامة قيادة دينية وسياسية وأنّ الإمام يكون هادياً إلى طاعة الله وإقامة شريعة الله في الأرض ومضمون الآية، ليس فيه إشارة إلى أن يكون عاصياً لأمر الله أو ظالماً للعباد، بل مطيعاً مؤمناً وذلك في قوله ﮋ ﯞ ﯟ ﯠ ﮊ [3] .

وبيّن الراغب الأصفهاني(502هـ/1108م) معنى الآية بقوله" **وبقوله: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} وهذه الهداية تنسب تارة إلى الله - عزّ وجلّ - وتارة إلى النبي - (ﷺ)- وتارة إلى القرآن قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ وثالثها: هداية يوليها صالحي عباده بما اكتسبوه من الخيرات**"[4] وهنا أشاره إلى أنّ الإمامة هي متممة لجهود النبي وتعاليم القرآن الكريم في هداية الناس وعمل الخيرات، ومعنى الانحراف عن هدي الإمامة هو الضلال عن سبيل الخير والصلاح .

ذكر الطرطوشي فعل السلطان في اصلاح الرعية بقوله "**وما أحق بالسلطان أن يسلك بالرعية كل سبيل يصلحون عليه ويسودون معه، فحينئذ يكون رئيس الرؤساء وأميراً على السادة والفضلاء، وإن أهملهم في ركوب شهواتهم وتوسط لذاتهم، ذهبت أديانهم وسقطت مروآتهم**"[5] في

(1) سورة الأنبياء ، الآية 73 .
(2) مقاتل، تفسير، ج3/ص86 .
(3) سورة الأنبياء، الآية 73 .
(4) تفسير، ج1/ص61.
(5) سراج الملوك، ص118 .

ذلك أهمية أن يكون السلطان من الصلحاء الذين يهدي بهم الله الناس ويبعدهم عن سوء الخلق والشهوات ويقربهم من سبيل الرشاد والهداية وتلك الصفات ليس من الحكمة إطلاقها على مجهول، فضلاً عن ذلك أنّ هؤلاء الحكام والقادة الذين خصهم الله تعالى في هداية الناس لحفظ أديانهم وترك الشهوات لا بد أن يكون لديهم عصمة من تلك الرذائل والشهوات وإلا من كانوا عرضة لها، كيف لهم أن يعصموا الناس منها .

تلك الصفات أشار لها الإسماعيلية على لسان القاضي النعمان (363هـ/973م) في قوله "﴿**وأعلموا أن لأولياء الله فيما استرعاهم الله عزّ وجلّ من أمور عباده نظراً يهديهم إلى الصواب فيه ، وتدبيراً يوفقهم إلى الرشاد ، وفعلاً يحسن العواقب لهم**﴾"[1] ورفض الإسماعيلية أن تتساوى درجة الأئمة مع عامة السلاطين الذين ذكرتهم المصادر وأعطتهم ما ليس فيهم من كونهم هداة للخلق وقاده لرضى الله تعالى مع وجود من تجاهر بالفسق والعصيان والأمثلة كثيرة على ذلك لا يسع ذكرها، وذكر القاضي النعمان ما هو قريب من ذلك بقوله "**فالأئمة صلوات الله عليهم فوق الخلق بما لا يدرك بعلم وعقل ... وما عسى أنّه ذكر وألف في تعظيم ملوك الدنيا وآداب أهلها فأولياء الله أحق به وهو أقل ما يجب لهم وأتباعهم أجدر باستعماله فيهم**"[2] .

وبيّن أحد الباحثين في الشأن الإسماعيلي أنّه بعد أن انتقل النبي (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى في سنة (11هـ/632م) تنافس ثلاثة أحزاب على طلب السلطة بعد النبي (ﷺ) هي الحزب الهاشمي الذي كان عقدياً بامتياز وظهر

(1) آداب اتباع الأئمة، ص117. 118 .

(2) آداب اتباع الأئمة، ص15 .

علـى شـكل أفكـار أو نظريـات فـي حيـاة النبـي (ﷺ) وكـان لـه انصـار وأتبـاع مـن قبائـل شـتى ولـم يقتصـر علـى الهاشـميين فقـط وكـانوا يؤمنـون أن الخليفـة بعـد النبـي (ﷺ) هـو علـي بـن أبـي طالـب (عليه السلام)، وحـزبين قبليـين وإقليميـين همـا الأنصـار الـذي كـان يسـعى للحفـاظ علـى مكتسـباته ودعمـه للرسـول عـن قناعـة واختيـار، ولتجنـب الملاحقـة والثـأر مـن القرشـيين لقتـل قـادتهم ورجـالاتهم فـي المعـارك الأولـى للإسـلام الـذي كـان للأنصـار دور مميـز فيهـا، وحـزب القرشـيين الـذين دخلـوا أغلـبهم إلـى الإسـلام بقـوة السـيف فـي وقـت متـأخر اسـتطاع الوصـول إلـى السـلطة بشـكل سـريع ومفـاجئ باسـتثمار الظـروف وحنكة ولباقة أبي بكر[1] .

ولمناقشة تلك الأفكار نقول إنّ الصراع على السلطة أكده القرآن الكريم في قوله " ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ "[2]، هناك من فسّر الآية بأنّها تعني الرجوع إلى الشرك بعد الإيمان[3]، وفسّرها آخر بأنّه نقص في الإيمان والهداية ولا يصل إلى حدّ الكفر والرجوع عن الإسلام[4]، وفسّرها العياشي (320هـ/932م) نقلاً عن أبي جعفر (عليه السلام) في جوابه عن بيعة أبي بكر (رض) فتلى الآية سالفة الذكر وقال إنّ الذين تقصدهم أصحاب النبي وما أحدثوا من بعده[5].

(1) تامر، الإمامة، ص59 . 60.
(2) سورة آل عمران، الآية 144 .
(3) مقاتل، تفسير، ج1/ص305 ؛ السمرقندي، بحر العلوم، ج1/ص254 ؛ الماوردي، تفسير، ج1/ص427.
(4) ابن المنذر، تفسير، ج1/ص416
(5) تفسير، ج1/ص200 .

ومن الرواية التاريخية نجد أنّ خلافة أبي بكر (رض) قد جاءت باتفاق سياسي بين أبي بكر وعمر بن الخطاب (رض) وأبي عبيدة عامر بن الجراح[1] وذلك ما رواه البيهقي(458هـ/1065م) بعد حصول النقاش في سقيفة بني ساعدة قال أبو بكر " **فبايِعوا عُمَرَ بنَ الخطابِ أو أبا عُبَيدَةَ ابنَ الجَرّاحِ. فَقالَ عُمَرُ: بَل نُبايِعُكَ؛ أنتَ خَيرُنا وسَيِّدُنا، وأحَبُّ إلى رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –. وأخَذَ عُمَرُ بيَدِه فبايَعَه وبايَعَه النّاسُ**"[2] ، وذلك الاتفاق سار بما مخطط له فكان الخليفة الأول أبو بكر (رض) ثم عمر بن الخطاب (رض) ولولا وفاة أبي عبيدة في خلافة عمر لكان هو الخليفة الثالث وكان ذلك على لسان عمر بن الخطاب (رض) وهو يحتضر " **وقال عمر حين احتضر: لو كان أبو عبيدة حيًّا لبايعته**"[3] .

وفي جانب آخر نجد أنّ أبا بكر(رض) بعد اختياره خليفة في اجتماع السقيفة اتهم كل من لم يبايعه بالخلافة بالتمرد وشقّ عصا المسلمين ومنهم الإمام علي (عليه السلام) والزبير بن العوام الذين اتهمهم باستغلال قربهم من رسول الله (ﷺ) في سعيهم لطلب الخلافة كما في خطابه "**نَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ فَلَمْ يَرَ عَلِيًّا فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَام: نَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَتَوْا بِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَتَنُهُ أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ**"[4]، هنا نلاحظ من أسلوب الرواية حجم الصراع الموجود وأنّ علياً (عليه السلام) لم يحضر عند أبي بكر (رض) مختاراً بل كان مرغماً من قبل

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3/ص166 .

(2) السنن الكبرى، ج16/ص510 .

(3) ابن كثير، جامع المسانيد، ج10/ص85 .

(4) ابن البيع، المستدرك، ج3/ص80 ؛ للمزيد ينظر: البيهقي، السنن الكبرى، ج8/ص246 ؛ ابن حجر، الصواعق المحرقة، ج1/ص34 .

مجموعة من الأنصار، وطريقة حديث أبي بكر معه هو أسلوب الخليفة مع أحد المتمردين، ولا سيما اتهامه باستغلال قربه من رسول الله كونه ابن عمّه وختنه في المطالبة بالخلافة وشق عصا المسلمين ، وهنا إشارة إلى أنّ قسماً من الصحابة يرى أنّ علياً (عليه السلام) أحق بالخلافة من أبي بكر (رض)، ومن أسلوب الإحضار وطريقة الحوار ترجح أنّ عناصر القوة وزمام الأمور كانت بيد الخليفة أمّا الأنصار كانوا قد وقفوا إلى جانبه في إخماد حركة المعارضة.

وفي قوله تعالى: ﴿ ژ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ﴾[1] قال فيها الدينوري(276هـ/889م) "أي: قادة، كذلك قال المفسّرون"[2] وقال فيها الماتريدي(333هـ/944م) "أي: قادة في الخير: يحتمل قوله: (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) أي: يدعون الناس بما أمرهم، وهو التوحيد، أو (يَهْدونَ)، أي: يبينون لهم بالذي أمرنا: ما لهم وما عليهم"[3] ، أمّا أبوحمزة الثمالي (ت148هـ/765م) ذكر بأنّها نزلت في ولد فاطمة (عليها السلام)[4]، وكذلك زيد بن علي فسّرها بأنّهم الأئمة من أهل البيت الذين يدعون إلى كتاب الله وسنة النبي (صلى الله عليه وآله) إلى حلول الآخرة[5] ، وفسّرها علي بن إبراهيم القمي(329هـ/940م) بأنّهم الأئمة من العترة الذين وصفوا بالصبر [6] وهنا أشارت الآية في ظاهرها أنّ الله تعالى قد خصّ مجموعة من الخلق بالإمامة ووقع على عاتقهم هداية الناس والصبر عليهم وخصهم الله باليقين والإيمان بالقرآن الكريم .

(1) سورة السجدة ، الآية 24 .
(2) تأويل مشكل القرآن، ص130 .
(3) تفسير، ج8/ص343 .
(4) تفسير، ص263 .
(5) تفسير، ص253 .
(6) تفسير، ج1/ص197 .

وهذا المعنى ليس بعيداً عن اعتقاد الفاطميين في مكانة الأئمة لأنّ الذين بينوا للناس أحكام الله وما لهم وما عليهم لابد أن يكونوا قد خصهم الله تعالى بتلك المنزلة والقدرة والقيادة ليكونوا وسيلةً للمهتدين، ووصف القاضي النعمان(363هـ/973م) تفضيل الأئمة واتباعهم من العلماء بقوله: "الحمد لله خالق الخلق لما أراد , ومستعمل العباد ليجزيهم يوم المعاد الذي جعل بعضهم لبعض فتنه كما في كتابه ذكره , وفضل بعضهم على بعض كما فيه قد أخبره , وتعبد بعضهم لبعض بالطاعات ورفع بعضهم كما قال عزّ وجلّ **ژ تى تي ثج ژ**[1] , واصطفى عليهم منهم صفوة مرضيين"[2] .

وقال الطرطوشي في السلطان إذا كان صالحاً: " **اعلموا أرشدكم الله أنّ منزلة السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد، فإذا صفت الروح من الكدر سرت إلى الجوارح سليمة، فقرت في جميع أجزاء الجسد فأمن الجسد من التغيير، فاستقامت الجوارح والحواس وانتظم أمر الجسد**"[3] وذلك من دواعي حكمة الله تعالى ورأفته بعباده أن لا يترك الأمر سداً لان استقامة البشر هو من أهداف الرسل والأنبياء تنفيذاً لأحكام الله تعالى من أجل انقاذ الناس من الانحراف والهلاك .

ومن الآيات الأخرى قوله تعالى: "**ژ ڈ ڈ ژ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ژ**"[4] **فسّرها يحيى بن سلام(200هـ/815م) بقوله "واجعلنا .للمتقين إماما، يعني قادة في الخير يقتدى بنا. وقال قتادة: قادة في الخير ودعاة هدى**"[5] ، **وذكر القاضي النعمان**(363هـ/973م) **عن أبي عبدالله الصادق** (عليه السلام) **حينما سأله أصحابه عن تفسير الآية " جعلت فداك، فيمن الآية الأولى ؟ قال : فيكم أنزلت ،**

---

(1) سورة الأنعام , الآية 165 .

(2) المناقب والمثالب , ص 13 .

(3) سراج الملوك، ص49 .

(4) سورة الفرقان, الآية:74

(5) التصاريف لتفسير القرآن، ص47 .

**قال : فالثانية ؟ قال : فينا"[1] ، وتلك الرواية تؤكد اعتقاد الفاطميين في نزولها في الأئمة من آل محمد الذين خصهم الله تعالى بالإمامة دون غيرهم من البشر .**

وقال الماوردي(450هـ/1058م) في معنى الآية "**{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً} فيه خمسة أوجه: أحدها: أمثالاً , قاله عكرمة. الثاني: رضًا، قاله جعفر الصادق. الثالث: قادة إلى الخير، قاله قتادة. الرابع: أئمة هدى يُهْتدى بنا، قاله ابن عباس. الخامس: نأتم بمن قبلنا حتى يأتم بنا من بعدنا، قاله مجاهد. وفي الآية دليل على أنّ طلب الرياسة في الدين**"[2] ،وكذلك وضع الماوردي سبعة شروط لمن استحق منصب الخلافة لا تتوفر إلّا في من كان إماماً للمتقين وقد بدأها بالعدل والمقصود به أن يكون حسن السيرة بعيداً عن الظلم والفسق والفجور وليس متحايلاً والشرط الثاني هو العلم الذي يمكن صاحبه من الاجتهاد في الأحكام ، والثالث والرابع خلوه من العيوب الجسمانية ، أمّا الشرط الخامس لابد أن يكون حكيماً ذا فراسة في السياسة وتحقيق مصالح الرعية، والشرط الأخير أن يكون شجاعاً لديه القدرة على الجهاد وقيادة الجيوش وحفظ بيضة الإسلام[3] وهذه الشروط لا تتوفر إلّا بمن كانت لديهم صفة الإيمان والتقوى وبما أنّ الأئمة هم سادة المتقين ومثال المؤمنين لذلك هم أقرب من غيرهم لتولي زمام السلطة والحكم .

وقال ابو الجارود(بعد 160هـ/776م) إنّ الآية خاصة بآل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) بقوله "**أي هُداةٌ يُهتدى بِنا ، وهذِهِ لِآلِ محمّدٍ صلى الله عليه وآله خاصّةً**"[4] .

---

(1) دعائم الإسلام، ج1/ص25 .

(2) تفسير ،ج4/ص161 .

(3) الأحكام السلطانية، ص19 . 20 .

(4) تفسير، ص152 .

وذكر الواحدي(468هـ/1075م) فيها: "**في هذه الآية روايتان؛ إحداهما: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} قال: مؤتمين بهم مقتدين بهم . وعلى هذا يجب أن تكون الآية من باب القلب؛ على تقدير: واجعل المتقين لنا إمامًا**"[1]، وفي هذه الروايات تعزيز للاعتقاد الإسماعيلي في مكانة الأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) .

ذكر الإسماعيلية قولهم في معرفة الأئمة فرض من الله تعالى " **إذا كانَ من عرفَ حقهم واعتقد إمامتهم رعى من واجبهم وامتثل من أمرهم ما يرى أنّه فرض الله عزّ وجلّ عليه واجب وحق لازم كانت جلالتهم في صدره أعظم ، وهيبتهم في عينه أكبر من هيبة ملوك الدنيا وجلالتهم في صدور أتباعهم وأعينهم**"[2] ، وفي ذلك وجوب طاعة الأئمة وأنّ مكانتهم لا تقارن بغيرهم لأنّه اعتقاد عبادي فيه طاعة لله تعالى .

وجاء في رسائل إخوان الصفا أنّ الإمامة هي الخلافة وتأتي على نوعين خلافة النبوة وخلافة الملك[3]، وهناك صفات ومهام خاصة لكل نوع أمّا خلافة النبوة لا تكون إلا لنبي أو وصيه ويكون امتداد لصفاته ومهامه، أمّا النوع الآخر له صفات وسياسات الملك[4]، وإذ جمع الله لنبيه محمد(ﷺ) النبوة والملك كما جمعها لأنبياء الله داود وسليمان ويوسف (عليهم السلام) وفي ذلك خير البشرية، وأمّا إذا انفصل الملك عن النبوة أصبحا ضدان لاختلاف أخلاق الملوك وسياساتهم عن خصال النبوة[5] .

---

(1) التفسير البسيط، ج16/ص614 .

(2) القاضي النعمان ، آداب إتباع الأئمة ، ص 20 .

(3) رسائل اخوان الصفا، ج3/ص494 .

(4) ينظر: رسائل اخوان الصفا ، ج3/ص294 . 295 .

(5) رسائل اخوان الصفا، ج3/ص496 . 497 .

ونقل عن علي بن أبي طالب قوله: "**ألا أخبركم بالحسنة التي من جاء بها آمن من فزع يوم القيامة وبالسيئة التي من جاء بها أكب الله وجهه في النار . قالوا : بلى يا أمير المؤمنين قال : الحسنة حبنا والسيئة بغضنا**"[1] ، وجميع ما ورد من تفاسير ورد فيه أمّا تحديد مباشر للأئمة من آل محمد (عليهم السلام) أو ذكر لصفات المؤمنين الذين هم ساداتهم باتفاق جميع المسلمين وبما أنّ المبدأ العام في الشريعة والأخلاق لا يجيز تقدم المفضول بوجود الأفضل لذلك هم أحق من غيرهم بالإمامة والخلافة تعزيزاً لاعتقاد الفاطميين بفلسفة الإمامة.

وأنكر الطرطوشي هداية الناس وصلاحهم من قبل سلطان سيء الخلق لأنّ ذلك منافٍ للعلم والمنطق وطبيعة الوجود وإرادة الله تعالى وكان ذلك بقوله "**فمتى أراد السلطان إصلاح رعيته وهو متماد على سيئ أخلاقه، كان كمن أراد بقاء الجسد مع فقد رأسه، أو أراد استقامة الجسم مع عدم حياته، وكمن أراد تقويم الضلع مع اعوجاج الشخص، وكيف يحيا النون مع فساد الماء؟ ولقد أصاب الخليل في قوله: أصلح نفسك لنفسك يكون الناس تبعاً لك**"[2]، وفي ذلك النص طعن لشرعية كل حاكم كان بعيداً عن الإيمان والصلاح والتأريخ مليء بأمثال هؤلاء .

ومن الآيات التي ذكرت الإمامة قوله تعالى " ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئي ئي ی ی ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم حج حم خج خم سج سح سخ سم صح صم ضج ضح ضخ ضم طح ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئي ئي ی ی ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم حج حم خج خم سج سح سخ سم صح صم ضج ضح ضخ ضم طح ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم ژ"[3] ، وقال فيها أبو عبيدة التيمي(209هـ/824م) "**«يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم» أي بالذي اقتدوا به وجعلوه إماما، ويجوز أن يكون**

(1) القاضي النعمان، آداب اتباع الأئمة، ص25 .

(2) سراج الملوك، ص472 .

(3) سورة الإسراء، الآية 71 .

**بكتابهم"**[1] ، أمّا الطبري(310هـ/922م)جاء في تفسيره ما كان قريباً للمعنى في الآية بقوله: " **وأولى هذه الأقوال عندنا بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمُّون به في الدنيا، لأنّ الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما ائتمّ واقتدي به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها"**[2] وهنا نجد بقاء التفسير مبهم ويثير الشبهات لعدم تحديد هوية الإمام وكيف لا نعرفه وهو يكون عنواناً لوقوفنا أمام الله تعالى للحساب وهو الوسيلة لصلاح صحيفة أعمالنا لنيل رضى الله تعالى، ومن خلال أسلوب الخطاب في الآية أنّ الله ينادي طائفة من الناس بإمامهم وليس من المنطق أو العقل أن يقع الاختيار على الناس ومن ثم على الله الاستجابة والتعامل مع ذلك الشخص على أنّه إمام أو أن يحجم عنوان الإمامة في أقلية اختارت إمام للصلاة أو اقتداء في فعل معين، ويبنى عليه نداء سماوي في عالم الآخرة.

وقال الشيخ الكليني(329هـ/940م) فيها "يوم ندعو كل أناس بإمامهم "**في أنّ الأئمة شهداء الله عزّ وجلّ على خلقه"**[3] ، أمّا الإسماعيلية فقد جاء تفسيرهم للآية على لسان حميد الدين الكرماني(411هـ/1021م) بقوله: "**﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ وكان لو كان لا يكون إمام في كل زمان وتخلو الأرض منه مع مجيء الناس إلى الكون أولاً فأولاً ، لكان قول الله كذباً ، وكان غير متوهم في قول الله تعالى الكذب ، كان منه الإيجاب بأنّ لكل زمان إمام يدعو الله تعالى يوم القيامة أناسه به ، إنا لله**

(1) مجاز القرآن، ج1/ص386 .
(2) جامع البيان ،ج17/ص503 .
(3) الكافي، ج1/ص238 .

**بـــه . إذاً الإمامـــة واجبـــة"**[1] وبـذلك حسـم الفـاطميون اعتقـادهم بوجـوب وجـود إمـام فـي كـل زمـان وذلـك بتصـريح قـول الله تعـالى فـي كتابـه المنـزل فـي الآيـة السـابقة، ومـن ظـاهر الآيـة يتبـين العلاقـة والصـلة بـين الإمـام والرعيـة بوصـفها من ضرورات الوجود ونظام الكون الذي يدعو الله الناس على أساسه .

وذكر الكرماني(411هـ/1021م) في حديثه عن وجوب وجود الإمام بدلالة الآية القرآنية التي أمرت بالرجوع في حال وقوع الاختلاف إلى الله والرسول وذلك في قوله تعالى: **ژ ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تختم تى تي ثج ثمژ**[2] , وفي تعليق له على دلالة الآية الكريمة في قوله: "**ولم يقل وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه اليكم**"[3]، والنتيجة التي توصل إليها وجوب وجود الإمام الذي خصته الآية بالرجوع إليه في الزمان الذي يخلوا من وجود الرسول(ﷺ).

وذكـر الطرطوشـي فـي ضـرورة وجـود السـلطان وعـدم اسـتقامة الحيـاة بدونـه بقولـه: "**اعلمـوا أرشـدكم الله أنّ فـي وجـود السـلطان فـي الأرض حكمـة لله تعـالى عظيمـة ونعمـة علـى العبـاد جزيلـة، لأنّ الله سـبحانه وتعـالى جبـل الخلائـق علـى حـبّ الانتصـاف وعـدم الإنصـاف، ومـثلهم بـلا سـلطان كمثـل الحـوت فـي البحـر يـزدرد الكبيـر الصـغير، فمتـى لـم يكـن لهـم سـلطان قـاهر لـم ينـتظم لهـم أمـر ولـم يسـتقر لهـم معـاش ولـم يتهنـوا بالحيـاة. ولهـذا قـال بعـض القـدماء: لـو رفـع السـلطان مـن الأرض مـا كـان لله فـي أهـل الأرض مـن حاجـة"**[4] وذلـك يؤكـد اخـتلال حيـاة الانسـان وانتشـار الفوضـى وصـعوبة

(1) المصابيح، ص 70 . 71 .
(2) سورة النساء، الآية 59 .
(3) المصابيح، ص70 .
(4) سراج الملوك، ص47 .

العيش من غير وجود هادٍ وقائد ينظم حيات الناس، وتلك المصلحة من ضروريات حكمة خلق الانسان ووجوده التي تنظم علاقته مع الخالق جلّ وعلا.

وبيّن ابن المطهر الحلي(726هـ/1325م) مكانة الإمام ووجوب عصمته من الخلل والزلل كونه ميزان الحق والحاكم العادل في الأرض وقال فيه "**ولأن الحاجة إلى الإمام إنما هي للانتصاف من المظلوم عن الظالم ، ورفع الفساد ، وحسم مادة الفتن، وأن الإمام لطف يمنع القاهر من التعدي، ويحمل الناس على فعل الطاعات، واجتناب المحرمات ، ويقيم الحدود والفرائض، ويؤاخذ الفساق، ويعزر من يستحق التعزير ، فلو جازت عليه المعصية ، وصدرت عنه، انتفت هذه الفوائد ، وافتقر إلى إمام آخر**"[1] .

ذلك المعنى الذي تمسك به الإسماعيلية وأنّ وجود النبي (ﷺ) ومن بعده الأئمة (عليهم السلام) من دواعي رحمة الله في خلقه وبقول داعيهم ابن الوليد (612هـ/1215م): "**فالله نفسه قال لنبيه وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين وقد دلنا العقل على أنّ هذا الخطاب ما قصد به القوم المعاصرين له وأنّ تلك الرحمة خميرتها باقية في الأرض بأولي الأمر الذين هم خميرة من رسول الله ليساوي في الاتصال بحبل رحمة الله الأولون والآخرون**"[2]، وذلك من باب العدل والإنصاف والمساوات بين الناس وبما أنّ أحكام الله تعالى نافذة على جميع خلقه، لا بد من وجود نبي أو رسول أو وصي لبيان تلك القوانين بأدق تفاصيلها والدليل على ذلك من القرآن الكريم في حادثة موسى (عليه السلام) في قوله تعالى" **ژ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ**

(1) نهج الحق، ص164 .

(2) الرسالة الوحيدة ، ورقة 12 .

ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﯓ ﮊ"[1]، ومن ظاهر الآية أنّ موسى(عليه السلام) ترك قومه أربعين ليلة وأوكل أخيه هارون فيهم ومع ذلك أفسدوا بعده، لذلك لابد أن لا تمر تلك الحادثة من دون استدلال بها، والقياس بين قوم موسى وغيرهم من الأقوام، ذلك اقتداء بسلوك رسول الله (صلى الله عليه وآله) في غزوة تبوك(9هـ/630م) عندما خلف علي بن أبي طالب(عليه السلام) في المدينة[2] وبعد أن أظهر رغبته في مرافقة النبي (صلى الله عليه وآله) في تلك الحملة ذكره في تلك الحادثة وأخبره بأنّ استخلافه في المدينة أشبه بقصة موسى وهارون(عليهم السلام)[3]وذلك دليل على أنّ أحكام القرآن سارية في جميع العصور لاستدلال النبي(صلى الله عليه وآله) في حادثة موسى وهارون وتطبيقها على منزلة علي (عليه السلام)منه وكذلك ما أبداه من سلوك في استخلافه في المدينة.

وقال الله تعالى " ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙﮊ"[4] ، قال فيها مقاتل إنّها نزلت في بني هاشم وبني المطلب وذكر منهم "**فيهم علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب- عليهم السلام ... ومن كان يتبعه من بني هاشم**"[5] أي يتبع النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) من بني هاشم أي شمل المتقين منهم، من ساروا على نهج النبي (صلى الله عليه وآله) واستثنى غيرهم.

وكذلك جاء في تفسير قوله تعالى " ﮊ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﮊ"[6] ، جاء في تفسير ابن وهب(197هـ/812م) قوله "**وأخبرني أيضا من سمع**

---

(1) سورة الأعراف، الآية 142 .

(2) ينظر: خطب الإمام علي، نهج البلاغة، ص7 .

(3) النسائي، فضائل الصحابة، ص13 . 14 .

(4) سورة ص، الآية 28 .

(5) تفسير، ج3/ص643 .

(6) سورة النساء، الآية 59 .

**أبا الأحوص يقول عن الأعمش، عن مجاهد في قول الله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، قال: هم الفقهاء والعلماء .وقال الأعمش: وقال أبو صالح: قال أبو هريرة: هم الأمراء"**[1] ، وهنا واضح أنّها لا تخرج تلك الطاعة عن الأولياء والصلحاء أو تجمع بين هؤلاء والقادة أو الزعماء والذين وصفهم بالأمراء والأقرب إلى الصواب أنّ من اقترنت طاعته بالله تعالى والرسول الأكرم كان من القادة الذين خصهم الله بالتقوى والإيمان كون الخطاب في بداية الآية خاطب الذين آمنوا ويستبعد أن يكون أمراؤهم أقل منهم شأناً و إيماناً وتقوى ، أمّا الشافعي(ت 204هـ/820م) لم يقف على تفسير مقبول للآية وذلك في قوله "**فقال بعض أهل العلم: أولو الأمر: أمراء سرايا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والله أعلم – وهكذا أخبرنا، وهو يشبه ما قال – والله أعلم –؛ لأنّ كل من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة، وكانت تأنف أن يُعطيَ بعضُها بعضاً طاعة الإمارة**"[2] ، على الرغم من أنّ التفسير مبهم ويختزل الطاعة بأمراء سرايا رسول الله (ﷺ) وهذا حجم المعنى في القرآن في زمن معين إلّا أنّ الذي نفهمه من تفسير الشافعي أنّ الطاعة التي قرنها الله تعالى به وبرسوله الأكرم (ﷺ) هي لمن يتصف بلقب أمير المؤمنين لأنّ الآية تخاطب المؤمنين وتأمرهم بطاعة أمرائهم فمن هؤلاء الأمراء الذين أمر الله تعالى بطاعتهم .

وتلك التساؤلات طرحها المنصور بالله الفاطمي(334-341هـ/946-953) مخاطباً القوم بشأن من هو الإمام أو صاحب الأمر واجب الطاعة الذي قرنه الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، وهل هو فرض من الله تعالى أم من الناس ثم عاد ليتساءل ، هل تعيين الإمام من الدين أم ليس من الدين

(1) تفسير القرآن، ج1/ص100 .

(2) تفسير، ج618/2 .

ورد في قوله: "**يقال لهم خبرونا عن نصب الإمام ، أمن الدين أم ليس من الدين ، فإن قالوا ليس من الدين ، قلنا : فما الحاجة بنا إليه وإنّ قالوا من الدين ، قلنا : فهل على الله بيانه وعلى رسول الله بلاغه فإن قالوا نعم ، قيل فهل أخلا فإن قالوا لا ، قيل لهم هذا فضول منكم في دين الله وتقدم منكم بين يدي الله ورسوله**"[1] .

وناقش المنصور ما جرى بعد وفاة رسول الله (ﷺ) ، وادعاء الناس بأنّه لم يعيّن خليفة من بعده ، وكيف أنّ الناس كانوا أشد حرصاً على تعيين ذلك الخليفة من الله والرسول وذلك تناقض مع ورود طاعته وملازمتها لطاعة الله ورسوله "**ثم يقال لهم : أيمّا كان أصلح، ما فعل رسول الله (ﷺ) من ترك ذلك ، أو ما فعلتم من نصبكم ما نصبتم ؟ فإن قالوا ما فعلنا ، قيل لهم : فأنتم أولى و أحق بالصواب من رسول الله (ﷺ) في زعمكم؟**"[2]، وهذه المقارنة بين فعل النبي (ﷺ)وفعل القوم أظهر تناقضاً في المواقف في وقت قريب من حياة النبي (ﷺ) لم يفصل الناس عنه سويعات قليلة واختلفوا وتنازعوا، فكيف بالأمم اللاحقة التي لم تشهد النبي(ﷺ)ولم تسمع حديثه .

وحسم الفاطميون فلسفتهم في الإمامة ومن خصهم الله بالطاعة والتسليم وقرنهم بطاعته "**فالتسليم هو الطاعة ظاهرة وباطنة لمن أوجب الله طاعته وقرنها بطاعته جلّ ثناؤه ، وهو رسوله (ﷺ) والأئمة من أهل بيته**"[3]، إنّ التسليم والطاعة بنص وأمر من الله تعالى لا تكون لمن هم

(1) تثبيت الإمامة، ص4 .

(2) تثبيت الإمامة، ص4 .

(3) القاضي النعمان، آداب اتباع الأئمة، ص90 .

أدنى وأقل من مقام النبي (ﷺ) والأئمة سلام الله عليهم الذين شهد لهم أعداؤهم قبل أتباعهم باستحقاق تلك المنزلة التي خصهم بها الله تعالى دون غيرهم .

وإذا أخذنا ما شخصه الطرطوشي من صفات خلفاء الأنبياء لا نجده ينطبق إلا على رسول الله (ﷺ) والأئمة من أهل بيته "**واعلم أرشدك الله أنّ الإنسان أعز جواهر الدنيا وأعلاها قدراً وأشرفها منزلة، وبالسلطان صلاح الدنيا، فهو إذا أعز أعلاق الدنيا وأعمها نفعاً وبركة. ولذلك خلق الله تعالى داريـن: دار الدنيا ودار الآخرة، ثم كان السلطان صلاح الدارين، فأخلق بشخص يعم نفعه العباد والبلاد ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة، وأن يكون شرفه عند الله عظيماً كما كان قدره في العقول جسيماً، ومقامه عند الله كريماً كما كان نفعه في البلاد عميماً، وعلى قدر عموم المنفعة تشرف الأعمال، وعلى قدر النعمة تكون المنة. ألا ترى أنّ الأنبياء عليهم السلام أعمّ خلق الله تعالى نفعاً، فهم أجل خلق الله قدراً لأنّهم تعاطوا إصلاح الخلائق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وكذلك سلطان الله في الأرض هو خليفة النبوة في إصلاح الخلائق، ودعائهم إلى فناء الرحمن وإقامة دينهم وتقويم أودهم، وليس فوق السلطان العادل منزلة إلّا نبي مرسل أو ملك مقرب**"[1] ، وهذه القيمة لخلق الإنسان عند الله تعالى وخطواته في سبيل هدايته بما فيها إرسال الأنبياء والرسل أصبح من دواعي رحمته أن لا يترك الأرض بدون هادٍ ومصلح لإقامة العدل الذي هو سبيل الصلاح في الدنيا والآخرة .

(1) سراج الملوك، ص44 .

ومن الآيات الأخرى قوله تعالى: " **ژ ې ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ژ**"[1] ، روي عن مقاتل بن سليمان(ت150هـ/767م) قصة نزول تلك الآية وإنّها نزلت في علي بن أبي(عليه السلام) بعد أن تصدق بخاتمه وهو راكع ونقل عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) "**فكبّر النَّبِيّ- (صلى الله عليه وآله)- وقَالَ: الحمد للَّه الَّذِي خص عليًّا بهذه الكرامة**"[2] وعلق مقاتل (ت150هـ/767م)على ذلك بقوله "**فأنزل اللَّه- عَزَّ وَجَلّ- وَالَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا يعني عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب- رَضِيَ اللَّه عنه**"[3] وبذلك حدد الله تعالى المؤمنون الذين ذكرهم في آياته وخصهم في الطاعة والولاية، ودلالات تلك الآية تعزز العقيدة في إمامة علي (عليه السلام) لدى أنصاره والداعمين لخلافته بعد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

أمّا الطبري(310هـ/922م) فقد حوم على المعنى ولم يجزم بقوله " وأمّا قوله: "والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون"، **فإنّ أهل التأويل اختلفوا في المعنيّ به. فقال بعضهم: عُنِي به علي بن أبي طالب**"[4] ، ونقل ابن أبي حاتم(327هـ/938م) ذلك في قوله " **حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمُرَادِيُّ، ثنا أَيُّوبُ بْنُ سُوَيْدٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ فِي قَوْلِهِ: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله ورسوله والذين آمنوا قَالَ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ**"[5].

ناقش القاضي النعمان (363هـ/973م) تفسير تلك الآية، ورد على الذين قالوا إنّ الآية شملت المؤمنين بالطاعة ولم تحدد أشخاص بعينهم، فكان قوله كيف أنّ الله تعالى أمر مجموعة من المؤمنين بطاعة مجموعة أخرى منهم ولا يعرف من التي

---

(1) سورة المائدة، الآية 55 .

(2) تفسير، ج1/ص486 .

(3) تفسير، ج1/ص486.

(4) تفسير، ج425/10 .

(5) تفسير، ج4/ ص1162 .

تطيع الأخرى وذلك لا يصح والأمر غير ملزم كونه مبهم وهو منافي لحكمة الله تعالى، وأمّا أسلوب المخاطبة بالعامة ويراد بها الخاصة هذا وارد كثيراً في القرآن الكريم[1] منها قوله تعالى: **ژ ئې ئې ئې ئى ئى ئد ى ى ي ي ئج ئح ئم ئى ئي بج بح ژ**"[2] ، قال فيها الشافعي إنّ الله تعالى خاطب في صيغة الجمع في كلمة الناس والحادثة معروفة كانوا لا يزيدون على أربعة نفر وهم فئة قليلة انصرفت عن القتال في معركة أحد[3] .

وذهب الماتريدي(333هـ/944م) إلى أبعد من ذلك بقوله" **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وقال رسول الله – (ﷺ)–: " يقاتل هذا بالتأويل كما نقاتل نحن على التنزيل " يعني: عليًّا – رضي الله عنه**"[4] ونلاحظ من ذلك الحديث أنّ علي بن أبي طالب هو امتداد للنبوة وأنّ سيرته تصب في الحفاظ على جوهر الإسلام ومواجهة التفسير والتأويل المحرف من المعنى الحقيقي للسور والآيات التي تضمنها كتاب الله جلّ وعلا، وأعطى الحديث عن النبي (ﷺ) الشرعية في القتال مع علي (عليه السلام) إلى درجة القتال مع رسول الله (ﷺ).

وفسّرها النحاس(338هـ/949م) بأنّها نزلت في علي (عليه السلام) بقوله " **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال يعني المؤمنين فقلت له بلغنا أنّها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال علي من المؤمنين قال أبو عبيد وهذا يبيّن لك قول النبي صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه**

(1) تأويل الدعائم، ج1/ص62 .
(2) سورة آل عمران، الآية 173 .
(3) تفسير، ج1/ص497 .
(4) تفسير، ج181/9 .

**فعلي مولاه**"[1] ، وكذلك ذكرها البيضاوي(685هـ/1286م) بأنّها نزلت في علي(عليه السلام)بقوله"**وإنّها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه**"[2] ، هنا في تلك الآية بعد أن حددت ولاية المؤمنين في صيغة الجمع انتقلت إلى التصريح بصفة الإيمان وإقامة الصلاة وهنا أيضاً تشمل الجمع وبعدها حددت الذي قام بالتصدق وهو راكع وهنا اختص بها علي (عليه السلام).

ومن الآيات الأخرى التي عززت اعتقاد القائلين بإمامة آل البيت من ذرية علي بن أبي طالب (عليه السلام) قوله تعالى: " **ژ ڑ ڑ ک ک ک ک ڑ ژ ژ ڈ ڈ ژ ژ ڈ ڈ ڑ ڑ ک ک ک ک ڈ ژ**"[3] ورد في تفسير القرطبي(671هـ/1272م) قوله "**رَوَاهُ لَيْثٌ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً. وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً قَالَ: مَرِضَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فَعَادَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَادَهُمَا عَامَّةُ الْعَرَبِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْحَسَنِ- وَرَوَاهُ جَابِرٌ الْجُعْفِيُّ عَنْ قَنْبَرٍ مَوْلَى عَلِيٍّ قَالَ: مَرِضَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ حَتَّى عَادَهُمَا أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ- رَجَعَ الْحَدِيثُ إلى حَدِيثِ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ- لَوْ نَذَرْتَ عَنْ وَلَدَيْكَ شَيْئًا، وَكُلُّ نَذْرٍ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ. فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ بَرَأَ وَلَدَايَ صُمْتُ لِلَّهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ شُكْرًا. وَقَالَتْ جَارِيَةٌ لَهُمْ نُوبِيَّةٌ: إِنْ بَرَأَ سَيِّدَايَ صُمْتُ لِلَّهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ شُكْرًا. وَقَالَتْ فَاطِمَةُ مِثْلَ ذَلِكَ. وَفِي حَدِيثِ الْجُعْفِيِّ فَقَالَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ: عَلَيْنَا مِثْلَ ذَلِكَ فَأُلْبِسَ**

(1) معاني القرآن، ج2/ص 325 .

(2) تفسير، ج2/ص132 .

(3) سورة الإنسان، الآية 7 . 9 .

**الْغُلَامَانِ الْعَافِيَةَ**"[1] أما تكملة الآية ورد في بعض التفاسير أنّها نزلت في علي بن أبي طالب بعد أن كان صائماً وكان لديهم أربعة أرغفة للفطور فطرق منزلهم سائل وتكرر ذلك بين أصناف السائل واليتيم والأسير وكانوا في كل مرة يطعمون أحد تلك الأرغفة للسائل إلى أنّ بقي لديهم رغيف واحد[2] فنزلت تلك الآية لتوثق تلك الحادثة وهذا دليل على أنّ تلك الدار خصها الله تعالى في الذكر والثناء وكان ذلك شاهداً للقائلين في إمامة علي وخلافته لرسول الله (ﷺ) وجاء في قول مقاتل (ت150هـ/767م)"**نزلت في أبي الدحداح الأنصاري[3]، ويقال في علي بن أبي طالب- رضي الله عنه**"[4] وفي رواية السمعاني(489هـ/1095م) أنّ كل ما لديهم من طعام هو ثلاثة أرغفة من الشعير وتصدقوا بها جميعاً بعد أن تكرر السائل ثلاثاً " **أَنَّهَا نزلت فِي عَليّ وَفَاطِمَة وَالْحسن وَالْحُسَيْن، رَوَاهُ عمر بن عبيد، عَن الْحسن الْبَصْرِيّ، وَحكى عَن ابْن عَبَّاس ذَلِك فِي بعض الرِّوَايَات**"[5] وذكر في رواية تفاصيل القصة قوله: " **أَنّ عليًّا وَفَاطِمَة أصبحا صَائِمين، فهيأت فَاطِمَة ثَلَاثَة أَقْرَاص من شعير لتأكل قرصا بِنَفسِهَا، وَيَأْكُل عَليّ قرصا، وللحسن وَالْحُسَيْن قرص؛ فَلَمَّا كَانَ الْمسَاء جَاءَ مِسْكين فَأَعْطوهُ أحد الأقراص، ثمَّ جَاءَ يَتِيم فَأَعْطوهُ القرص الثَّانِي، ثمَّ جَاءَ أَسِير فَأَعْطوهُ القرص الثَّالِث وطووا**"[6] وكذلك نقل البغوي (510هـ/1116م) تلك الحادثة بقوله: "**وروي عن مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ**

---

(1) الجامع، ج19/ص131 .

(2) مقاتل بن سليمان، تفسير، ج4/ص525 .

(3) ثابت بن الدحداح ويقال ابن الدَّحداحة بن نُعَيْم بن غَنْم بن إياس ويكنى أبا الدحداح وكان في بنى أنيف أو بنى العجلان من بَلى حلفاء بنى زيد بن مالك بن عوف بن عَمرو بن عَوف. ويذكرون أنه خالُ أبي لبابة بن عبد المنذر. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج4/ص296 .

(4) مقاتل بن سليمان، تفسير، ج4/ص525.

(5) تفسير القرآن، ج6/ص116 .

(6) السمعاني، تفسير القرآن، ج6/ص116

**بْنِ أبي طالب"**[1] وذكر الطبري(310هـ/922م) في فضائل علي بن أبي طالب قوله **"ومنها ما روى عن ابن عباس في قوله تعالى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) قال نزلت في على بن أبى طالب رضى الله عنه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال ليس من آية في القرآن (يا أيّها الذين آمنوا) إلّا وعلي رأسها وأميرها وشريفها فلقد عاتب الله أصحاب محمد في القرآن وما ذكر عليًّا إلّا بخير"**[2] وبذلك كان من الأولى ومن مقتضيات العدل والرحمة أن لا تخرج الإمامة والإمرة من علي وآل علي كون ذلك يفضي إلى تطبيق أحكام الله تعالى في أرضه وتحقيقاً للمصلحة البشرية في العيش في دولة العدل الإصلاحية التي يسير فيها الإنسان على وفق الوسيلة التي رسمها الله تعالى لعباده لينالوا خير الدنيا والآخرة.

ذكر الطرطوشي في أحق الملوك في الحكم **"أفضل الملوك من كان شركة بين الرعايا، لكل واحد منهم فيه قسطة، ليس أحد أحق به من أحد، لا يطمع القوي في حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله. كان النبي صلى الله عليه وسلم تأخذ بيده من إماء المدينة، فتطوف به على سكك المدينة حتى يقضي حاجتها"**[3] ، ومن جميع ماورد من آيات قرآنية والتفاسير المبينة لمعانيها ومن خصتهم بالذكر نصل إلى نتيجة أنّ فلسفة الفاطميين في الإمامة كان لها أصل في القرآن الكريم وفي التفاسير والآراء التي كانت متوفرة في عصر الإسماعيلية والدولة الفاطمية وبذلك لم تكن أفكارهم في الإمامة دخيلة على الفكر والعقيدة الإسلامية .

(1) تفسير، ج5/ص191 .
(2) ذخائر العقبى، ص89 .
(3) سراج الملوك، ص60.

**ثانياً : الإمامة في السيرة النبوية**

ابتدأ النبي الأكرم محمد (ﷺ) دعوته في الأقربين ولا سيما المخلصين منهم وذلك لم يكن فعلاً طارئاً أو مرحلياً إنّما أنتج سياسة ذات أبعاد مستقبلية لضروريات الرسالة وانتشارها ووضوح مسارها الإصلاحي الذي كان بتوجيه وأوامر إلهية كما في قوله تعالى: "**ژ ﭽ ﭾ ﭿ ژ** "[1].

وروي في تلك الحادثة أنّ النبي الأكرم جمع بني هاشم وبني عبد المطلب خاصة[2] وجاء عن رسول الله في قوله: "**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**"[3] وذلك القول فيه إشارة إلى من خصهم الله تعالى بالإمارة والخلافة وكان أول المقربين الذين آمنوا برسالة النبي (ﷺ) هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي سبق الناس إسلاماً وخصّه النبي الأكرم بالكثير من الأحاديث التي اعتمدها القائلين بخلافته وإمامته وأنّ تنصيبه كان من قبل الله تعالى ومن بعده ذريته.

وذكر الطبري(310هـ/922م) تلك الرواية التي دلت على خلافة الإمام علي (عليه السلام) وولايته: "**ثُمَّ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ص، فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ شَابًّا فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا قَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ تعالى أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤَازِرُنِي عَلَى هَذَا الأَمْرِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ؟ قَالَ: فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ عَنْهَا جَمِيعًا، وَقُلْتُ: وَإِنِّي لأَحْدَثُهُمْ سِنًّا، وَأَرْمَصُهُمْ عَيْنًا، وَأَعْظَمُهُمْ بَطْنًا، وَأَحْمَشُهُمْ سَاقًا، أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَيْهِ**

(1) سورة الشعراء، الآية 214 .

(2) مقاتل بن سليمان، تفسير، ج2/ص466 .

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج1/ ص145 .

**فَأَخَذَ بِرَقَبَتِي، ثُمَّ قَالَ: إنّ هذا أخي ووصيي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا] قَالَ: فَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُونَ، وَيَقُولُونَ لأَبِي طَالِبٍ: قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ لابْنِكَ وَتُطِيعَ"**[1].

وروي عن السيوطي(911هـ/1505م) الحديث مع بعض التعديل الطفيف و بيان المصادر التي أشارت إليه بقوله: "**ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع وتطيع لعلي (ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقى معاً في الدلائل)**[2] ، وفي العقائد الإسماعيلية وضعوا الولاية في أولى الدعائم التي بني الإسلام عليها ونقلوا عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله في الولاية: "**بني الإسلام على سبع دعائم الولاية وهي أفضل وبها وبالولي ينتهي إلى معرفتها والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد**"[3] وموضع الولاية في المقدمة جاء بمعنى أنّهم الوسيلة لمعرفة أحكام الله تعالى وسبيل الهداية لبقية العبادات.

وبيّن الطرطوشي وجوب طاعة الأئمة في قوله: "**الطاعة عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة. طاعة الأئمة عصمة لمن لجأ إليها وحرز لمن دخل فيها. ليس للرعية أن تعترض على الأئمة في تدبيرها وإن سولت لها أنفسها، بل عليها الانقياد وعلى الأئمة الاجتهاد**"[4]، إنّ ما ذكره الطرطوشي مصداق لطاعة أئمة العدل الذين خصهم الله ورسوله بالذكر ولا يصح أن تطلق تلك الطاعة وتلك الصفات على أئمة الجور والظلم .

---

(1) تاريخ، ج2/ص 320 . 321 .

(2) جامع الأحاديث،ج32/ ص54 . 55 .

(3) القاضي النعمان، تأويل الدعائم، ص9 .

(4) سراج الملوك، ص244 .

وعن أبي بصير (القرن 2هـ/8م) ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : " **المنذر رسول الله (ﷺ)، والهادي أمير المؤمنين عليه السلام بعده والأئمّة عليهم السلام ، وهو قوله « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ » في كل زمان إمامٍ هادٍ مبين ، وهو ردّ على من ينكر أنّ في كلّ عصر وزمان إماماً ، و أ نّه لا تخلو الأرض من حجّة**"[1] ،ويأتي ذلك في سياق أن وجود إمام لكل عصر هو من الضرورات ضمن نظام الخلق الذي أوجده الله تعالى وهو من دواعي اللطف والعناية الإلهية .

وأوكل النبي (ﷺ) الناس من بعده في حديث صريح إلى ركنين متلازمين هما كتاب الله والعترة، وبذلك بين الرسول الأكرم (ﷺ)خط الولاية المتمم للرسالة وهو امتثال لأوامر الله تعالى وورد ذلك الحديث بصور متعددة لها معنى واحد منها ما ذكره ابن أبي شيبة(235هـ/849م) في سند طويل عن زيد بن ثابت قوله: "**إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمُ الْخَلِيفَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِتْرَتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**"[2] وذلك دليل على استمرار خط الهداية إلى نهاية الحياة الدنيا ولا يتم ذلك الوعد إلّا بإرادة إلهية.

ورواه أحمد بن حنبل (241هـ/855م) بأكثر من سند منها ما وصفه بالضعيف عن زيد بن الحسن الأنماطي ومنها بالحسن عن محمد بن عمر بن علي[3] ورواه الكشي (249هـ/863م) بسند زيد بن ثابت[4] ورواه الترمذي(320هـ/932م)

(1) مسند، ج1/ص289 . 290 .
(2) المسند، ج1/ ص108 .
(3) المسند، ج17/ص 172 .
(4) الكشي، المنتخب، ج1/ ص214 .

والطبراني(360هـ/970م) والبغوي(510هـ/1116م) عن جابر بن عبدالله[1] ورواه النسائي(303هـ/915م) بسند عن زيد بن أرقم[2] ورواه ابن الجوزي(597هـ/1200م) عن أبي سعيد الخدري[3] ومن تعدد الموارد في نقل الحديث دل على اعلان النبي الأكرم (ﷺ) ذلك على الملأ ومن المستبعد نفي الحديث أو إنكاره .

ومن الأحاديث التي وردت عن النبي (ﷺ) في حق الإمام علي (عليه السلام) في الخلافة حديث المنزلة الذي ذكره الرواة ،وذلك بعد خروج النبي الأكرم إلى غزوة تبوك واستخلاف الإمام علي (عليه السلام)على المدينة، وبعد بيان رغبته في مرافقة النبي في الحملة قال له (ﷺ): "**مَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**"[4] .

وهنا تصريح من النبي بأحقية خلافته في كل شيء إلّا النبوة ولو كان بعدي نبي لكنت أنت يا علي وبما أنّ هناك خليفة كان من الأولى خلافته للنبي حسب دلائل الحديث، ولا سيما أنّ هارون قد حضي بمنصب الخلافة والوزارة والإشراك في الأمر لموسى(عليه السلام) إضافة للنبوة وذلك من الآية " **ژ ـ ئا ئا ئه ئه ئو ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئد ى ید ئح ئم ئى ئي ژ**"[5]،

(1) الترمذي، الجامع الكبير، ج6/ ص131 ؛ الطبراني، المعجم الكبير، ج3/ ص66 ؛ البغوي، مصابيح السنة، ج4/ ص189 .

(2) السنن الكبرى، ج7/ ص310 .

(3) ابن الجوزي، جامع المسانيد، ج3/ ص145 . 146 .

(4) الأزدي، الجامع، ج11/ ص226 . ينظر: الطيالسي، المسند، ج1/ ص167 ؛ الصنعاني، المصنف، ج6/ ص68 ؛ الحميدي، المسند، ج1/ ص189 ؛ احمد بن حنبل، المسند، ج3/ ص84 ؛ البخاري، الصحيح، ج5/ ص19 .

(5) سورة طه، الآيات 29 . 35 .

ولو كان الأمر اقتصر على الوزارة لعينه موسى (عليه السلام) دون الحاجة إلى الدعاء إلّا أنّ الأمر قد تجاوز ذلك إلى الإشراك في الأمر جميعاً [1] حتى في الطاعة والشمول في الرحمة الإلهية ، وأنّ اختيار النبي (صلى الله عليه وسلم) لتلك الصلة على ما يبدو أراد منها ذلك المعنى .

ومن الأحاديث التي أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل بيته في نقلهم: "**عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «نَحْنُ وَلَدَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، سَادَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنَا، وَحَمْزَةُ، وَعَلِيٌّ، وَجَعْفَرٌ، وَالْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ، وَ الْمَهْدِيُّ**»"[2]، ومن الحوادث ما رواه النسائي(303هـ/915م) عندما بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد على فرقة من الجيش إلى اليمن، وعلي (عليه السلام) على أخرى وأمرهم إذا التقى الجيشان جعلت الإمرة لعلي بن أبي طالب واذا افترقا فكل قائد على جيشه وحاول خالد بن الوليد أن يشي بعلي (عليه السلام) بحجة أنه أخذ جارية من السبي فعندما أوصل بريدة ذلك إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)أظهر انزعاجًا منه وقال له "**لَا تقعَنّ يَا بُرَيْدَة فِي عَليّ فَإِنّ عليًّا منّي وَأَنا مِنْهُ وَهَذَا وَلِيكُم بعدِي**"[3].

تلك الحادثة بالإمكان جعلها إشارة إلى أنّ علياً (عليه السلام) منزه عن الخطأ، ولا سيما أنّ النبي رفض ما نقل اليه، وأنّ سلوك النبي (صلى الله عليه وسلم) شريعة، وكذلك ذكره بأنّه وليكم من بعدي دليل على الولاية والخلافة ونقل ابن أبي شيبة(235هـ/849م) في مناقب علي (عليه السلام) وتفضيله على جميع الصحابة في قوله "**حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ فِطْرٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ**

(1) ابن الجوزي، زاد المسير، ج3/ص157 ، 250.

(2) ابن ماجه، السنن، ج2/ص1368 .

(3) النسائي، خصائص علي، ص 110 . 111 .

**أَصْحَابِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: «لَقَدْ جَاءَ فِي عَلِيٍّ مِنَ الْمَنَاقِبِ مَا لَوْ أَنَّ مَنْقَبًا مِنْهَا قُسِمَ بَيْنَ النَّاسِ لَأَوْسَعَهُمْ خَيْرًا"**[1].

ومن تلك الأحاديث وتلك المناقب بنى الفاطميون فلسفتهم في الإمامة وأقروا بأنّ ذلك لا يمكن أن يصدر من أشخاص إلّا أن يكونوا بمنصب الإمام وهم فوق البشر، وذلك ما بينه الإسماعيلية من خلال داعيهم القاضي النعمان(363هـ/973م)، إذ وصفوا الأئمة بقولهم "**الأئمة صلوات الله عليهم فوق الخلق بما لا يدرك به علماً , والذي يجب لهم أعظم وأجل من أن يدرك بعلم وعقل**" [2] .

وما ذكره الطرطوشي في ضرورة أن يكون للأرض سلطان واحد لكي تستقيم الحياة وتهنأ العباد فيها" **وكما لا يستقيم سلطانان في بلد واحد لا يستقيم إلهان للعالم، والعالم بأسره في سلطان الله تعالى كالبلد الواحد في يد سلطان الأرض. ولهذا قال علي بن أبي طالب: أمران جليلان لا يصلح أحدهما إلّا بالتفرد، ولا يصلح الآخر إلّا بالمشاركة وهما الملك والرأي**"[3].

لذلك من اعتقد بالإمامة لا يذهب إلى وجود إمامين في زمان واحد وإنّما تنتقل من إمام إلى آخر بعد وفاته من خلال الوصية. ونقل الشهرستاني (548هـ/1153م) قولهم في انتقال الإمامة إلى إسماعيل الابن الأكبر للإمام الصادق على الرغم من وفاته في حياة أبيه: "**إنّه مات , وإنّما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده فإنّ النص لا يرجع قهقري**

(1) ابن أبي شيبة، المصنف، ج6/ ص373 .

(2) أداب إتباع الأئمة , ص 15 .

(3) سراج الملوك، ص 48 .

**والقول بالبداء محال .ولا ينص الإمام على واحد من أولاده إلّا بعد السماع من آبائه . والتعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة"**[1].

أشار النبي الأكرم (ﷺ) في العديد من الأحاديث إلى منزلة ومكانة أهل بيته (سلام الله عليهم أجمعين) ولا نقاش في عصمة النبي عن الخطأ والزلل في صريح القرآن الكريم "**ژ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ**"[2] ولا سيما أنّه أكد في ضرورة الحب والبغض على وفق الشريعة وليس الميول والعواطف كما في قوله: "**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحَبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ**"[3] وبذلك من الأفضل اتباع أوامر النبي (ﷺ) في تقديم واتباع من استحق المنزلة والوسيلة إلى الله تعالى وطاعته.

ذكر أبو ذر عن رسول الله (ﷺ) قوله :"**اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس فان الجسد لا يهتدي إلّا بالرأس ولا يهتدي الرأس إلّا بالعينين**" [4] .

وفي خلاف من قال إنّ النبي (ﷺ) ما وصى بالخلافة، هناك روايات ذكرت أنّ النبي قد تحدث في أمر الخلافة وبيّن أعدادهم وأثنى عليهم إذ كان الإسلام عزيزاً منيعاً إلى يوم القيامة أي أنّ النبي خصّ هؤلاء بالتقوى والصلاح وأنّهم خلفاء النبي في شريعته وحكمه وبيّن أنسابهم وأنّهم جميعاً من قريش ، من ذلك ما روي بسند جابر بن سمرة قوله "**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَزَالُ عَزِيزًا إِلَى**

(1) الملل والنحل , ج 1 / ص 191 .

(2) سورة النجم، الآية 3. 5.

(3) الطيالسي، المسند، ج2/ص110 ؛ احمد بن حنبل، المسند، ج36/ ص563 .

(4) ابن الصباغ , الفصول المهمة , ص 25 .

**اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً» ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً لَمْ أَفْهَمْهَا فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»"**[1] دلالات تلك الرواية أنّ النبي (ﷺ) ذكر موضوع خلافته بغض النظر عن الأعداد وفي حال صحت الرواية بالعدد فإن ذلك دليل آخر على الدقة والبلاغ في طرح النبي، وعند ذكر أعدادهم فلابد من سائل يسأل عن أسمائهم والنبي(ﷺ) أقدر على الإجابة.

وفي سياق الرواية بذكر العدد بيّن القاضي النعمان(363هـ/973م) ذلك بقوله: " **وعن علي بن الحسين عليه السلام، أنّه قال : يقوم القائم منّا ( يعني المهدي) ثم يكون بعده اثنا عشر مهديا ( يعني من الأئمة من ذريته )**"[2] ، بالرغم من عدم ملائمة الرواية لاعتقاد الفاطميين في عدد أئمتهم إلّا أنّهم ذكروها وذلك دليل على تواتر الحديث في أوساط الرواة ومنها ما ورد عن عبدالله بن مسعود[3] بأنّهم سألوا النبي الأكرم (ﷺ) عن عدد الخلفاء من بعده فأجاب في قوله "**اثْنَا عَشَرَ، عِدَّةُ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**"[4] والمقارنة في عدد الخلفاء بنقباء بني إسرائيل دليل على صلاح

---

(1) الطيالسي، المسند، ج2/ ص127 ؛ أحمد بن حنبل، المسند، ج34/ ص427 ؛ مسلم، الصحيح، ج3/ ص1453 ؛ ابن حبان، الصحيح، ج15/ ص44 ؛ الطبراني، المعجم الكبير، ج2/ ص232 .

(2) شرح الأخبار، ج3/ ص400 .

(3) عبدُ الله بن مسعود بن غافِل، ابن حبيب الهُذَلي، أبو عبد الرحمن: من السابِقِين الأَوَّلين، ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبُه جَمَّة، وأمَّره عمرُ على الكَوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين، أو في التي بعدها بالمدينة. ينظر: ابن حجر العسقلاني، تحرير تقريب التهذيب، ج2/ص269 .

(4) أبي يعلى، المسند، ج9/ ص222 ؛ الطبراني، المعجم الكبير، ج10/ ص157 ؛ ابن البيع، المستدرك على الصحيحين، ج4/ ص546 .

أولئك الخلفاء وإيمانهم وجاء في بعض المصادر الأخرى في صيغ أخذت المعنى نفسه[1]، وبيّن الطرطوشي دور الأئمة في صلاح العباد والبلاد في قوله: "**الإمامة عصمة للعباد وحياة للبلاد، أوجبها الله لمن خصّه بفضلها وحمله أعباءها فقرنها بطاعته وطاعة رسوله**"[2].

وهناك أحاديث بينت الصلة بين النبي الأكرم (ﷺ) والإمام علي (عليه السلام) منها في مجال العلم مثل "**أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِهِ مِنْ بَابِهِ**"[3] ، وهذه الصفة ما نالها أحد من أهل الأرض وكان من الأولى خلافته للنبي حسب قاعدة الأفضل والمفضول، ومن ظاهر الحديث أنّ النبي (ﷺ) أعدّ علي ين أبي طالب فكان بابه إلى العلم، ووجه الناس إليه وذلك دليل على أنه أفضل العلماء بعد رسول الله في الشريعة والحكم .

ومن الأحاديث التي حملت معاني كبرى هو "**أَلَا إِنَّ مَثَلَ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ**"[4]، وهنا الحديث لم يحدد النجاة هل في الدار الدنيا أم الآخرة ، وبالعودة إلى أصل قصة سفينة نوح[5] نجدها تعني الخلاص في دار الدنيا بعد تعرض الأرض لفيضان كبير ولم ينجُ من البلاء إلّا من ركب تلك الواسطة، وهي الملجأ

(1) ينظر: ابن الجنيد البجلي، المسند، ج5/ ص 320 ؛ الشاشي، المسند، ج1/ ص 404 ؛ ابن الجنيد، الفوائد، ج2/ ص231 ؛ السيوطي، جامع الأحاديث، ج9/ ص72 .

(2) سراج الملوك، ص245 .

(3) الطبراني، المعجم الكبير، ج11/ ص65 ؛ للمزيد ينظر، ابن المقرئ، المعجم، ص84 ؛ ابن البيع، المستدرك، ج3/ص137 ؛ الأصبهاني، أحاديث، ص2 ؛ ابن المغازلي، مناقب علي، ص139 .

(4) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ج2/ص785 ؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج3/ص112.

(5) ينظر: الطبري، تفسير، ج12/ص395 . 398 .

الوحيد للنجاة، وليس هناك خيار آخر وهذا الحديث أعطى معنى أن لا سبيل إلى النجاة إلّا من سلك وسيلة محمد وآل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) وفي هذا المعنى روي "**عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: لَوْ صَلَّيْتُ صَلَاةً لَا أُصَلِّي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ لَرَأَيْتُ أَنَّ صَلَاتِي لَا تَتِمُّ**"[1] وهذه المكانة التي تربط طاعتهم بطاعة الله تعالى من الأولى أن لا تطلق على عموم أسرة النبي وإنّما من خصهم القرآن الكريم بالإيمان وأشار اليهم النبي الأكرم بالحديث .

ومنها ما خصهم الله به في آية التطهير في قوله تعالى " ژ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ژ"[2] ، ذكر السمعاني في من نزلت تلك الآية في قوله "**وَذهب أَبُو سعيد الْخُدْرِيّ وَأم سَلمَة وَجَمَاعَة كَثِيرَة من التَّابِعين مِنْهُم مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيرهمَا أَنّ الْآيَة فِي أهل بَيت النَّبِي، وهم عَليّ وَفَاطِمَة وَالْحسن وَالْحُسَيْن**"[3] وروي عن عائشة أم المؤمنين (رض) مناسبة نزول آية التطهير بعد دخول علي وفاطمة والحسن والحسين تحت كساء كان يرتديه النبي (ﷺ)[4] وبعد نزول الآية استمر النبي (ﷺ) لمدة ستة أشهر واقفاً على باب فاطمة وعلي (عليهما السلام) في طريقه إلى صلاة الفجر وهو يردد آية التطهير[5] وهذا السلوك على الأرجح كان إشارة وتأكيداً على أنّ أهل هذا البيت لا غيره من أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وليس سواهم القادة إلى حمل الرسالة بعد النبي وهم سبل النجاة في الدنيا

(1) أبو يوسف، المعرفة والتاريخ، ج1/ص538 .

(2) سورة الأحزاب، الآية33 .

(3) تفسير، ج4/ص281 .

(4) القاضي عياض، إكمال المعلم، ج435/7 .

(5) يحيى بن سلام، تفسير، ج2/ص717 ؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ج6/ص388 ؛ أحمد بن حنبل، المسند، ج21/ص434 ؛ الكشي، المنتخب، ص367 ؛ الترمذي، السنن، ج5/ص352 ؛ ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، ج5/ص360 ؛ أبو يعلى، المسند، ج7/ ص59 ؛ الطبري، تفسير، ج20/ص263 ؛ الطبراني، المعجم، ج3/ص56 .

والآخرة والغريب من قال إنّ المقصود بأهل البيت هم نساء النبي مع اعتراف اثنين من نساء النبي وهم عائشة وأم سلمة أن المعني في الآية هم علي وفاطمة والحسن والحسين أضف إلى ذلك كلام النبي(ﷺ) وسلوكه لستة أشهر متواصلة ومع ذلك استمر المشككين بإطلاق الشائعات والتفسيرات لأغراض سياسية وطائفية لتظليل الأمة وإبعادها عن سبيل الهداية الذي فيه سلب لشرعية كثير من الحكام والخلفاء الذين وصلوا إلى سدة الحكم وسعوا إلى حرف الحقائق من أجل كسب الشرعية لحكمهم .

وكذلك من الأدلة حديث النبي في النهي عن ترك الصلاة عليهم في قوله (ﷺ)"**لَا تصلوا عَليّ الصَّلَاة البتراء فَقَالُوا وَمَا الصَّلَاة البتراء قَالَ (تَقولُونَ اللَّهُمَّ صل على مُحَمَّد وتمسكون بل قُولُوا اللَّهُمَّ صل على مُحَمَّد وعَلى آل مُحَمَّد)**[1] ، وفي هذا الحديث دلالة على مكانة أهل البيت العبادية وأنّ ملازمة ذكرهم بعد النبي والدعاء لهم من متممات الطاعة لله تعالى ولرسوله الأكرم(ﷺ).

ومن الروايات الأخرى على ذكر آل البيت من قبل الرسول الأكرم (ﷺ) وبيان منزلتهم بعد نزول الآية في مودتهم "**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قل لا أسئلكم عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قَرَابَتُكَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ مَوَدَّتُهُمْ؟ قَالَ: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَوَلَدَاهَا**"[2] ، أي أن أجر رسالة النبي وجهوده في اصلاح الأمة هو المودة لآل البيت، وذكر ذلك في

(1) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ج2/ص430 ؛ القندوزي، ينابيع المودة، ص11 .

(2) ابن أبي حاتم، تفسير، ج10/ص3276؛ الثعلبي، الكشف والبيان، ج8/ص310 ؛ للمزيد ينظر: القاضي النعمان، المناقب والمثالب، ص19.18 ؛ ابن الجوزي، زاد المسير، ج4/ص64 ؛ القرطبي، الجامع، ج16/ص22.21.

القرآن الكريم هو حكم شرعي واجب العمل به، وفي ذلك إشارة إلى أنّ في المودة والولاية السبيل لحفظ الرسالة واستمرار هداية الناس وصلاحهم .

وذكر الطرطوشي مكانة الأئمة وأنّ في طاعتهم النجاة من المعاصي "**طاعة الأئمة حبل الله المتين ودينه القويم، وجنته الواقية وكفايته العالية. إيّاكم والخروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية**"[1]، وتلك العبارات الروحية لا يصح أن تطلق على عنوان مبهم تحت مسمى إمام دون تحديد شخصه والاستدلال عليه من قبل الله تعالى ونبيه الأكرم وهو الذي ينادي يوم القيامة "**يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**"[2].

وبيّن المنصور الفاطمي الحجة على من ادعى أنّ الرسول (ﷺ) مات ولم يوصِ وترك أمر الأمة في تعيين الخليفة من بعده، وخاطب من أسرعوا لتنصيب خليفة للنبي قبل دفن نعشه الشريف[3] في قوله: "**خبرونا لِمَ تركتم الاقتداء برسول الله في ترك الإمام وإسقاط فرضه وحكمه عنكم بزعمكم ؟ فإن قالوا الأمة لا تصلح إلّا بالإمام ولا يقوم الدين ولا يتم الفرض إلّا به، وفي تركه فساد الدين وهلاك الأمة والناس أجمعين وزوال الفرض . قلنا: فإن كان رسول الله (صلع) يعلم من ذلك ما علمتم وتركه متعمداً، أليس هذا صفة الجائر الظالم لأمته؟ وإن كان لا يعلم من ذلك ما علمتم فهذه صفة الجاهل بأمر الله والمقصر في دينه، فأيّكم أحق وأولى بهذه الصفة، أنتم أم رسول الله (صلع)** "[4] وهنا خيّرهم بين صفتين الجائر الظالم

(1) سراج الملوك، ص245 .

(2) ابن المبارك، الزهد والرقائق، ص450 ؛ ابن وهب، تفسير، ج2/ص48 ؛ ابن أبي شيبة، المسند، ج1/ص307 .

(3) سليم بن قيس، كتاب، ص18 ؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ج3/ص205 .

(4) المنصور بالله، تثبيت الإمامة، ص24 .

والجاهل المقصر فإن أقروا بها خرجوا من الإسلام كون النبي(ﷺ) منزّه من تلك الصفات وإن نفوها أقروا بخروجهم عن وصية النبي، ولم يترك لهم سبيل سوى الإقرار في سعيهم لنيل السلطة والحكم .

ورد حديث عن النبي (ﷺ) في استخلاف علي (عليه السلام)السبيل المستقيم للنجاة في قوله: "**عن حذيفة بن اليمان[1] . قال : قالوا يا رسول الله ألا تستخلف عليًّا ؟ قال : « إن تولوا عليًّا تجدوه هاديًا مهديًّا يسلك بكم الطريق المستقيم**"[2] وبالرجوع إلى الروايات التي تؤكد أنّ النبي (ﷺ) قد أوصى بالخلافة والولاية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بشكل صريح في آخر أيام عمره الشريف منها خطبته في مكان غدير خم بعد رجوعه من حجته الأخيرة بعد أن جمع الناس في مفترق طرق ليسمع خطبته أكثر عدد ممكن من المسلمين ووردت القصة في عدة أشكال وأكد ورودها بأكثر من سند واتفقت أغلبها على قول النبي (ﷺ) "**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**"[3] وذكرت بعض المصادر تكملة الحديث "**اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه**"[4] ، وفي ذلك دليل على الحكم وفي من وقف إلى جانبه أو من دخل

---

(1) هو حسيل بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جروة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس أما اليمان عبارة عن لقب، أمه امرأة من الأنصار من الأوس, يكنى أبا عبد الله, مات بالكوفة في أول سنة ست وثلاثين . خليفة بن خياط، الطبقات، ص98 .

(2) الكوفي، مناقب، ج1/ص448؛ الأصبهاني، حلية الأولياء، ج1/ص64 ؛ الإربلي، كشف الغمة، ج1/ص164.

(3) المدني، حديث، ص526 ؛ الشافعي، تفسير، ج3/ص1257 ؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ج6/ص366 ؛ خليفة بن خياط، تاريخ، ص443 ؛ أحمد بن حنبل، المسند، ج2/ص262 ؛ البخاري، تخريج الأحاديث، ص657 ؛ ابن ماجه، السنن، ج1/ص45 ؛ الترمذي، السنن، ج5/ص633 ؛ ابن أبي عاصم، السنة، ج2/ص604 ؛ البزار، المسند، ج10/ص211 ؛ النسائي، السنن الكبرى، ج7/ص307 ؛ الشاشي، المسند، ج1/ص126 .

(4) ابن أبي شيبة، المصنف، ج6/ص368 ؛ أحمد بن حنبل، المسند، ج2/ص262 ؛ ابن ماجه، السنن، ج1/ص43 ؛ ابن أبي عاصم، السنة، ج2/ص566 ؛ البزار، المسند، ج10/ص211 ؛

في العداء أو الحرب ضده ومن المعيب أن يفسر ذلك الوقوف للنبي وحوله آلاف المسلمين في شمس مكة الحارقة أقل من إعلان الخلافة .

روي ما حدث في الساعات الأخيرة لحياة النبي الأكرم (ﷺ) ما عرف برزية الخميس، والتي تم فيها الإحالة بين النبي وتدوينه كتاب فيه تعيين للخليفة من بعده "**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا حُضِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ» . فَقَالَ عُمَرَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ حَسْبُكُمْ كِتَابُ اللَّهِ فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَاخْتَصَمُوا فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَرِّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم. وَمِنْهُم يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ. فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالِاخْتِلَافَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُومُوا عَنِّي»**"[1]، من الحديث تبيّن أنّ الخلاف والصراع على خلافة النبي كان موجودا في حياته بين الأحزاب والتكتلات القبلية، والحائل هو وجود شخص النبي (ﷺ)، لذلك ظهرت بوادر الخلاف بصورة أكثر جدية في محضره وهو يحتضر، وأن الخوف من كتابة وصية بالخلافة تطيح بآمال الراغبين في الوصول إلى السلطة وطموحاتهم على حساب أصحاب الحق الشرعي هي من دفعت القوم لإحداث ضوضاء وخلاف وصل إلى اتهام النبي بفقدان الوعي بسبب المرض لكي لا تكون هنالك قيمة لما يكتب إن أصرّ على ذلك.

---

النسائي، السنن الكبرى، ج7/ص437 ؛ الطحاوي، الشرح، ج5/ص18 ؛ الطبراني، المعجم الكبير، ج4/ص16 ؛ الآجري، الشريعة، ج2049/4 ؛ ابن المقرئ، المعجم، ص36 ؛ المغازلي، المناقب، ص53 .

(1) ابن الخطيب، مشكاة المصابيح، ج3/ص1682 ؛ للمزيد ينظر: ابن الجوزي، ج2/ص315 ؛ العلامة الحلي، نهج الحق، ص333 ؛ ابن تيمية، منهاج السنة، ج8/ص572 .

وفي سياق ذلك أثبت الإسماعيلية بالبراهين الشرعية والعقلية أنّه لا تثبت الإمامة والخلافة باختيار الناس لأن الأمر ليس منوط بهم وإنّما هو فرض من الله تعالى ورسوله الأكرم (ﷺ) ويأتي من خلال النص عليه من قبل النبي (ﷺ) ومن ذلك قول الكرماني(411هـ/1021م): "**لمّا كان نبوءة الأنبياء(ﷺ) التي هي الخلافة عن الله تعالى في أرضه في امضاء الأحكام بين عبيده لا تصح إلّا بنص من الله تعالى واختياره إيّاهم للقيام مقامه في الحكم والأمر والنهي وكانت النبوة أصلاً للإمامة، كانت الإمامة التي هي فرع على النبوة وهي الخلافة عن الرسول والقيام مقامه أولى أن لا يصح إلا باختيار الله تعالى واختيار رسوله والنص عليه**"[1].

وفي حديث صحيح عن النبي (ﷺ) وصف أهل البيت بأنّهم الأمان لأهل الأرض وذلك في قوله: "**النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ، إِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ ذَهَبَ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، فَإِذَا ذَهَبَ أَهْلُ بَيْتِي ذَهَبَ أَهْلُ الْأَرْضِ**"[2] وجاءت في مرويات أخرى توضيح للمعنى أكثر دلالة، منها أنّ في أهل البيت أمان من الاختلاف لأمة النبي (ﷺ) ومن خالفهم كان في حزب إبليس[3].

وروي عن الإمام الصادق(عليه السلام) وهو أحد الأئمة الذي أقرّ الإسماعيلية بإمامته قوله: "**نحن أئمة المسلمين ، وحجج الله على العالمين ، وسادة المؤمنين ، وقادة الغر المحجلين ، وموالي المؤمنين ، ونحن أمان أهل**

(1) الكرماني، المصابيح، ص80 .

(2) احمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ج2/ص671 ؛ عبد الخالق بن أسد، المعجم، ص404 ؛ الطبري، ذخائر العقبى، ص17 .

(3)ابن البيع، المستدرك، ج3/ص162؛ الأصبهاني، أحاديث مسندة، ص4؛ الذهبي، موضوعات، ص18 ؛ السيوطي، جامع الأحاديث، ج22/ص301 .

**الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه ، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث ، وبنا ينشر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها .قال (عليه السلام): ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ، ظاهر مشهور ، أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها ، ولولا ذلك لم يعبد الله . قال سليمان : فقلت للصادق (عليه السلام): فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور ؟ قال: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب"**[1]، وذلك معناه أنّ وجود الإمام من ضروريات الخلق فلا تصح الحياة بدون وجوده سواء كان في مكانه الطبيعي على رأس السلطة الدينية أو السياسية أو كان مخفياً عنها أو مغيباً منها بسبب الصراعات والأخطار التي تجبره أن يكون مستوراً أو غائباً، ومع ذلك يقوم بواجبات الإمامة عدا توليه السلطة السياسية .

وذكر الطرطوشي أنّ في طاعة الأئمة السبيل إلى الهداية "**طاعة الأئمة هدى لمن استضاء بنورها وموئل لمن حافظ عليها**"[2].

ومن الأحاديث التي أكد النبي (صلى الله عليه وآله) فيها على ضرورة أن لا تخلو الأرض من إمام قوله: "**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**"[3] ، وبيّن أئمة أهل البيت أنّ معرفة إمام الزمان من العقائد الواجبة ولابد للمكلف الرجوع للإمام في أمور الدين والدنيا ومعرفة إمام الزمان هي

(1) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص253 ؛ النيسابوري، روضة الواعظين، ص199 ؛ للمزيد ينظر: ابن شهر آشوب ، المناقب، ج4/ص168 ؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج23/ص6 .

(2) سراج الملوك، ص245 .

(3) الرسي، تثبيت الإمامة، ص5 ؛ القاضي النعمان، تأويل الدعائم، ص145 ؛ ابن المنادي، الملاحم، ص262 ؛ مقاتل ابن عطية، أبهى المداد، ج1/ ص133 .

السبيل لمعرفة الله تعالى، أمّا من سلك طريقاً آخر لطاعة الله فهو أقرب للضلال[1].

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله "**أشدّ من يتم اليتيم الّذي انقطع عن أبيه يتم يتيم انقطع عن إمامه ولا يقدر على الوصول إليه ولا يدري كيف حكمه فيما ابتلى به من شرائع دينه**"[2] ، وهنا دلّ الحديث على معنى حاجة الجاهل للعالم وكيف إذا كان ذلك العلم حصرياً لدى إمام العصر أو من ينوب عنه فإذا انقطع المكلف عن ذلك أضاع الشريعة ودخل في الشبهات وقد نتج عن ذلك خسارة الدارين الدنيا والآخرة .

ومن الأحاديث عن النبي (ﷺ) أنّه مرّ على بيت فاطمة وعلي والحسن والحسين (صلوات الله عليهم أجمعين) وقال: "**أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ وَسَلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُم**"[3] وهنا الحديث دلالة عل وجوب طاعة الأئمة في جميع الأحوال وذلك إشارة إلى حكم شرعي ملزم في موالاتهم والبراءة من أعدائهم وذلك حكم الله، ولا سيما أنّ النبي (ﷺ)لا ينطق عن الهوى وجميع أفعاله وأقواله أحكام شرعية، وجميع ما ورد في الأحاديث عن النبي الأكرم (ﷺ) في مكانة الإمام في حياة البشر وفّرت الأساس الشرعي ومكنت الفاطميين من بلورة فلسفتهم في الإمامة.

---

(1) أبو حمزة الثمالي، تفسير، ص80 .

(2) سليم بن قيس، كتاب، ج1/ص257.256 ؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج1/ص7 ؛ العلامة الحلي، تهذيب الوصول، ج1/ص7 ؛ ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي، ج1/ص17.16 .

(3) الطبراني، المعجم الكبير، ج5/ص184 ؛ البغوي، مصابيح السنة، ج4/ص190 ؛ الطبري، ذخائر العقبى، ص25 ؛ المظهري، المفاتيح، ج6/ص325 .

## ثالثاً : فلسفة الإمامة عند الإسماعيلية

أخذ موضوع الإمامة في الفكر الإسماعيلي حيزاً واسعاً في الأوساط الفكرية والفلسفية كونه المحور الذي قامت عليه دولتهم وهو ضرورة الوجود أذ ليس من الممكن أن ينعم الناس بالعيش ومعرفة أحكام الله تعالى من دون وجود مقام الإمامة، وطرح الفيلسوف الكرماني(411هـ/1021م) براهين عدة على وجوبها، منها أنّ النبي الأكرم(ﷺ)قد بعث للناس جميعاً إلى يوم القيامة، وعمره الشريف لا يسع البقاء إلى النهاية، ولا يمكن للناس المتعاقبة إدراك النبي، أو أن يتواجدوا في الحياة دفعة واحدة، إذاً ليس من العدل والأمانة أن يترك الرسول (ﷺ) من أُرسل إليهم ولم يدركوا الرسالة كاملةً وهم بحاجة إلى من يرشدهم ويهديهم، وكيف بالأجيال المتتالية التي لم تشهد وجود النبي(ﷺ) أن تعمل برسالته وهي بحاجة إلى تفسير وتأويل وذلك البرهان الأول لدى الكرماني(411هـ/1021م) إلى وجوب الإمامة [1] .

أما البرهان الثاني إنّ ما أتى به الرسول (ﷺ) من الأحكام والشرائع والسنن والأقوال قابل للزيادة والنقصان وممكن التغيير وأن تصل إليه أيدي الظلمة والعابثين ، إذاً لابد من حافظ منزه من قبل الله وقال الكرماني(411هـ/1021م) في ذلك "**وجب عن طريق الحكمة أن يكون بها موكلاً من يحفظها على وجهها، ويمنع من الزيادة والنقصان، والتغيير منها، ويجري بالإمامة على سننها فتكون أوامر الله طرية وكلمته عالية، وشأفة الشر مستأصله والموكل هو الإمام المختار من جهة الله تعالى**"[2].

(1) المصابيح، ص 63 .

(2) المصابيح، ص64 .

واستمر الكرماني(411هـ/1021م) في ذكر البراهين على وجوب وجود الإمام إلى البرهان الرابع عشر[1] الذي استدل فيه أنّ الإمامة هي آخر الفرائض التي بها أكمل النبي الأكرم شريعته مستدلاً بالآية الكريمة "**ژ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ژ**"[2] وتناول الكرماني(411هـ/1021م) موضوع وجوب وجود النبي المرسل والإمام الهادي لقصور عقول البشر عن فهم وإدراك التوحيد والمصالح الذاتية دون وجود المعلم والمرشد إلى الله تعالى وذلك من دواعي الحكمة الإلهية للوصول إلى كمال الإنسان والفهم الصحيح للشريعة الدينية وذلك في قوله: " **وإذا وجبت في الحكمة إقامة من يقوم بالتعليم مقامة من جهته كان ضروريًّا وجود من يكون في عالم النفس نبيًّا معلماً مؤيداً ، واماماً مفضّلاً مقدّماً ، فيعلم الكافة مصالحها ويهديها ويقيها ممّا يوبقها ويؤذيها ويسد فاقتها ويختم بالحسنى عاقبتها**"[3] .

وكان الطرطوشي قريباً من ذلك المعنى في ضرورة وجود السلطان في الأرض في قوله: "**اعلموا أرشدكم الله أنّ في وجود السلطان في الأرض حكمة لله تعالى عظيمة ونعمة على العباد جزيلة ... ولهذا قال بعض القدماء: لو رفع السلطان من الأرض ما كان لله في أهل الأرض من حاجة**"[4].

ووصف النيسابوري(410هـ/1019م) الإمام بالعقل الكلي الذي تهتدي به جميع القوى في العالم وتدور في فلكه وأنّ الرئاسة وجدت في الطبيعة بالفطرة وهناك تفاوت بين البشر في ميزات عديدة؛ لذلك لا بدّ أن

(1) للمزيد ينظر: الكرماني، المصابيح، ص63 . 73 .
(2) سورة المائدة، الآية 3 .
(3) الأقوال الذهبية، ص51 .
(4) سراج الملوك، ص198 .

يتقدم أفضلهم قوةً وشرفاً وحكمة[1] ، ومن هنا قال: "**إنّ الرئاسة والسياسة، واجبة في الطبع والخلقة ، والجبلة والفطرة ، ضرورية بالذات ، عليها ترتكز أمور الحياة ، وهي عماد الدنيا والدين ، لها حق القيادة ومنها الإفادة ، ومن استطاع أن ينكر الشرع والدين ، لا يمكنه أن ينكر السائس والرئيس ، الذي يدير العالم في العقل ، لا في العيان ، وقوة الحجة والبيان، وبما أنّ وجوده واجب ضروري ، فواجب إذاً أن يكون أفضل جميع المخلوقات ، والموجودات والمبدعات الروحانية والجسمانية ، وأشرفهم وأتمهم وأكملهم ، وأعلمهم وأذكاهم ، بدليل ما ذكرناه من الخلقة والطبائع، على أنّ أفضلهم وأعلمهم وأجدرهم هو الإمام المقدم على كل شيء ، الرئيس والرأس**[2]".

وبيّن النيسابوري(410هـ/1019م) أنّ الفلاسفة وضعوا ثلاثة أقسام للسياسة وهي الخاصة والحامة والعامة وأخذ يفسر تلك السياسات، بدءاً كيف يسيس الرجل نفسه ويبعدها عن جميع الرذائل والأخلاق السيئة ويكافئها على الأخلاق الفاضلة ومن ثم سياسة عائلته وأهل بيته وكذلك استمرار مبدأ الثواب والعقاب من أجل الحفاظ على المثل العليا والأخلاق المحمودة وغرسها فيهم ومغادرة الصفات السيئة والعقاب عليها لضمان عدم تكرارها وبيان أنّها غير مقبولة وتحط من قيمة الإنسان ، وختم في سياسة العامة التي يكون فيها صلاح العباد والبلاد ويعمل فيها السائس على حفظ الدين والدنيا من خلال إقامة العدل واحقاق الحق وحفظ صلاح المعاش ووضع الحدود التي تنظم الحياة ويثاب المحسن ويعاقب المسيء وتلك السياسات والصفات لا يمكن أن تجتمع إلّا في شخص الإمام الذي يملك صفات لا توجد في غيره كونه مخصوصاً بها من الخالق أمّا السلاطين والملوك

(1) اثبات الإمامة، ص53 .

(2) اثبات الإمامة، ص54 .

العابثين بأرواح الناس وأموالهم بقصد أم بغيره بفعل سوء تدبيرهم وأخذ مكان غيرهم ليسوا بساسة[1].

وبين الطرطوشي المفاضلة بين السلطان الصالح وبين السلطان الفاسد في قوله "**على كل رعية أن ترغب إلى الله تعالى في إصلاح السلطان، وأن تبذل له نصحها وتخصه بصالح دعائها، فإنّ في صلاحه صلاح العباد والبلاد، وفي فساده فساد العباد والبلاد**"[2].

أمّا المنصور بالله الفاطمي(334-341/945-952م) وضّح أحقية الإمامة بطريقة حوارية ووضع استفهامات عدة لمخاطبة العقول، ابتدأ بطرح سؤال هل تنصيب الإمام فرض من الله تعالى أم سنة سارت عليها الناس؟[3] ، فان كان فرضاً وجب علينا طاعته ، وكيف يمكن للعامة الطاعة بالمطلق إلى مجهول لا يعرف شخصه وقال في ذلك "**كيف يجوز على الله تعالى أن يسترعي راعياً يوجب طاعته على خلقه جميعاً ، ولا يعلمه بذلك ولا يرشده إليه ولا يعلم بذلك رعيته ، وهو مع ذلك قد افترض عليه القيام بأمرهم وافترض عليهم السمع والطاعة له والقبول لخبره**"[4].

وان كانت سنة سارت عليها البشر في ضرورة تنصيب إمام يسيس معايشهم كيف لهم أن أطلقوا عليه خليفة رسول الله (ﷺ) وحملوه أمور دينهم وهو خاضع للنقص والخطأ وممكن له أن يغير ويبدل في أحكام الله[5] واستدل في ذلك في قول الخليفة أبي بكر (رض) "**وَإِنَّ لِي شَيْطَانًا**

(1) اثبات الإمامة، ص54 . 56 .
(2) سراج الملوك، ص200 .
(3) تثبيت الإمامة، ص5 .
(4) تثبيت الإمامة، ص6 .
(5) تثبيت الإمامة، ص5 . 6 .

**يَعْتَرِينِي، فَإِذَا غَضِبْتُ فَاجْتَنِبُونِي، لَا أُوثِرُ فِي أَشْعَارِكُمْ، وَلَا أَبْشَارِكُمْ أَلَا فَرَاعُونِي، فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي"**[1] .

وكذلك أشار المنصور بالله (334-341/945-952م)إلى ادراك عمر بن الخطاب(رض) بعد حين إلى خطأ اختيار أبي بكر الصديق كخليفة للرسول(ﷺ) في قوله "**كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقى الله المسلمين شرّها**"[2] ، وبيّن المنصور أنّ عدم التسليم إلى النص في الإمامة من قبل الله والرسول (ﷺ) ، قاد إلى اضطراب المسلمين واختلافهم في الفرائض والأحكام والحلال والحرام ممّا دفعهم إلى البحث عن حلول فعملوا بالقياس والرأي والاستحسان اضطراراً منهم[3] .

وبيّن الطرطوشي عدم أهلية السلطان للحكم من دون علم ثاقب لجسامة المهمة التي يضطلع بها لكونه يتكلف بالفصل في حقوق الناس وأموالهم ودماءهم "**إنّه قد نصّب نفسه لممارسة أخلاق الناس وفصل خصوماتهم وتعاطي حكوماتهم، وكل ذلك يحتاج إلى علم بارع وفكر ثاقب، وبصيرة بالعلم قوية ودراسة طويلة، فكيف يكون حاله لو لم يعد لهذه الأمور عدتها ولم يقدم إليها أهبتها**"[4] بينما أتى علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: "**علّمني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ألف باب من**

(1) معمر بن راشد، الجامع، ج11 /ص336 ؛ الصنعاني، المصنف، ج10/ص357 ؛

(2) تثبيت الإمامة، ص5 ؛ للمزيد ينظر: البخاري، الصحيح، ج8/ص168 ؛ ابن حبان، الثقات، ج2/ص156 ؛ ابن عبد البر، الاستذكار، ج7/ص258 .

(3) تثبيت الإمامة، ص4 .

(4) سراج الملوك، ص263 . 264 .

**العلم، كل باب منها يفتح الف باب"**[1]، وبذلك لا حاجة للمستبصر إلى دليل لمعرفة الحق على وجوب طاعة وموالاة من كان أكثر علماً وأقرب إلى الله طاعةً لأنّه سبيل المسترشدين وسفينة النجاة في الدنيا والآخرة ومن ذلك عندما سئل الحسن البصري عن المفاضلة بين علي ومعاوية "**أيّ الرجلين أفضل: علي ومعاوية؟ فقال: هيهات! لم يشارك معاوية علياً في سوابقه، وشاركه في أحداثه**[2] ، ويفهم من كلامه عدم وجود وجه مقارنة بين خلافة علي (عليه السلام) ومعاوية .

وبيّن القاضي النعمان(363هـ/973م) أنّ مكانة الأئمة (صلوات الله عليهم) أجلّ من أن تدرك بعلم أو بعقل لأنّ مكانتهم وصفاتهم من عند الله تعالى وأنّهم فوق الخلق وأعطاهم الله ذلك ليكونوا على قدر ما أوكل لهم من مهمة حفظ الدين والديمومة في نشر رسالة النبي الأكرم ومواجهة التيارات المنحرفة وإظهار الدين الحق[3] ، وأثنى على من عرف حقهم بقوله: "**وإذا كان من عرف حقهم واعتقد إمامتهم رعى من واجبهم وامتثل من أمرهم ما يرى أنّه فرض من الله عزّ وجلّ عليه واجب وحق لازم كانت جلالتهم في صدره أعظم ، وهيبتهم في عينه أكبر من هيبة ملوك الدنيا وجلالتهم في صدور أتباعهم وأعينهم**[4] . وبيّن النعمان أنّ الله تعالى قرن طاعته بطاعتهم وسخطه بسخطهم وفرض الرجوع اليهم فيما شجر بين المسلمين وأنّهم ورثة النبي فيما أعطاه الله له وقال في ذلك: "**فعلى هذا الوزن**

(1)القاضي النعمان، شرح الأخبار، ج2/ص308؛ للمزيد ينظر: النعماني، اللباب، ج5/ص164؛ النيسابوري، غرائب القرآن، ج2/ص144 .

(2) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج26/ص148 .

(3) آداب اتباع الأئمة، ص15 .

(4) آداب اتباع الأئمة، ص20 .

**والترتيب يلزم في الفرض الموجب من التعزيز والتوقير والطاعة والتسليم بالنية والقول والعمل والقبول لكل إمام على أهل عصره ما كان يجب منه لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله على أهل زمانه ودهره ، وإن كانت درجة النبوة أعلى وأجل وفوق درجة الإمامة"[1].**

واستدل القاضي النعمان(363هـ/973م) بقول الله تعالى " ﴿ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ﴾"[2] وتلك الآية تعني شفاعة النبي (ﷺ) للمذنبين كونه باباً من أبواب رحمة الله وإنّ تلك المغفرة لا تكون إلّا من قبل أولياء الله الذين قرن طاعته بهم وهم الرسول الأكرم (ﷺ) وآل بيته الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين)[3].

وكذلك استدل الكرماني(411هـ/1021م) بتلك الآية على أنّ وجود إمام في كل عصر من دواعي العدل الإلهي والفضل والرحمة التي لا يخص بها بشر دون غيرهم بالعصور المتتالية إلى يوم القيامة وقال في ذلك "**إنّه لمّا كان مقدوراً أن لا يبقى النبي (ﷺ) بين عباده فيستغفر الله لهم إذا أذنبوا ويهديهم إلى الحق إذا ضلوا ، ويوصلهم إلى ما تعجز أنفسهم بذواتها عن الوصول اليه في عبادة الله وتوحيده ، حفظ الله تعالى بعدله مكانهُ بالأئمة الهادين**"[4] ، ومن ذلك نفهم بما أن آيات القرآن الكريم نزلت للناس جميعاً إلى يوم القيامة، إذاً من للمستغفرين بعد غياب النبي(ﷺ),

(1) آداب اتباع الأئمة، ص22 . 23 .

(2) سورة النساء ، الآية 64.

(3) آداب اتباع الأئمة، ص45 . 46 .

(4) رسائل، ص135 .

ومن يشغل مقام الرسول (ﷺ) في الاستغفار للمذنبين الذي شرطه الله تعالى ليتم توبتهم والرحمة لهم؟ .

وبيّن النعمان أنّ النبي (ﷺ) وآل البيت هم وليس غيرهم أهل الوحي وترجمان القرآن " **لا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب غير محمد رسول الله (ﷺ) جدهم, ولا أن يأتي بباطنه غير الأئمة من ذريته وهو علم متوافر بينهم مستودع فيهم , يخاطبون كل قوم منه بمقدار ما يفهمون , ويعطون كل أهل أحد منه ما يستحقون, ويمنعون منه من يجب منعه ويدفعون عنه من استحق دفعه**"[1] .

وأعطى الطرطوشي صورة لحجج الله في أرضه ولكنه لم يستطع أن يحدد عنواناً لهؤلاء وأبقى التكهنات مشرعة مع وضع ملامحهم وصفاتهم ودرجات قربهم من الله تعالى وكان ذلك في قوله: "**ولكن لن تخلو الأرض من قائم لله سبحانه بحجة لئلا تبطل حجج الله وبيناته، ومن أولئك، وأين أولئك، أولئك الأقلون عدداً الأكثرون عند الله قدراً، تخزن الحكمة في قلوبهم حتى يزرعوها في قلوب أشباههم، ويودعوها في صدور نظرائهم. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين ... أولئك خلفاء الله في بلاده ودعاته إلى دينه**"[2].

لذلك بين القاضي النعمان(363هـ/973م) أنّ حق الإمامة هو فرض من الله تعالى لا يصح لغيرهم وقال في ذلك "**والإمامة أمر من أوامر الله عزّ وجلّ وفرض من فروضه لا تستحق بتسليم من سلمها ، ولا بتغلب من تغلب عليها ، ولا بإعراض من تركها أو أعرض عنها ، لأنّها شعبة**

(1)أساس التأويل , ص 31 – 32 .

(2) سراج الملوك، ص271 .

**من شعب النبوة قد أمر الله بطاعة أوليائه كما أمر بطاعة أنبيائه ، فكما أنّ النبوة لا تغتصب ولا تسلب ولا تسلم ولا تفوض فكذلك الإمامة"**[1]، وفي ذلك دلالة على أنّ النبوة والإمامة هما شرطان يكمل أحدهما الآخر وأنّ بيان شخوصهما وتحديد مهماتهما منوط بالخالق، أمّا كيف ومتى فهو يأتي بتدبير من الله تعالى، وهو أمر يفوق قدرات الناس واختيارهم .

وجاء أحد أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلي المؤيد الشيرازي (470هـ/1087م) ليبيّن فلسفة الاعتقاد بالولاية من خلال تفسيره للآية القرآنية في قوله تعالى: " ژ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڑ"[2]، أوضح الشيرازي (470هـ/1087م) أنّ هناك اتفاقاً بين الفرق الإسلامية بأنّ النبي الأكرم (ﷺ) لم يتوقف عن تبليغ الرسالة طيلة مدة حياته التي قضاها بين المسلمين وما تردد في تبليغ الأحكام من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد في سبيل الله الذي هو أقصى غاية الجود بالنفس ، فما هو ذلك التبليغ الذي كان بحجم الرسالة وعدم إتمام الأمر وكان في نقصانه نفي لرسالة النبي محمد (ﷺ)؟ [3]

وذهب الشيرازي(470هـ/1087م) إلى ترجيح الأمر بالولاية للأئمة والتسمية بالخلافة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، إذ إنّ ذلك الأمر أثار الحسّاد وأذكى الأحقاد[4]، وعليه تنافس المتنافسون، وكانت بوادر ذلك ظاهرة للعيان في حياة الرسول (ﷺ)؛ لذا كانت دواعي التأني في الإعلان، واستوجب أمراً من الله تعالى في التبليغ، ووعداً للعصمة من الناس، وأنزل الله ذلك الأمر إلى منزلة القبول والرفض لبقية الأعمال

(1) المناقب والمثالب، ص259 .

(2) سورة المائدة، الآية 67 .

(3) المجالس، ص33 .

(4) المجالس، ص33 . 34 .

العبادية، لذلك استنتج الشيرازي(470هـ/1087م) في قوله: "**إذا ولاية الرسول (ﷺ) كالمركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض فلا يصح وجودها إلّا بوجوده ، ولا تثبت صحتها إلّا بصحته**"[1] أي أنّ شرط قبول أعمال الفرد من العبادات لا تتم إلّا بقبول فرض الولاية التي بها تكتمل شروط المعرفة بالرسالة المحمدية نظرياً وإيمانياً، كما كان شرط تبليغ الرسالة بإتمام أمر الولاية، لذلك فإنّ النبي (ﷺ) أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال "**فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**"[2]

وبيّن الفيلسوف الإسماعيلي طاهر بن إبراهيم اليماني (584هـ/1188م) أنّ ما اجتمع للنبي إبراهيم (عليه السلام) من النبوة والرسالة والإمامة والوصاية قد انتقلت في صلب عبد المطلب جدّ النبي محمد (ﷺ) ومن ثم توزعت في صلب أبنائه كل من عبدالله الذي نال منها النبوة والرسالة التي شرّف بها محمد (ﷺ) مقاماً إلهياً وأبي طالب الذي كرمّه بالإمامة والوصاية لينالها ولده علي بن أبي طالب [3] (عليه السلام) ، وتستمر الإمامة في التوارث بين أبنائه بالانتقال من الآباء إلى الأبناء وقال في ذلك: "**واستخراج كل إمام من دعوة أبيه ، لأنّ كل إمام يقيم دعوته يعمل فيها إلى أن يوجد من دعوته من يخلفه في مقامه على هذا المنحى أبداً سرمداً في دور الكشف ودور الستر**"[4] .

---

(1) المجالس، ص34 .

(2) إسماعيل بن جعفر، حديث، ص524 ؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ج6/ص368 ؛ أحمد بن حنبل، المسند، ج30/ص430 ؛ النسائي، السنن الكبرى، ج7/ص439 .

(3) الأنوار اللطيفية، ص124 .

(4) الأنوار اللطيفية، ص121 .

وذكر بأنّ مقام علي بن أبي طالب هو مقام كلي لا يدركه غيره من الأئمة ومقامات الأئمة أجزاء من كل، لذلك ظهرت على يديه المعجزات وسخرت له الطبيعة واتصل به العقل العاشر كلياً لذلك قال: "**أنا بكل شيء عليم**"[1]ووصل به الأمر أن وصف بالألوهية من قبل بعض الفرق ، وبرهن اليماني على تلك المنزلة من قول النبي محمد (ﷺ)"**الحسن والحسين اماما حقٍ قاما أو قعدا وأبوهما خير منهما**"[2].

وكانت زوجه فاطمة (عليها السلام) الهيكل النوراني بأمر الله تعالى ليكتمل النظام الإلهي للإمامة واستمر دور الأئمة بين دعوة ظاهرة وأخرى باطنة حسب ظروف المرحلة حاملين إرث النبوة وشريعة النبي الأكرم محمد(ﷺ)[3] .

ووصف الداعي علي بن الوليد(612هـ/1215م) كل إمام بالشخص الكامل الفاضل الذي تتجسد فيه فلسفة الخلقة، من لا تكون الرئاسة إلّا له، وهو السبيل إلى نيل رضى الله تعالى وقال في ذلك: "**وجب أن يكون الأنبياء والأوصياء والأئمة غاية ما في عالم الإنسان؛ لأنّ كل واحد منهم هو الطريق إلى الملائكة الكرام عليهم السلام ، وكان هذا الشخص والكريم زبدة الطبيعة بأسرها، الحائز لشرف الرياسة وفخرها وهذا التدبير كله تدبير العقول البرية بأسرائها للعناية الآلهية حتى أظهرت الرئيس رئيساً والخسيس خسيساً**"[4].

(1) الأنوار اللطيفية، ص125 .
(2) الأنوار اللطيفية، ص125 .
(3) اليماني، الأنوار اللطيفية، ص128 . 129.
(4) الذخيرة في الحقيقة، ص61 .

ووصف فاطمة (عليها السلام) بزبدة الإسلام التي كان بزواجها من علي (عليه السلام) التقاء الإسلام بالإيمان ونتج من تلك الأنوار امامان هما الحسن والحسين (عليهما السلام) اللذان حملا أمانة الرسالة وورثا من جدهما وأبيهما حدود الدين الظاهرة مقاماً للحسن (عليه السلام) والباطنة للحسين (عليه السلام)ثم لأبنائهم إمام تلو الآخر إلى أن تجمع تلك الحدود للقائم من آل محمد (عليهم السلام) [1] .

وما بيناه ليس كل ما ورد لدى الفلاسفة الإسماعيلية في موضوع الإمامة وإنما اقتصرنا على أهم معالم فلسفتهم لمقام الإمامة ولم نخوض في تفاصيل الاعتقاد وفروعه . ولا سيما أنّ ذلك يربك أذهان القراء ويبعدنا عن فكرة الدراسة في بيان أنّ أصل فلسفة الإمامة كان سائداً في عصر الفاطميين وكانت الضبابية في فهم النصوص والاستدلال بها وانعكاسات الصراعات المذهبية والسياسية قد شوهت المعنى وأخرجته عن محتواه .

(1) الذخيرة في الحقيقة، ص113. 114 .

## المبحث الثاني

## مقومات الحاكم العادل وصفات الإمام عند الطرطوشي

### أولا : العلم عند الإمام

بين الطرطوشي أنّ حاجة السلطان للعلم ضرورة من ضروريات الحكم ، وذلك في قوله: "**والخلق مستمدون من السلطان الخلائق السنية والطرائق العلية، مفتقرون إليه في الأحكام وقطع التشاجر وفصل الخصام، فهو أحوج خلق الله إلى معرفة العلوم وجمع الحكم، وشخص بلا علم كبلد بلا أهل ، وكشجرة بلا نبات**"[1] .

وفي ضوء ذلك اعتقد الإسماعيلية أنّ الرافد الأول للعلم بعد النبي (ﷺ) هم الأئمة كونهم ركناً أساسياً في نظام خلق البشر وفي اتباع إرشاداتهم السعادة في الدارين الدنيا والآخرة ، وعدا ذلك خلل في الطبيعة وخروج عن حكمة الوجود وكان ذلك في قولهم: "**وجب تعلم العلم وأخذ الدين عن الأئمة، ففيهم يقوم الدين وتتم أموره ، ولو لم تظهر فضيلة البشر بالدين ، لما ظهرت فضيلة النبات ، ولما كان في خلقة الإنسان والنبات والحيوان حكمة ، ولو بطلت الحكمة في خلقهم ، لبطلت الحكمة في وجود العوالم كلها**"[2] .

وأشار القاضي النعمان(363هـ/973م) إلى أنّ العلم مستودع في النبي (ﷺ) والأئمة من آل البيت ، يستخرجون منه ما يستوعبه العامة ويخفون ما لا يطيقه الناس أو لم يحن وقته بعد وهم ترجمان القرآن وذلك في قوله: "**لا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب غير محمد رسول الله**

(1) سراج الملوك، ص262 .

(2) النيسابوري، اثبات الإمامة، ص41 .

**(ﷺ) جدهم, ولا أن يأتي بباطنه غير الأئمة من ذريته وهو علم متوافر بينهم مستودع فيهم , يخاطبون كل قوم منه بمقدار ما يفهمون , ويعطون كل أهل أحد منه ما يستحقون, ويمنعون منه من يجب منعه ويدفعون عنه من استحق دفعه"**[1] .

وكان اهتمام الأئمة في الجوانب العلمية والمعرفية ما أقر به القاضي والداني ومنهم الإمام الصادق (عليه السلام)الذي قال الشهرستاني(548هـ/1153م) فيه: "**هو ذو علم غزير في الدين , وأدب كامل في الحكمة , وزهد بالغ في الدنيا , وورع تام عن الشهوات .وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ثم دخل العراق وأقام بها مدة , ما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحداً في الخلافة قط ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط"**[2] . وذلك يعني أنّ جلّ حياة الإمام قضاها في نشر العلم الذي ملك أسراره ولم يبخل في نشره في الأرجاء وكان لديه أكثر من أربعة آلاف طالب ينهلون من علمه في مختلف البلدان الإسلامية وتركز أغلبهم في مدرستي الكوفة والمدينة[3].

إنّ مقام الأئمة من العلم لا يقارن به أحد سواهم وذلك ما اعتقده الإسماعيلية من خلال داعيهم القاضي النعمان(363هـ/973م) الذي وصف الأئمة بقوله: "**الأئمة صلوات الله عليهم فوق الخلق بما لا يدرك به علماً , والذي يجب لهم أعظم وأجل من أن يدرك بعلم وعقل"**[4] وفي ذلك إشارة إلى أنّ العلم الذي حمله الأئمة سلام الله عليهم هو مستودع فيهم وهو من نعم الله على الخلق إذ وضعه في خير خلقه لكي لا يحجب نور

(1) أساس التأويل , ص 31 – 32 .
(2) الملل والنحل , ج 1 / ص 166 .
(3) الشيخ الأنصاري، المكاسب، ج1/ص12 .
(4) أداب إتباع الأئمة , ص 15 .

العلم عن الناس جميعاً ومن الأدلة على ذلك ما روي عن جابر بن عبدالله في قوله: "**إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا جابر ، إنّك ستعمّر بعدي حتى يولد لي مولود اسمه كاسمي يبقر العلم بقراً فإذا لقيته فأقرئه منّي السلام**"[1] ، وتحقق ما أخبر به النبي الأكرم (ﷺ) بأنّ جابر الأنصاري عمّر حتى فقد بصره وهو ينادي باسم الإمام إلى أنّ لقي محمد الباقر(عليه السلام) وهو صبي وأوصل له الأمانة من جده رسول الله وتوفي بعدها[2]، وفي ذلك إشارة إلى أنّ علم الأئمة مكتسب وأنّ أسماءهم ودورهم معرف من قبل الله تعالى ورسوله الهادي محمد(ﷺ).

ومنهم الداعي إدريس(872هـ/1467م) ، إذ قام بتمجيد محمد بن إسماعيل بقولهُ :"**فقام محمد (ﷺ) باللسان وصمت عنه السيف إلى بلوغ الكتاب أجله, فأظهر العلوم , وبيّن الحقائق, وكشف لخلصائه منها السر المكتوم, فظهرت منه حقائق ومعجزات. ودلائل وآيات, لم تظهر في الأئمة من قبلة ولا قام أحد من الأتماء , السابع[3] صاحب القوة والظهور, والضياء والنور ومبين العلم المستور**"[4].

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ج1/ص312 .

(2) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ج1/ص312.

(3) بعد وفاة الإمام جعفر الصادق(ع) اختلف أتباعه في مسألة الإمامة، فذهب فريق إلى أن الإمامة انتقلت إلى ابنه إسماعيل ومنه إلى محمد بن إسماعيل بعد وفاته، وقد عرفت هذه الجماعة باسم السبعية لاعتقادهم أن محمد بن اسماعيل هو الإمام السابع وخاتم دور الأئمة الظاهرين، وتوقفت هذه الفرقة عند امامته، ورأت أن أدوار الإمامة قد انتهت إليه باعتباره السابع من نسل النبي محمد ﷺ في سلسلة الأئمة، وان عدد الأئمة محصور في سبعة اشخاص تنتهي بهم دورة الإمامة، وتبدأ مرحلة القيامة، وبناءً على ذلك اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو الإمام القائم المهدي وأنه خاتم الأئمة في هذه الدورة . القمي، المقالات والفرق، ص83 ؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج1/ص192 ؛ الداعي ادريس، زهر المعاني، ص205 .

(4) زهر المعاني , ص 205 .

وأشار الطرطوشي نقلا عن ابن المقفع ان الكرامة ليست في امتلاك الأموال أو في السلطان كونها زائلة بزوالهما وإنما الكرامة والفخر في امتلاك العلم والأدب والدين كونها مستقرة في جوهر الانسان لا تفارقه سواء كان حاكماً أم من عامة الناس[1]، لذلك نجد ان مراتب الأئمة (سلام الله عليهم) ومكانتهم الدينية والعلمية والأخلاقية لم تتغير عند محبيهم و لدى مبغضيهم بمرور السنين سواء كانت بيدهم السلطة كما في حكومة علي بن أبي طالب (ﷺ)أم كانوا مستبعدين عنها .

واستدل الكرماني(411هـ/1021م) على فقر الناس لإدراك العلوم بقول الله تعالى: "**﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾**"[2]، وبذلك كان من حكمة الله تعالى أن يهديهم إليه من خلال معلم وهادٍ بمنزلة نبي أو إمام كونه يمثل السبيل إلى الله تعالى لاستحالة الصلة بين الناس والخالق بدون تلك الواسطة وكان ذلك في قوله: "**وكان حكيماً وامتنع وصولهم إليه ، كما امتنع شخصه لهم ليتولى هوايتهم بنفسه وجب عليه تعليمهم مضارهم ومنافعهم في عاجلهم وآجلهم باصطفاء من يجعله إماماً لهم فيؤيده ، ليعلمهم ما يحتاجون إليه**"[3].

لذلك ذكر الطرطوشي أنّه لا غنى لجميع مفاصل الدولة عن العلم والعلماء سواء حمله السلطان أو بقية رجاله أومن خلال تقريب أهل العلم وجعلهم مستشارين أو مقربين لأنّ فيه سياسة الحكم وبقائه "**فإنّ العلم عصمة الملوك والأمراء، ومعقل السلاطين والوزراء لأنّه يمنعهم من**

(1) الطرطوشي، سراج الملوك، ص262 .

(2) سورة النحل، الآية 78 .

(3) الأقوال الذهبية، ص33 .

**الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية. فمن حقهم أن يعرفوا حقه، ويكرموا حملته، ويستبطنوا أهله"**[1].

وبيّن أبو حامد الغزالي(505هـ/1111م) أنّ أحد ألقاب الإسماعيلية هي التعليمية الذي جاء من اعتقادهم بإبطال الرأي لتعدد الآراء والاختلاف فيها وأخذ العلوم من الإمام من خلال التعليم وذلك في قوله: "**وَهَذَا اللقب هُوَ الأليق بباطنية هَذَا الْعَصْر فان تعويلهم الاكثر على الدعْوَة إلى التَّعْلِيم وابطال الرَّأْي وإيجاب اتِّبَاع الإمام الْمَعْصُوم وتنزيله فِي وجوب التَّصْدِيق والاقتداء بِهِ منزلَة رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم"**[2].

وذلك المعنى أكده الطرطوشي من خلال نقله عن علي بن أبي طالب(عليه السلام)في حوار له مع كميل بن زياد في بيانه لدرجات العلم بين عالم ومتلقٍ للعلم وهو سبيل النجاة الوحيد وطريق آخر يقود إلى فقدان التركيز والتخبط في الآراء ممّا ينتج عنه تغير في المواقف والسلوك لعدم الاستدلال بنور العلم وذلك في قوله: "**الناس ثلاثة: فعالم ربانّي، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا منه إلى ركن وثيق"**[3] .

وأحد هؤلاء المتعلمين من فيض نور الأئمة داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي والذي كان أحد ألقابه عمدة الإمامة وأصبح داعي الدعاة في زمان المستنصر بالله (487هـ/1094م)، قال فيه أبو العلاء المعري في أثناء مناظرته له: "**سيدنا الرئيس الأجل ، المؤيد في الدين ، لا زالت حجته باهرة ، ودولته عالية ... ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه ، أو**

(1) سراج الملوك، ص12 .

(2) فضائح الباطنية، ص17 .

(3) سراج الملوك، ص269 . 270 .

**أفلاطون لنبذ حججه خلفه ، والله يجمل بحياته الشريعة ، وينصر بحججه الملة ، وحسبي الله ونعم الوكيل"**[1].

كذلك إنّ الإمام أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل[2] هو من أتم رسائل إخوان الصفا [3] ، الذين عبر عن نشاطهم في القرن الرابع الهجري المفكر علي فريدوني بقوله: "**لا شك وأن اخوان الصفا شكلوا معلماً بارزاً في معالم النهضة الفكرية والسياسية في القرن الرابع الهجري ، وكان لهم أكبر الأثر في التقريب بين حكمة اليونان وتعاليم الدين الإسلامي ، حيث خطوا خطوات هامة وريادية في هذا المجال"**[4] ، وكان الإمام أحمد بن عبدالله قد ألف مختصر الرسائل في كتاب الرسالة الجامعة وكانت تلك الرسائل قد صدرت لمجابهة البدع الفلسفية التي راجت في العصر العباسي زمن المأمون والتي كان لها أثر في العقيدة والفكر الإسلامي[5] ممّا كان

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج3/ص202 .

(2) الإمام أحمد ابن عبد الله الرضي بن محمد بن إسماعيل المعروف بالنقي، ثاني أئمة دور الستر عند الإسماعيلية، تولى قيادة الدعوة في مرحلة اتسمت بالسرية والتنظيم الدقيق بسبب الظروف السياسية التي أحاطت بالحركة الإسماعيلية في ذلك الوقت، وقد اتخذ من مدينة سلمية في بلاد الشام مقراً له وكانت مركزاً رئيساً للدعوة وداراً للهجرة لأتباعها ودعاتها، عاصر الخليفة العباسي المأمون وأسهم في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية التي شهدها عصره مستفيداً من المناخ الثقافي الذي اتسم به ذلك العهد، توفي سنة 265هـ/ 878م تقريباً . الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الرابع، ص525 .

(3) ابن الوليد ، الرسالة الوحيدة ، ورقة 30 ؛ علي بن حنظلة ، سمط الحقائق ، ص45؛ عارف تامر ، تاريخ الإسماعيلية ، ص132 .

(4) آفاق الفكر السياسي، ص17 . 18 .

(5) الكناني، الحيدة والاعتذار، ص3 .

يستدعي من العلماء والمفكرين موقفاً للحفاظ على الشريعة الإسلامية الصحيحة[1] .

وناقش في تلك الرسالة حقيقة الوجود ومكانة النفس من العقل والطبيعة وكيف أنّ تلك النفس تتأرجح بين البقاء إذا سلكت طريق العقل وبين الفناء إذا تأثرت في شهوات الطبيعة وكان ذلك في قوله: "**إذ كانت معالي الأمور ، ورفيع الدرجات ، وأعظم المنازل بالعقل أشبه ، والرذائل والنقص عن الفضائل بالطبيعة أشبه ، وأنّ النفس مجتهدة دائماً في طلب البقاء ، والبقاء ليس من صفات الطبيعة ، وهو من صفات العقل فبهذا الاجتهاد وبهذا الشوق إذا وصلت إلى مرادها تخلت عن الطبيعة ، فإذا تخلت عن الطبيعة بطلت الطبيعة . ولمّا كان العقل الكلي يختص بالبقاء صار يدعو النفس ويجذبها إليه ، ويحول بينها وبين الشهوات لتحوز البقاء مثله ، ولما كانت الطبيعة تختص بالفناء والاضمحلال صارت تجذب النفس إليها وتحول بينها وبين معالي الأمور مخافة أن تبطل وتضمحل إذا فارقتها وزالت عنها**"[2].

وبذلك دعوة إلى سلوك طريق العلم والعقل كونه السبيل الوحيد للبقاء وتحصيل أعظم المنازل وبيّن أقسام العلم إلى علم مكتسب نابع من العقل الغريزي للإنسان وذلك يكون قاعدة للتعلم الذي لا يعبر عن اختصاص معين في العلم وإنّما قوى كامنة في النفس ممكن من أن تأسس لجميع العلوم ومنها الدافع والمحفز للتعليم، والقسم الآخر هو العلم المكتسب أو المعارف والعلوم الذي يتحصل عليه من خلال التعليم الذي ينقسم بدوره إلى قسمين أحدهما نظري يستنبطه الإنسان بما يمتلكه من طاقات حسية

(1) ابن الأزرق، بدائع السلك، ج2/ص348 .

(2) الإمام أحمد، الرسالة الجامعة، ص54 . 55.

ومخزونات معرفية والقسم الآخر خبري يحصل عليه المتعلم من قراءة الكتب والنقل الشفوي للأخبار بعد إعادة تقييم لها لتمييز العلمي منها عن البدع والأباطيل[1] .

وضع الطرطوشي في معرض حديثه عن العلم أهم صفات السلطان كونه أحوج الناس إليه ووصفه بدون علم بقوله: "**وإذا كان الملك خالياً من العلوم ركب هواه وأضر برعيته، كالدابة بلا رسن تمر في غير طريق، وقد تتلف ما تمر به**"[2] .

وليس بعيداً عن ذلك ما بينه الكرماني(411هـ/1021م) عند قصور النفس عن التعلم في أدوارها الطبيعية في قوله: " **وكانت أنفس البشر عند ابتداء نشوئها لو أمسكت عن تعليمها معارف الأشياء واحداً بعد واحد بالزمان والمدة لكانت لا تعدو البهائم ، ولا تعرف شيئاً تتميز به عنها**"[3] ، ومن ذلك فإنّ النفس في بداية نشوئها بحاجة إلى التعلم لكمال ذاتها ، وأصبح من الضروري وجود هادٍ ومعلم، ولو لم تكن النفس خالية وعاطلة في تكوينها لما احتاجت إلى اكتساب العلوم والمعارف لتكون فاعلة وقادرة على القيام بالأعمال الموكلة إليها لذلك فالنفس بحاجة إلى التعليم[4].

وبيّن الطرطوشي أهمية العلم وفي طلبه طيب الذكر في الدنيا والآخرة في قوله: "**والعلم حاكم والمال محكوم عليه. ومحبة العلم دين يدان الله تعالى به يكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته**"[5] .

---

(1) الإمام أحمد، الرسالة الجامعة، ص31 . 33 .

(2) سراج الملوك، ص263 .

(3) المصابيح، 35 . 36 .

(4) الكرماني، المصابيح، 36 .

(5) سراج الملوك، ص270 .

**ثانياً :العدل عند الإمام**

بيّن الطرطوشي بأنّ الله أمر بالعدل وهو ميزان الله تعالى بين خلقه وبين الحاكم والمحكوم وقال فيه "**والعدل ميزان الله في الأرض، الذي به يؤخذ للضعيف من القوي وللمحق من المبطل ، وليس موضع الميزان بين الرعية فقط ، بل بين السلطان والرعية أيضاً ، فمن أزال ميزان الله الذي وضعه من القيام بالقسط ، فقد تعرض لسخط الله تعالى**"[(1)] .

وأسمى غايات العدل هي إحقاق الحق وتجنب الظلم ، وذكر الذهبي(**ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م**) إجماع الرواة نقلاً عن رسول الله (ﷺ)بأنّ علي بن أبي طالب (عليه السلام)هو الحق إلى يوم القيامة " **وَقد رووا جَمِيعًا أَنّ رَسُول الله (ﷺ) قَالَ عَليّ مَعَ الْحق وَالْحق مَعَه يَدُور حَيْثُمَا دَار لن يفترقا حَتَّى يردا عَليّ الْحَوْض**"[(2)] والواضح من الحديث أنّ التعبير مجازي، إذ لا يمكن أن يستمر عمر علي (عليه السلام) إلى نهاية الدنيا وإنّما الاستمرار في النهج يعني الامتداد الطبيعي للأئمة من بعده الذين يسيرون على نهجه ويحملون رسالة الحق في أمّة رسول الله (ﷺ) .

وفي قوله تعالى: " **ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو**"[(3)]، فسّر القاضي النعمان (363هـ/973م) ما تضمنته الآية بأنّ شرط الإيمان هو الرجوع إلى النبي (ﷺ) في ما اختلفوا فيه، وبما أنّ القرآن الكريم قد نزل ليخاطب الناس أجمع ولم يختص بفئة من دون أخرى لذلك بيّن القاضي النعمان(363هـ/973م) بأنّ تلك المنزلة اختص بها الأئمة (سلام الله عليهم) من دون سواهم في الرجوع إليهم والتسليم لهم وقال في ذلك: "**وكذلك ينبغي التسليم**

(1) سراج الملوك، ص213 ـ 214 .

(2) المنتقى، ص197 .

(3) سورة النساء، الآية 65 .

**للأئمة ولا يجوز ولا يحل تعقب أفعالهم ولا إنكارها بل الذي يجب أن يتلقى ما يكون منهم بالقبول ظاهراً وباطناً ونيّةً واعتقاداً وقولاً وفعلاً لأنّ الله عزّ وجلّ قرن طاعتهم بطاعة رسوله وجعلهم خلفاء للأمة من بعده وهذا أصعب ما حمل المؤمنون وبقدر ما يحتملون منه تكون درجاتهم عند الله وعند أولياء الله "**[1] وبذلك يكون الحكم هو ما يمثل حكم الله في الأرض على أيدي أولياء الله وأنّ ما يصدر من عقوبة للمخالف هي في إطار ما يستحقه والكفارة عن الذنب أو الجريمة في الدنيا أفضل من العقوبة في دار الآخرة كونها أشد وأقسى لتزكى أنفسهم وتصلح سريرتهم ويتوبوا عن ذنبهم وذلك هو عدل الله [2] .

وإذا تتبعنا تاريخ الأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) نجدهم لا يدانيهم أحد في المنزلة فمنه ما نقلوا عن رسول الله (ﷺ) قوله: "**أقضى أمتي علي**"[3] ، ومنها نقلهم عن النبي (ﷺ) قوله "**عَلِيٌّ أَقْضَى أُمَّتِي بِكِتَابِ اللَّهِ فَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّهُ , فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَنَالُ وِلَايَتِي إِلَّا بِحُبِّ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ**"[4] ، ومن ذلك يفهم أنّ النبي (ﷺ) خصّ عليًا بالولاية والعدالة من دون غيره من الصحابة وهو السبيل الوحيد للارتباط بولاية رسول الله (ﷺ).

ومنها ما قاله عمر بن الخطاب (رض) في مكانة الإمام علي (عليه السلام) في قوله "**أقضانا علي**"[5] ، وكذلك قوله "**لولا عليٌّ لهلك عمر**"[6]، وأشار

(1) آداب إتباع الأئمة ، ص93 . 94.

(2) القاضي النعمان ، آداب إتباع الأئمة، ص 95 . 96 .

(3) وكيع، أخبار القضاة، ج1/ص88 ؛ الطبري، ذخائر العقبى، ص83 .

(4) ابن شاذان، الفوائد المنتقاة، ص91 .

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2/ص293 ؛ احمد بن حنبل، المسند، ج35/ص11 ؛ الطبراني، المعجم الأوسط، ج7/ص357 .

(6) الباقلاني، التقريب والإرشاد، ج3/ص211 . 212 ؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج3/ ص1103 .

الطرطوشي إلى أفضل العصور في قوله: " **أفضل الأزمنة أزمنة أئمة العدل**"[1] .

وكانت فلسفة قيام الدولة الفاطمية الموعودة هي إعلان ظهور دولة العدل التي يقيمها الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام) وارث سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله)الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن يسود الظلم والعدوان وسفك الدماء بغير حق وبنشر العدل في الأرجاء من دواعي صلاح حال الناس واستثمار خيرات الأرض وبذلها للناس جميعاً من دون تمييز[2].

واعتمد دعاة المذهب الإسماعيلي على مجموعة من التنبؤات بقيام دولة العدل الموعودة، منها عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قوله: "**أبشروا بالمهدي, فإنّه ينبعث على اختلاف من الناس شديد, وبلابل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً, كما ملئت جوراً وظلماً ويرضى عنه ساكن السماء, وساكن الأرض ويملأ الله قلوب عباده سروراً ويسعهم عدله**"[3].وإنّ صفة العدل لم يختص بها إمام دون آخر بل كانت منهجاً اتخذ من القرآن الكريم وسيرة النبي (صلى الله عليه وآله) واجتهاد إمام العصر أساساً لصياغة بنوده، لتحقيق السياسة العدلية والسعي لنشرها في ربوع المجتمع الإسلامي لرفع حالات الظلم والعدوان وضياع الحقوق، لذلك روي عن الأئمة الفاطميين قولهم: "**قال بعض الأئمة عليهم السلام : كلّنا مهدي, وكلنا قائم، فظهرت دعوة المعز عليه السلام بالشرق فملك مصر، وأظهر فيها دعوة الحق ودعوتهُ هي دعوة المهدي صلوات الله عليها التي أقامها، وأبان سننها, وأعلامها**"[4] .

---

(1) سراج الملوك، ص214 .

(2) الداعي إدريس , عيون الأخبار ,السبع الخامس , ص17 .

(3) الداعي إدريس , عيون الأخبار ,السبع الخامس , ص 11 .

(4) الداعي إدريس , عيون الأخبار ,السبع الخامس, ص 12 – 13 .

وجاءت ثقة الإسماعيلية من تحقق العدالة الإلهية في قيام دولتهم الموعودة حسب كلام داعيهم القاضي النعمان(363هـ/973م) من الوعد الإلهي في القرآن الكريم في قول الله تعالى " ﴿ ﴾ "[1] ، وقوله تعالى: " ﴿ ﴾ "[2] ، وقوله تعالى"﴿ ﴾ "[3] وتلك الآيات جميعاً دلالة على أنّ الله تعالى ناصر المؤمنين، وأنّه لن يترك الأرض من دون نبي أو رسول أو إمام داعي بالحق سوآءا كان ظاهر أم مستوراً وأنّ الأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) هم حملة رسالة الأنبياء (صلوات الله عليهم) في وراثة الأرض لإقامة العدل وإحقاق الحق وتنفيذ أحكام الله على يد الإمام المهدي عند ظهوره وقيام دولته [4] .

وبيّن الطرطوشي أنّ أساس صلاح الناس ورفعة السلطان هو إشاعة العدل "**ومتى أراد السلطان حسن الصيت وجميل الذكر فليقم سوق العدل، وإنْ أحب الزلفى عند الله وشرف المنزلة عنده فليقم سوق العدل ، وانْ أحبهما جميعاً فليقم سوق العدل**"[5].

وكانت فلسفة الإسماعيلية في نشوء دولتهم هو قيام دولة العدل والقضاء على أئمة الجور والطغيان وذلك شعارهم في بداية ظهور دولتهم في بلاد المغرب على يد عبدالله المهدي(297-322هـ/909-933م) أول أئمة الظهور واستمرار ذلك الدور لدى الأئمة الفاطميين الذين جاءوا من بعده وبيّن الداعي إدريس(872هـ/1467م) نقلاً عن القاضي

(1) سورة المائدة، الآية 56 .
(2) سورة الصافات، الآية 171 . 173 .
(3) سورة الأنبياء، الآية 105 .
(4) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص1 . 2 .
(5) سراج الملوك، ص220 .

النعمان(363هـ/973م) تلك السياسة في قوله: "**وكذلك كانت صفة المهدي بالله (صلع) ، على ما قاله القاضي النعمان بن محمد (رضي الله عنه) ... وملأ عدله ما وصل إليه سلطانه من الأرض ، وملأ باقيها من أتى من الأئمة من بعده من ولده ، وهو الذي ابتدأ ذلك**"[1] ، وبيّن الداعي إدريس(872هـ/1467م) أنّ العدل شاع في مدّة حكم الأئمة الفاطميين بصورة جلية بالرغم من أنّ ذلك لم يرق للكثير ممّن اعتادوا الفسق والفجور لذلك سعوا إلى معادات تلك السياسة وأنكروا تلك الفضائل ولكن الغلبة في النهاية إلى الأئمة من أهل الحق الذين حددهم النبي محمد (ﷺ) بأنّهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) والأئمة من ولده التقاة الذين خصهم الله تعالى بالذكر والاختيار[2].

**ثالثاً: منزلة الإمام من القرآن**

إنّ فلسفة الحكم في دولة الإسلام قائمة على العلاقة بين الحاكم الذي يحمل صفة خلافة النبي (ﷺ) والقرآن الكريم الذي يعد المصدر الأول لأحكام التشريع لإدارة البلاد وتنظيم حياة الناس وبيّن الطرطوشي تلك العلاقة في ما نقله في قوله: "**مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد، فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان، والأطناب والأوتاد الناس، لا يصلح بعضهم إلّا ببعض**"[3] ، وذلك العمود الذي يستند عليه الإسلام من الأفضل والأصلح أن يكون إماماً مفترض الطاعة استمد سلطته في الإسلام من مكانة النبي الأكرم (ﷺ)، ويكون

(1) تاريخ الخلفاء، ص33 .
(2) تاريخ الخلفاء، ص33 . 34 .
(3) سراج الملوك، ص252 .

عالماً بأحكام القرآن، والشرط المكمل الآخر وجود القاعدة المؤمنة المطيعة التي تسير في ركب القائد، والدليل التفاوت بين نجاحات الأنبياء في أقوامهم، ولاسيما أنّهم جميعاً مبعوثون من قبل الله تعالى لإصلاح البشر، وكانت الأسباب في استجابات الناس وطاعتهم للأنبياء.

وأول الأئمة عليّ (عليه السلام) الذي قيل فيه: "**الْقُرْآن مَعَ عَليّ وَعليّ مَعَ الْقُرْآن**"[1] ، وبيّن النبي (صلى الله عليه وآله) للأمة تلك الصلة بين القرآن الكريم وأهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) وأنّها لن تنقطع إلى يوم القيامة وذلك من دواعي الرحمة والفضل من الله تعالى على عباده وذلك في قوله: "**إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي. كِتَابُ اللَّهِ حَبَلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ. وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي. وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ أَخْبَرَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**"[2] ، وتلك الأحاديث كانت في متناول مفكري الإسماعيلية الذين تمسكوا بذلك الحبل الممدود وتتبعوا طريق الإمامة ومن هؤلاء القاضي النعمان(363هـ/973م) الذي بيّن مكانة الأئمة من الإسلام " **إذا كانَ من عرفَ حقهم واعتقد إمامتهم رعى من واجبهم وامتثل من أمرهم ما يرى أنّه فرض الله عزّ وجلّ عليه واجب وحق لازم ، كانت جلالتهم في صدره أعظم ، وهيبتهم في عينه أكبر من هيبة ملوك الدنيا وجلالتهم في صدور أتباعهم وأعينهم**"[3].

(1) الحبري، تفسير، ص156 ؛ الهمذاني، الفردوس بمأثور الخطاب، ج3/ص230 ؛ للمزيد ينظر: الشيخ الطوسي، الأمالي، ج2/ص210 .

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2/ص150 ؛ ابن الجعد، المسند، ص397 ؛ أبو يعلى، المسند، ج2/ص297 .

(3) آداب إتباع الأئمة ، ص 20 .

ونقل الطرطوشي عن علاقة الملك والدين وأنّهما توأمان لا يفترقان وأنّ علاقتهما سرمدية وذلك في قوله "**إنّ الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أسّ والملك حارس، ومن لم يكن له أسّ فهو مهدوم، ومن لم يكن له حارس فضائع**"[1].

وأثبت الفيلسوف الإسماعيلي الكرماني(411هـ/1021م) براهين عدة[2] أنّ مقام الإمامة حامي الدين وبيان شريعة الله تعالى وأحكامه لا يصح أن يكون باختيار الناس ووصفه بالباطل كون اجماع الناس على شيء ليس بالضرورة أن يكون صالحاً وكان لديه استدلالات هي الأقرب للصواب منها أنّ اختيار الرسول (ﷺ) من قبل الله تعالى لم يؤثر على مكانته عند إجماع الناس على رفض رسالته ووصفهم له بالكذاب وذلك أدى بالنتيجة إلى عدم إمكان اختيار من يحل محله ويملك صلاحياته من قبل الناس كون ذلك التعيين قابل للخطأ والصواب أو الانحراف عن الوسيلة الإلهية للعمل بشريعة الله في الأرض والوصول إلى كمال الإنسان وصلاحه[3] .

وذكر الطرطوشي مكانة السلطان عند الله تعالى "**واعلم أرشدك الله أنّ الإنسان أعز جواهر الدنيا وأعلاها قدراً وأشرفها منزلة، وبالسلطان صلاح الإنسان، فهو إذا أعز أعلاق الدنيا وأعمها نفعاً وبركة. ولذلك خلق الله تعالى دارين: دار الدنيا ودار الآخرة، ثم كان السلطان صلاح الدارين، فأخلق بشخص يعم نفعه العباد والبلاد ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة، وأن يكون شرفه عند الله عظيماً كما كان قدره في العقول جسيماً، ومقامه عند**

(1) سراج الملوك، ص252 .

(2) ينظر: المصابيح، ص77 . 79

(3) المصابيح، ص78 . 79 .

**الله كريماً كما كان نفعه في البلاد عميماً، وعلى قدر عموم المنفعة تشرف الأعمال، وعلى قدر النعمة تكون المنّة"**[1] ، وتلك المنزلة وذلك القرب من الله، ومن وقع على عاتقه صلاح الدنيا والآخرة الأفضل والأرجح أن يكون إماماً مفترض الطاعة خصّه الله تعالى بخصائص تفوق باقي البشر وأهمها علاقته بالقرآن ومعرفته بأحكامه، وأكد النيسابوري(410هـ/1019م) على أنّ التفاوت والتفاضل من سنن الله تعالى، وربط بين فضل الشمس على باقي الكواكب ومكانة الأئمة بين البشر بقوله: "**وكذلك الإمام فهو شمس الدين ، منه تستضيء البصائر ، وتستضيء النفوس بنور الهداية والحكمة ، وتضيء قلوب الأولياء**"[2].

وبيّن الداعي إدريس(872هـ/1467م) أنّ المعرفة بمنزلة الإمامة صعب أن تدرك من قبل جميع العقول، لأنّ ما خصّ الله به الأئمة فوق إدراك البشر كما في قول علي بن أبي طالب (عليه السلام) :"**إنّ لي منزلة لم يخطر على قلب بشر ، ولم يبلغ معرفته أحد**"[3] ، وذكر إدريس(872هـ/1467م) أنّ هنالك مستويات متفاوتة من الفهم والإدراك وهناك ظاهر وحقيقة للمعرفة لا يدركها إلّا أهل العلم وبيّن ذلك في قوله: "**إنّ الخلق بأجمعهم ليعرفون الله بظاهر المعرفة ، وأهل الحقائق منهم يعرفونه بحقيقة معرفته ، وأنّ علياً لم يعرفه بالجملة إلّا رسول الله ، والأئمة من ولده ، وعرفه أهل الحقائق بظاهر المعرفة ، وإثبات البراهين والمعجزات التي أظهرها لهم مرة بعد مرة**" [4] .

---

(1) سراج الملوك، ص185 .

(2) اثبات الإمامة، ص36 .

(3) زهر المعاني، ص247 .

(4) زهر المعاني، ص247 . 248 .

وبيّن أنّ تلك المنزلة والصفات التي خصّ الله تعالى بها الأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) شملت الأئمة في الأدوار المتعاقبة وجرى على أيديهم المعجزات ووجودهم حياة للخلق وإعمار للدين وهداية للمتقين ، وإظهار لدين الله وبيان أحكامه ، وفي كل عصر لهم أتباع ومؤيدون يستنيرون بعلمهم ويكونوا دعاة لهم خصهم الله بفضله وحكمته[1] ، ومنهم المؤيد في الدين الشيرازي الذي وصفه الداعي إدريس(872هـ/1467م) بأنّه نجل الداعي حميد الدين الكرماني(411هـ/1021م) وذلك في قوله: "**والمؤيد في الدين قدس الله روحه هو نجل حميد الدين حجة مولانا الإمام الحاكم بأمر الله نسباً دينياً، ونسباً طبيعياً**"[2] وهو الذي وصف نفسه بسلمان المحمدي بقوله: "**لو كنت عاصرت النبي محمداً ما كنت أقصر عن مدى سلمانه ، ولقال أنت من أهل بيتي معلناً ، قولاً يكشف عن وضوح بيانه**"[3]، وفي ذلك القول معنى رابطة العقيدة الدينية والمشروع، والقول مجازي إنّ الرجال أبناء الرجال وفي ذلك دليل على أنّ هؤلاء الدعاة يستنيرون بإخلاص من سبقهم من الصحابة والأولياء الذين رافقوا النبي (ﷺ)والأئمة من بعده وسعوا إلى الرقي لمنزلة هؤلاء المتقين ممّا جعل سيرهم نوراً استدل بها في بلوغ أعلى درجات الطاعة والولاء للأئمة من آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) .

وهناك أمثلة أخرى إلى ما وصلت إليه الأمة بعد خذلانها لأئمتها، من ذلك ما حدث في معركة صفين[4] بعد مكيدة عمر بن العاص وظاهرة رفع المصاحف والمطالبة بالرجوع إلى حكم القرآن لإنهاء الحرب بين طائفتين من المسلمين ، إذ قال علي (عليه السلام) لأصحابه الذين طالبوه بإيقاف الحرب والإذعان لمطالب القوم: "**ويحكم ، أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من**

(1) الداعي ادريس، زهر المعاني، ص248 . 249 .

(2) زهر المعاني، ص249 .

(3) الداعي ادريس، زهر المعاني، ص249 .

(4) ينظر: المنقري، وقعة صفين، ص1 وما بعدها .

**أجاب إليه ، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إنّي إنّما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ، ولكنّي قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم، وأنّهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون"**[1]، وهنا بيّن أمير المؤمنين (عليه السلام) مكانته من القرآن وأنّه الأعلم بالحكم منهم وهو الساعي للقتال من أجل تنفيذ أحكام الله في كتابه ومن أدعى النزول على حكم القرآن فهو كاذب مخادع نوى النفاذ من حكم الله وإحداث الفتنة في معسكر أمير المؤمنين بعد أن اقترب الحسم في المعركة[2] .

وبيّن الطرطوشي أهمية وجود الأعوان بقوله "**ويحتاج إلى طبقات الرجال كما يحتاج الحرب إلى أصناف العدة فمنها الدرق للاستجنان والسيف للمناجزة، والرمح للمطاعنة والسهم للمباعدة والدرع للتحصين، ولكل منهم موضع ليس للآخر، والرجال للملك كالأداة للصانع لا يسد بعضها مسد بعض**"[3] .

ومن الرجال الذين كان لهم دور في قيام الدولة الفاطمية هو ابن حوشب[4] الذي لقب بالمنصور على وفق رواية فيها قول للرسول (صلى الله عليه وآله) " **يقوم رجل من ولدي على مقدمته رجل يقال له المنصور يوطئ لهُ واجب**

---

(1) ابن مزاحم المنقري، وقعة صفين، ص490 .

(2) ينظر: ابن مزاحم المنقري، وقعة صفين، ص489 . 492 ؛ ابن مسكوية، تجارب الأمم، ج1/ص536 . 541.

(3) سراج الملوك، ص251 .

(4) أبو القاسم الحسن فرج بن زادان الكوفي، اختلف المؤرخون في اسمه، لقب بمنصور اليمن لما أتيح له من النصر وكان من الأثنى عشرية أصحاب الإمام محمد بن الحسن العسكري، وبعد اختفاءه وجد ضالته في التفرغ الإسماعيلي حتى أصبح من أكبر دعاتهم وله الفضل في نشر المذهب الإسماعيلي في اليمن توفي سنة (302هـ/915م) ولم يعين أحد أبناءه الكثر لرئاسة الدعوة من بعده ترك الأمر للإمام المهدي. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص32 ؛ الحمادي، كشف أسرار الباطنية، ص37 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص55 .

**علــى كــل مــؤمن نصــرته**"[1] ، ومـن هـذه الروايـة التـي فيهـا خطـاب للمـؤمنين تؤكـد علـى المكانـة الدينيـة للأئمـة وأتبـاعهم علـى حـدٍّ سـواء كـونهم نهلـوا مـن فـيض علمهـم وإيمـانهم وأنّ هـؤلاء الأتبـاع هـم قاعـدة النصـر وأن معـرفتهم بحقيقـة الإمـام ومنزلتـه، ووجـوب الطاعـة هـي السـبيل لتحقيـق الفـتح، ونصـل إلـى نتيجـة العلاقـة بـين القائـد وهـو الإمـام والدسـتور وهـو القـرآن والقاعـدة وهـم الأنصـار والأعـوان وبتـوفر جميـع ذلـك يمكـن أن نحقـق الفـتح وهـو الدولـة الإصـلاحية التـي تتحقـق فيهـا فلسـفة الوجـود وأمـل وجهـود الأنبيـاء والرسـل وتلـك الدولـة إلـى يومنـا هـذا لـم تـرَ النـور لعـدم اكتمـال شـروطها، أمّـا الـدول الإسـلامية التــي نشـأت ومنهـا الدولـة الفاطميـة فهـي كانـت سـاعية ومعلنـة أنّهـا حملـت صـفات تلـك الدولـة التـي سـوف نتنـاول جهودهـا فـي الفصـول اللاحقـة ونقـف عند حسناتها ومثالبها، ونقيم نسب الصلاح التي وصلت لها.

**رابعاً : أخلاق الإمام**

خاطب القرآن الكريم النبي محمد (ﷺ) بالتأكيد على سلوكه مع أتباعه: "ﮋ ﭙ
ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ
ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﮊ "[2] ، جاء في تفسير الآية بأنّها تحث النبي (ﷺ)على مخاطبة المنافقين باللين وأنْ يستغفر لهم ويسامحهم على خذلانهم وتركهم أوامر النبي في القتال في معركة أحد وذلك السلوك ساهم في عدم تفرقهم عن النبي (ﷺ)، وكذلك مشاورتهم كونه يعزز مكانتهم ويرفع من شأنهم في الإسلام وذلك موروث

(1) السجستاني ، سنن أبي داود ،ج6/ص348 ؛ الداعي ادريس ،عيون الأخبار , السبع الخامس، ص 3 .

(2) سورة آل عمران، الآية 159 .

اجتماعي اعتادوا عليه في تأريخهم[1]، وذلك ما أكده الطرطوشي في قوله: " **واعلم أنّ السياسة تكسو أهلها المحبة والفظاظة تخلع صاحبها ثوب القبول**"[2].

وفي حديث للنبي الأكرم (ﷺ) قال فيه: "**إِنَّمَا بعثت لأتمم مَكَارِمِ الْأَخْلَاق**"[3] ، وجاءت في صيغ أخرى مثل: "**بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ**"[4] ووردت أيضا: " **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**"[5] ، وجميع تلك العبارات تدل على أنّ الأخلاق ركن أساسي في مقبولية الإسلام لدى الناس وأصحاب الديانات الأخرى وخير من مثل ذلك المنهج الأخلاقي هو صاحب الشريعة ومن حمل أعباء الرسالة من بعده هم الأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) ، وذكر الإمام علي (عليه السلام) علاقته برسول الله (ﷺ) وأنّه ربيبه وقال في ذلك " **وما وجد لي كذبة في قول ، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن إنْ كان فطيمًا أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره .ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علمًا ويأمرني بالاقتداء به**"[6] ، وبيّن الطرطوشي أنّ الاقتداء بأخلاق رسول الله (ﷺ) هو المعيار الحقيقي لحسن الخلق ومن استحسن الأخلاق العامية كان

(1) مقاتل، تفسير، ج1/ص310 ؛ التستري، تفسير، ص51 ؛ الطبري، تفسير، ج7/ص342 . 343 .

(2) سراج الملوك، ص241 .

(3) الترمذي، نوادر الأصول، ج2/ص312 ؛ البجلي، الفوائد، ج1/ص121 ؛ القضاعي، المسند، ج2/ص192.

(4) مالك، الموطأ، ج1330/5 ؛ ابن سعد، الطبقات، ج1/ص193 .

(5) ابن أبي شيبة، المصنف، ج6/ص324 ؛ احمد بن حنبل، المسند، ج14/ص513 .

(6) خطب الإمام علي، نهج البلاغة، ج2/ص157 .

جاهلاً لأخلاق النبي (ﷺ) ومن عاش في كنف رسول الله (ﷺ) كان أفضل الناس أخلاقاً كما في قوله: "**فكل من تخلق، بأخلاق رسول الله (ﷺ) أو قاربها، أو بعضها، كان أحسن الناس خلقاً، وكل خلق ليس يعد من أخلاقه، فليس من حسن الخلق**"[1] .

وجعل الطرطوشي الأخلاق الحسنة في منزلة السلاح في وجه الأعداء الذي يغزو ديارهم ويضع قدم في مضاربهم ويربك صفوفهم ، إذ قال: "**وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا: أيّها الملك إنْ قصرت قوتك عن عدوك فتخلق بالأخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها، فإنّها الكافية من الغارة الشعواء**"[2] .

وتلك الأخلاق حملها علي بن ابي طالب (عليه السلام) في حروبه منها في معركة الجمل بعد أن كان منتصراً، إذ نقل الشافعي في قوله: "**رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَلِيّ بْنِ الْحُسَيْنِ – رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُمَا – قَالَ دَخَلْت عَلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فَقَالَ مَا رَأَيْت أَحَدًا أَكْرَمَ غَلَبَةً مِنْ أَبِيك مَا هُوَ إلَّا أَنْ وَلِيَنَا يَوْمَ الْجَمَلِ فَنَادَى مُنَادِيهِ لَا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ وَلَا يَذْفِفْ عَلَى جَرِيحٍ**"[3] .

وروي من أخلاق الحسن بن علي (عليه السلام) أنّ شاميًّا حضر إلى مدينة رسول الله (ﷺ) وشاهد الحسن بن علي (عليه السلام) وعندما سأل عنه أراد الحط من شأنه فقام بشتمه وشتم أبيه، فسكت الإمام إلى أن استحى الرجل من حسن أخلاق الإمام ، بعدها سأله هل أنت من الشام فأجابه، فقال له الإمام الحسن (عليه السلام) "**فمل معي ، إن احتجت إلى منزل أنزلناك وإلى مال أرفدناك**

(1) سراج الملوك، ص574 .
(2) سراج الملوك، ص239 .
(3) الأم، ج4/ص229 .

**وإلى حاجة عاوناك ، فاستحييت والله منه وعجبت من كرم خلقه فانصرفت وقد صرت أحبّه ما لا أحبّ غيره"**[1] .

لذلك نجدهم يروون عن الرسول الأعظم محمد(ﷺ) قوله : "**نعم وزير الإيمان العلم ونعم وزير العلم الحلم ونعم وزير الحلم الرفق ونعم وزير الرفق اللين**"[2], وفسروا ذلك بأنّ المؤازرة هنا قصد بها المعاونة والمعاضدة وأنّ الإيمان لا يكتمل إلّا بالعلم ولابد له أن يكون حليماً أي يضع العلم في مكانه المناسب ويقتصد به أي لا يظهر منه إلّا بقدر تحقيق المكاسب وأن يكون ليناً خافضاً جناحه لأهلة ولمقربيه وهذه هي صفات وأخلاق الإسلام[3].

وذكر الإمام الصادق (عليه السلام)عظم أجر حسن الخلق إلى درجة الجهاد في سبيل الله[4] ، ونقل عنه قوله(عليه السلام)"**عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : أربع من كن فيه كمل إيمانه وإن كان من قرنه إلى قدمه، ذنوبًا لم ينقصه ذلك ، قال: وهو الصدق وأداء الأمانة والحياء وحسن الخلق**"[5] ، ولا يقصد من الحديث الاستهانة بالذنوب، وإنّما من حمل تلك الصفات اعتصم عن الرذائل والموبقات من كبائر الذنوب، لعدم إمكانية اجتماع الأضداد، أمّا صغائرها فلا تضر بالإيمان في قبال ما وعد الله تعالى المؤمنين من العفو والرحمة .

---

(1) الشافعي، مطالب السؤول، 348 ؛ ينظر: المبرد، الكامل، ج2/ص5 .

(2) القاضي النعمان , تأويل الدعائم , ج 1/ص 27 ؛ ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي ، ج4/ص75 .

(3) القاضي النعمان , تأويل الدعائم , ج 1/ص 27 – 28 .

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2/ص101 .

(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2/ص99 . 100 .

ونقل الطرطوشي قولهم في سوء الخلق بقوله: "**أصل سوء الخلق ضيق القلب، وضيقه على قسمين أدناه وأهونه أن لا يتسع لمراد الخلق، وأقصاه وشره أن لا يتسع لمراد الخالق**"[1] .

وروي عن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) أنّه أوصى أبنائه في الحث على العفو والتسامح في قوله: "**إذا أتاكم آتٍ فأسمع أحدكم في الأُذن اليمنى مكروهاً ثم تحول إلى الأُذن اليسرى فاعتذر وقال لم أقل شيئاً فاقبلوا عذره**"[2] .

ومن سمو الأخلاق مراعاة الوسطية والاعتدال ، أي لا إفراط ولا تفريط وتلك هي الحدود بين الخلق الحسن والذميم وذلك ما بيّنه الطرطوشي في قوله: "**إنّ الفضائل هبات متوسطة بين الفضيلتين ناقصتين، فما جاوز التوسط خرج عن حدّ الفضيلة، كالكرم الذي هو متوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين التهور والجبن**"[3].

والمتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية منذ بداية نشوئها إلى مراحل قوتها وفي بعض أدوار ضعفها لاحظ سياسة الوسطية والاعتدال في التعامل مع الأعداء كدول وأفراد استثمرها الفاطميون لدعم قوة دولتهم ولترسيخ مبادئهم للتعامل مع الأعداء والأصدقاء ومن الأمثلة على ذلك سياسة أبي عبدالله الشيعي مع الأعداء في اشتداد حلقات المعارك منها تعامله في فتح طبنة[4] مع صاحبها أبي المقارع[5] الذي طلب الأمان فأعطي ، والتحق

---

(1) سراج الملوك، 583 .

(2) ابن الصباغ، الفصول المهمة، ج2/ص951 .

(3) سراج الملوك، 285 . 286 .

(4) هي مدينة كبيرة من أعظم بلاد الزاب لها حصن قديم عليه سور من حجر لم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها وهي حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير فتحها موسى بن نصير وبها أخلاط من العرب والعجم والأفارقة والروم . اليعقوبي ، البلدان ، ص190 ؛ البكري ، المسالك والممالك ، ج2/ص711 ، الادريسي ، نزهة المشتاق ، ج1/ص263 .

بركب أبي عبد الله الشيعي[1] وقال له "**ما كنت بالذي انصرف عنك, ولا أدخل افريقية إلّا بدخولك, وكيف أختار المصير إلى قوم قد أدبرت الدنيا عنهم وأدعك وهي مقبلة عليك** "[2] ، نلاحظ في ذلك النص أنّ الرجل تكلم بواقعية وليس بولاء، وأنّ أبا عبدالله فهم شخصية ذلك المحارب وكسب ولائه ووقوفه إلى جانب الفتح .

والمطلع على سياسة المعز لدين الله (ت 365هـ/975م) مع ملك القسطنطينية الذي حاول التقرب للفاطميين بعقد معاهدة طويلة الأمد مبنية على المصالح المشتركة بين البلدين لتقاسم النفوذ في العالم فكان رد المعز الرفض بداعي أنّ ذلك مخالف لأحكام الإسلام بقوله: " **إنّ الموادعة إنّما تجوز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحاً لهم وللدين, ولو كانت مؤيدة لبطلَ الجهاد المفروض على العباد, وانقطعت دعوة الإسلام, وخولف حكم الكتاب وعرفه**"[3] ومن ذلك وضوح مبادئ السياسة الخارجية والتوأمة بين الضروريات والمحظورات .

---

(5) حسن بن أحمد بن نافد المعروف بأبي مقارع كان والياً على طبنه من أعمال أفريقيا في ولاية زياد الله بن عبدالله آخر ملوك الأغالبة حاصره أبوعبدالله الشيعي ولجأ إلى حصن منيع ثم نادى بالأمان فأعطي وبقي في صحبة أبي عبدالله إلى أن دخل أفريقيا . القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص177 ؛ ابن الآبار، الحلة السيراء ، ج2/ص387 .

(1) أبو عبد الله الشيعي الحسيني بن أحمد بن زكريا المعروف بالشيعي، أصله من الكوفة، ذو علم وعقل ودين وورع، عمل محتسباً بسوق الغزل في البصرة في العراق، عرف بالعلم لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الإثنى عشرية كما يطلق عليه الصوفي لارتدائه الخشن من الثياب . القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص59 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2/ص124 .

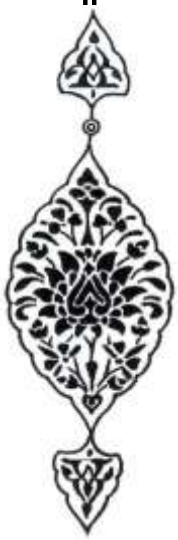
(2) القاضي النعمان , افتتاح الدعوة , ص 178 .

(3) القاضي النعمان ، المجالس والمسايرات ، ص367 ؛ الداعي إدريس , عيون الأخبار ,السبع السادس , ص70.71.

وما تبيّن من دراسة بعض صفات الأئمة التي أثرت في كل من قاربهم وفهم مكانتهم أنّ مقام الإمامة هو مشروع متكامل أوجده الله تعالى وحث المؤمنين على التمسك به من أجل وضع الشيء في محله لإحقاق الحق والسعي لتكامل حلقات الوجود والوصول إلى كمال الإنسان الذي هو غاية الخلق في عوالم الدنيا و الآخرة .

# الفصل الثاني

# السياسة الرشيدة في الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي



المبحث الأول: سياسة الخلفاء الفاطميين مع الرعية في المغرب

المبحث الثاني: محاسن سياسة الخلفاء الفاطميين في مصر

المبحث الثالث: مبادئ السياسة المالية للدولة الفاطمية

## المبحث الأول

## سياسة الخلفاء الفاطميين مع الرعية في المغرب العربي

إذا أردنا الحديث عن سياسة الخلفاء الفاطميين مع الرعية لابد من دراسة العوامل التي ساعدت على قيام الدولة الفاطمية ولا سيما في ما يخص دراستنا وهو سياسة حكام الممالك والدول التي كانت قائمة في بلاد المغرب مع رعاياهم والذي مهد لزوال حكمهم ومجيء الفاطميين بديلاً مشرقاً لهم بعد أن رفعوا معهم شعار رفع الحيف عن الناس ونشر العدل، ولتجنب الإطالة والذهاب بعيداً عن جوهر الموضوع نتناول بعض مظاهر تلك السياسات في مدد متفاوتة لتسليط الضوء على الأحوال العامة للسكان في المغرب قبل قيام الدولة الفاطمية وأهم تلك الدول وأكثرها سطوة دولة الأغالبة(184. 296هـ/ 800. 908م)، وما سجله حكامها من المظالم وسوء السياسة مع الرعية منهم عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب(196 . 201هـ/811 . 816م) الذي قيل فيه: "**وقد كان عبد الله بن إبراهيم أراد أن يحدث جوراً عظيمًا على رعيته... وكان من أجمل الناس وجها، وأقبحهم فعلاً، وأعظمهم ظلما، أحدث بأفريقية وجوها من الظلم شنيعة**"[1] ،وجاء للحكم بعده أخيه زيادة الله بن إبراهيم (201–223هـ/816–837م) الذي كان معروفاً بالقتل و الاستخفاف بأرواح الناس ومن ذلك قولهم فيه "**وكان أكثر سفكه وسوء فعله إذا سكر**"[2] .

واستمر القتل وسفك الدماء وانتشار المظالم والفساد في دولة بني الأغلب ومنهم إبراهيم بن أحمد (261 . 289هـ/874 . 901م) وقد ذكر ابن عذاري(695هـ/1295م) ما قام به في أحداث سنة (279هـ/892م) من

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص95 .

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص96 .

القتل بقوله "**وفيها، قتل إبراهيم بن أحمد من أهل أفريقية من قتل بطرا وشهوة ... وقتل فيها جميع فتيانه؛ وسبب ذلك إنّه كان كثير الإصغاء إلى قول المنجمين والكهنة، وكانوا قالوا له إنّه يقتله رجل ناقص العقل، وإنّه يمكن أن يكون فتى**"[1]، ووصل به الأمر إلى أن عنف رسمياً من قبل الخليفة المعتضد بالله العباسي(279-289هـ/892-902م) بسبب جوره وسوء أفعاله في أهل تونس وأصدر أوامره أن يسلم الأمر إذا لم ينتهِ إلى ابن عمّه محمد بن زيادة الله، وكانت استجابته مخالفة لرأي الخليفة، ولا سيما أنّه قتل ابن عمّه، وتمادى في القتل والقسوة وكان من سوء أفعاله ما نقل عنه "**نهض من طرابلس إلى تاورغا[2]: فقتل بها خمسة عشر رجلا، وأمر بطبخ رؤوسهم مظهرا أنّه يريد أكلها، هو ومن معه من رجاله فارتاع أهل العسكر منه، وقالوا: (قد خولط)[3] فانفض الناس عنه فلمّا رأى ذلك، خشي أن يبقى وحده. فرجع إلى تونس فجعل عقوبة من انفض عنه غرم ثلاثين دينارا، فسمي غَرْم الهاربين**"[4]، وبذلك قد أساء التقدير في كسب الناس ومنعهم من الانفضاض عنه، إذ انتقل من الإرهاب والترويع إلى فرض ضرائب باهضه، أدت به إلى التخبط وسوء التدبير ممّا ساهم في الخروج عن طاعته، وعجل في زوال حكم بني الأغلب، وساعد في رواج

---

(1) البيان المغرب، ج1/ص122 .

(2) تاورغا : بلدة وواحة ساحلية تقع في إقليم طرابلس على ساحل البحر الأبيض المتوسط، والتي تعد الحد الفاصل لمنطقة بلاد سرت وإقليم برقة، سكنتها القبائل الأمازيغية هوارة ولواتة، اليعقوبي ،البلدان، ص 184 .

(3) خولط: وَيُقَال: ((خُولِط)) الرجل. . فَهُوَ ((مخَالَطٌ)) ، و ((اخْتَلَطَ)) عقله. . فَهُوَ ((مُخْتَلِطٌ)) _ إِذا تغيَّر عقلُهُ، وقيل واخْتَلَطَ فُلَانٌ أَي فَسَدَ عَقْلُهُ. وَرَجُلٌ خِلْطٌ بَيِّنُ الخَلاطةِ: أَحْمَقُ مُخالَطُ العقْل . الهروي، تهذيب اللغة، ج7/ص109 ؛ ابن منظور، لسان العرب، ج7/ص294 .

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص129 . 130 .

حركات التمرد [1]والولاء للشعارات التي نادت بالثورة وقيام نظام جديد كان الأقرب له الفاطميون الذين استثمروا تلك الظروف ومعاناة الناس لصالح نشوء دولتهم الموعودة.

وأخذ الطرطوشي عن العجم قولهم "**أسوس الملوك من قاد رعيته إلى طاعته بقلوبها. ولا ينبغي للوالي أن يرغب في الكرامة التي ينالها من العامة كرهاً، ولكن في التي يستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير**"[2]، وكان بنو الأغلب سيئ الأثر في قلوب رعيتهم وبعيدين عن الحكمة والصواب في التدبير.

واستمر بنو الأغلب في تلك السياسات والصراعات على الحكم التي ألقت بظلالها على أحوال الناس إلى أن وصلت سياساتهم إلى آخر حكامهم زيادة الله الأصغر (290 . 296هـ/902 . 908م) الذي اتهم بقتل أبيه من أجل الوصول إلى الحكم [3]، والذي قال ابن الأثير في حكمه "**وَلِيَ أَبُو مُضَرَ زِيَادَةُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِفْرِيقِيَّةَ، بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ، فَعَكَفَ عَلَى اللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَمُلَازِمَةِ النُّدَمَاءِ وَالْمُضْحِكِينَ، وَأَهْمَلَ أُمُورَ الْمَمْلَكَةِ وَأَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ**"[4].

وذكر الطرطوشي عواقب ظلم السلطان على البلاد وأنّ الفساد يسري في جميع مفاصل الدولة ويؤدي إلى نشر الفوضى التي لا تحمد عقباها "**فإذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع، ولو جعل ظلم السلطان حولاً في كفة ثم جعل فساد الرعية ومظالمهم وهرجهم في ساعة،**

(1) ينظر: عبد علي، الثورات المناهضة لإمارة الأغالبة ، ص516 . 527 .

(2) سراج الملوك، ص478 . 479 .

(3) الكامل، ج6/ص574 ؛ أبو الفداء، المختصر، ج2/ص63 .

(4) الكامل، ج574/6 .

**إذا اختل أمر السلطان في كفة"**[1]، وذلك الهرج الذي وقع في أرض المغرب بسبب الفساد والظلم من جهة والفوضى وضعف الدولة وغيابها من جهة أخرى بفعل آثار السياسات الخاطئة ووصول حكام ليسوا على قدر المسؤولية.

ومن الدول الأخرى التي أثرت في أحوال السكان في المغرب هي الدولة المدرارية (140.366هـ/757.976م) التي أسسها الخوارج الصفرية في مدينة مكناسة[2]، التي وليها عيسى بن يزيد [3] وظهرت دولتهم في سجلماسة[4] ولم يكن تاريخ تلك الدولة[5] أفضل حالاً من بقية أنحاء افريقية من الصراع والقتل والمظالم للعباد نكتفي في الإشارة إلى أحوالها بما ذكره ابن كثير (774هـ/1372م) في قوله: "**وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد وقتلوا الحريم والأولاد, وآذوا عامة العباد**" [6].

(1) الطرطوشي، سراج الملوك، ص200 .

(2) مكناسة: مدينة ببلاد المغرب مع البر الأعظم بينها وبين مراكش أربعة عشر مرحلة في الشرق،البغدادي، مراصد الاطلاع ،ج3/ص 1303

(3) عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج بقي في الإمارة خمسة عشر سنة ثم سخطوا علية وأوثقوه ووضعوه على قمة جبل إلى أن مات وكان ذلك سنة 155هـ . ابن عذاري , البيان المغرب , ج 1/ ص 79 ؛ السلاوي, الاستقصا , ج 1/ص 180 .

(4) سجلماسة: مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام، وهي في منقطع جبل درن ولكل بها من شمالها حد من الأرض يمر بها نهر كبير،ياقوت الحموي ،معجم البلدان ، ص 192.

(5) ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج156/1 . 157 ؛ ضيف، تاريخ الأدب، ج10/ص267 . 269 .

(6) البداية والنهاية , ج 13/ص 428 .

وحكمت في بلاد المغرب دولة خارجية إباضية هي الدولة الرستمية (296.144هـ/908.761م) أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي[1], مركزها مدينة تاهرت[2] في بلاد المغرب الأوسط[3] وعلى الرغم من توسعها على حساب نفوذ دولة الأغالبة واجتماع طوائف من البربر الإباضية تحت لواءها[4] إلّا أنّ الناس لم يكونوا أفضل حالاً بسبب الصراعات والحروب والفتن التي سادت في حكم الرستمية وقال فيها محمود إسماعيل: "**نعتقد أنّ هذه الاضطرابات يرجع بعضها إلى أسباب فقهية بينما يعزى بعضها الآخر إلى عوامل عنصرية أو قبلية أو طائفية**"[5] .

---

(1) عبد الرحمن بن رستم بن بهرام ، وبهرام هو مولى عثمان بن عفان وهو بهرام بن بهرام جور بن شابور بن باذكان بن شابور ذي الأكتاف ملك الفرس. وكان خليفة لأبي الخطاب أيام تغلبه على افريقية ولما دخل ابن الأشعث القيروان، فر عبد الرحمن إلى الغرب بما خلف من أهله وماله فاجتمعت إليه لإباضية، وعزموا على بناء مدينة تجمعهم فنزلوا بموضع تاهرت واختطه الناس مساكنهم وذلك في سنة (161هـ/777م ) وبقى بها إلى أن مات في سنة (168هـ/ 784م) . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2/ص8؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج1/ص196 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ، ج6/ص147 .

(2) اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب ، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وهي ذات سور وتقع على جبل ليس بالعالي, والأخرى تاهرت المحدثة وتقع بين تلمسان وقلعة بني حماد تبعد عن خط المغرب اثنتان وعشرون درجة ، وعن خط الاستواء ثلاث وثلاثون درجة ، وتسمى (عراق المغرب) وهي مدينة كبيرة ذات أرض خصبة واسعة البرية والزروع والمياه وفيها أشجار وبساتين ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات وما حوليها رمال وصحاري يسكنها الكثير من الناس ويعمل البعض منهم في التجارة ولها مرسى على البحر يقال له مرسى فروخ وأغلب سكانها من الخوارج الاباضية . ؛ اليعقوبي ، البلدان ، ج1/ص192 ؛ المنجم ، آكام المرجان ج1/ص100 ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ج1/86 ،الأصطخري ، المسالك والممالك ، ص39 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2/ص7 .

(3) ابن خلدون, ديوان تاريخ, ج 6/ص 147.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5/ص436.

(5) الخوارج في بلاد المغرب, ص 154.

وبالرجوع إلى الطرطوشي في قوله: "**ومثل السلطان الجائر مثل الشوكة في الرجل، فصاحبها تحت ألم وقلق ويتداعى لها سائر الجسد، ولا يزال صاحبها يروم قلعها ويستعين وبما في ميسوره من الآلات والمناقيش والإبر على إخراجها**"[1]، وفي ذلك بيان آثار السلطان الجائر في حياة الناس وانتشار تداعياته إلى أكبر عدد من الرعية وذلك يستدعي السعي والتخطيط للخلاص من ذلك الألم بفعل آثار الحاكم الظالم ممّا يسوغ لظهور المعارضة للحكم والسعي للاستعانة بقوى خارجية لقلب الموازين والمجيء بنظام حكم جديد يحمل صفة العدل والإنصاف .

أمّا دولة الأدارسة (363.173هـ/973.788م)[2] التي أسسها إدريس بن عبدالله بعد أن وصل إلى مدينة طنجة هارباً من بطش الخليفة الهادي العباسي (170.169هـ/686.685م)، وحملت اسمه بعد أن جذب البربر إليه وأعلن عن قيام إمارة الأدارسة[3]، إلى أن وصلت إلى إدريس بن إدريس (180 . 213هـ) وبعد موته قام ولده محمد الذي وزع مناطق النفوذ على إخوته[4] وكان خطأً كبيراً قاد إلى صراعات واقتتال الأخوة على الحكم والنفوذ[5] ، وتلك الحروب كان لها آثار مباشرة على حياة الناس وظروف المعيشة وغياب العدالة، وانتشار الفوضى السياسية والاجتماعية.

(1) سراج الملوك، ص461.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص210 . 214 .

(3) الطبري، تاريخ، ج8/ص198 ؛ الرازي ، اخبار فخ ، ج1/ص328 .

(4) البكري، المسالك والممالك، ج2/ص806 .

(5) البكري، المسالك والممالك، ج2/ص806 . 808 .

وذكر الطرطوشي آثار العدل في الرعية: "**واعلم أنّ عدل الملك يوجب الاجتماع عليه، وجوره يوجب الافتراق عنه، عدل الملك حياة رعيته**"[1]، وبذلك أصبح واضحاً أنّ في العدل حياة الناس وعمران البلاد وقوة الدولة تكمن في اجتماع وولاء الناس للسلطان، أمّا ما حصل في إفريقية العكس من ذلك، كانت آثار سوء السياسات وغياب الحكمة والعدل فرقت الرعية عن ملوكها ممّا أوجد الأرض الخصبة لظهور أمة جديدة شعارها العدل أخذت تنمو وتتوسع وهي تسابق الزمن لتوفر الظروف المواتية لظهورها .

وللخوض في تاريخ الدولة الفاطمية وتتبع بدايات تأسيسها نلاحظ أنّ كسب ولاء الناس وضمان رغبتهم في التغيير من خلال الأثر العلمي والأخلاقي للدعاة والقادة منهم أبو عبدالله الشيعي الذي من لقائه الأول مع حجاج كتامة[2] ومن خلال الحوار وحسن الخلق استطاع كسب ودهم وتعلقهم به، وكان ذلك في ما رواه القاضي النعمان(363هـ/973م) بقوله: "**فسمعهما أبو عبدالله يذكران لأصحابهما فضائل علي(عليه السلام) فجلس إليهما يذكر شيئاً من ذلك معهما ، فأقبل عليه جميعهم، وحدثهم طويلاً، ثم نهض ليقوم، فمشوا لمشيته وقالوا نحب أن نعرف مكان رحلك، فجاء بهم إليه فلما كان من غد أتوه فحدثهم، وأوسع في الحديث وإزدادوا فيه رغبة وعليه إقبالاً**"[3] .

---

(1) سراج الملوك، ص214 .

(2) قبيلة كبرى من قبائل البربر من فروع البرانس، يستوطنون في إقليم سطيف، يرجع أصلهم إلى كتم بن برنس، ويقيمون ببلغة كتامة، اتصفت هذه القبيلة بشدة البأس والقوة . ينظر: الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٩؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ص405 .

(3) افتتاح الدعوة , ص 35 ؛ إدريس ، عيون الأخبار، السبع الخامس ، ص45 .

لذلك عند دراسة خطوات أبو عبد الله الشيعي في سعيه للتأسيس لقيام الدولة الفاطمية نلاحظها تتطابق مع ما ذهب إليه الطرطوشي في قوله "**إقامة العدل الشرعي، والسياسة الاصطلاحية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لأزمة التدبير، السالمة من العيوب الممهدة لاستقامة الدنيا والدين**"[1] .

وذلك الإصلاح وذلك العدل كان مرافقاً لمسير أبي عبد الله الشيعي في طريق الذهاب إلى كتامة بعد أن طلب منه أهلها أن يرافقهم إلى بلادهم بعد أن أوهمهم بأنّه ذاهب إلى مصر لتعليم الصبيان فعرضوا عليه بقوة الذهاب إلى ديارهم لتعليم كبارهم دون الصغار، بعد أن شاهدوا ما أظهره من السلوك الحسن والورع في الدين، فضلاً عن علمه وبعد أن أظهر القبول لقصد ديارهم ابتهجوا وأظهروا السرور لما فعلوا وذلك بقولهم: "**إنّ هذا لمما يكون لنا بهِ الفخر وإنّا لنأتي إلى بلد كتامة بشيء ما جاء بهِ أحدٌ مذ كان قبلنا فجعلوا يزيدون في الرغبة إليه, ويقولون : عندنا كثيرٌ من إخواننا ممن يذهب إلى ما أنت عليه فلو رأوك ورآك الناس ما رضوك إلّا لشيوخهم دون صبيانهم** "[2] .

استمر أبو عبد الله الشيعي في كسب الأتباع في طريق الوصول إلى كتامة وبعد وصوله هناك تنازعوا في منزله عندهم لكرامة حضوره إلى بلادهم ولكنّه أظهر حسن التعامل مع ذلك وأخبرهم بأنّه ينزل عند فج الأخيار[3] وحدثهم عن نبوءة في ذلك المكان أنّ أنصار الإمام المهدى(عج)

---

(1) سراج الملوك، ص217 .

(2) القاضي النعمان,افتتاح الدعوة, ص 39؛ إدريس ,عيون الأخبار, السبع الخامس, ص46.45.

(3) فج الاخيار: ممر الجبلي التاريخي الذي يقع بجبل إيكجان ببلاد كتامة بالقرب من ميلة، الذي أطلق عليه الداعي أبو عبد الله الشيعي هذا الاسم تيمناً بنبوءة تاريخية تصف قاصديه بالأخيار، اتخذه الشيعي دار الهجرة والمركز الرئيسي الذي انطلقت منه الجيوش العسكرية لإسقاط الدولة الأغلبية، مما جعله حجر الأساس ونقطة الانطلاق الفعلية لتأسيس الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص38؛ المقريزي،المواعظ والاعتبار، ج3/ص21.

يخرجون من ذلك المكان وواعدهم بزيارة كل قوم في ديارهم ولا يترك أحداً منهم دون الوصول إلى منزله وبذلك أظهر سياسة الاعتدال وكسب الرعية في خطوات وصوله الأولى[1] .

ثم باشر سياسته الإصلاحية بعد أن أخذت الناس تتوافد عليه وتسمع منه أحاديثه ونقلوا عن فعله في أهل المعاصي أنّه أثر بهم وغير في سلوكهم **"ورأى أهلوهم منهم الإقبال على الصلاة والصيام وأعمال الخير، وأفعال البر، وتجنب المعاصي، وصلاح الأحوال ما دعاهم إلى الدخول في ذلك، فأقبلوا إليه من كل وجه"[2].**

بعد ظهور نشاط أبي عبدالله إلى العلن وشعور ولاة المناطق المجاورة بالخطر وبعد أن باءت محاولاتهم بالفشل بالحد من توسع نفوذه، وصل الخبر إلى صاحب أفريقية إبراهيم بن أحمد الذي أرسل مبعوثاً من قبله التقى بأبي عبدالله الشيعي وقرأ عليه رسالة فيها أسلوبان ابتدأ بالترغيب في حال ترك الأمر طوعاً، وانتقل إلى التهديد والوعيد إن استمر في إفساد الرعية بحسب قوله والخروج عن الطاعة[3] ، وجاء رد أبي عبد الله الشيعي الواثق الخطى الموقن بالنصر **"أمّا ما ذكرت من التهديد والوعيد فما أنا ممّن يروع بالوعيد والإيعاد، ولا ممن يهوله الإبراق والإرعاد،... فأمّا ما أطمع به من دنياه، وعرضه من حطامها فلست من أهل الطمع فأميل إليه ولا ممّن يرغب فيما عنده فيأتيه"[4].**

وجاءت قوة أبي عبدالله الشيعي من آثار سياسته الإصلاحية التي غيرت في سلوك أهل كتامة وإيمانهم، فضلاً عن ذلك أنّه أعاد نظام المجتمع

(1) القاضي النعمان ,افتتاح الدعوة , ص37 . 38 .
(2) القاضي النعمان ,افتتاح الدعوة , ص52 . 53 .
(3) عيون الأخبار، السبع الخامس، ص50 . 51 .
(4) عيون الأخبار، السبع الخامس، ص51 .

وأقر سياسته العدلية القائمة على الثواب والعقاب إلى أن شعر الناس بأمان لم يعتادوا عليه في حياتهم في أفريقية وذلك ما رواه الداعي إدريس(872هـ/1467م) في قوله: "**وأمر الداعي أبو عبد الله بالعدل، وأجرى من اتبعه على الحق ، وأمرهم بإقامة الشريعة ، ونهى عن الظلم ، فلم يكن عنده في شيء من ذلك من هوادة ولا رخصة ، وكان إذا وجب على أحد حق ، أو لزمه قتل جعل ذلك إلى أقرب الناس ، فكان هو الذي يقتله ، أو يقيم من الحق عليه ما حكم به الشرع الشريف ، وأوجبه ، فاستقامت الأحوال وظهر العدل ، وأمن الناس أماناً لم يسمع مثله**"[1] .

وتلك السياسة أكدها الطرطوشي في أسلوب بناء مجتمع قوي مؤمن مقتدر يكون نواة لنشر العدل والرفاه والطمأنينة وتحقق القيادة المثالية، وعلى العكس من ذلك في حال انتشار الفسق والفجور فهو أقرب للتمرد والعصيان وغياب الأمن والأمان ومن ذلك قوله: "**وما أحق بالسلطان أن يسلك بالرعية كل سبيل يصلحون عليه ويسودون معه، فحينئذ يكون رئيس الرؤساء وأميراً على السادة والفضلاء، وإن أهملهم في ركوب شهواتهم وتوسط لذاتهم، ذهبت أديانهم وسقطت مروآتهم**"[2].

وظهرت آثار سياسة أبي عبدالله في كسب أهل افريقية ومنهم بنو سكتان[3] الذين طلب منهم موسى بن العباس[4] صاحب ميلة[5] أن يحضروا

---

(1) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص61-62.

(2) الطرطوشي، سراج الملوك، ص475 .

(3) هم بطن من بطون قبيلة كتامة البربرية في بلاد المغرب، التي كان لها الدور الكبير في احتضان أبو عبد الله الشيعي ونصرته في إيكجان. ابن خلدون، تاريخ، ج ٦/ص 14.

(4) **موسى بن العباس:** وهو أمير عربي من بني سليم، عُين والياً لمدينة ميلة من قِبل الأغالبة أواخر القرن الثالث الهجري، عُرف بمتابعته لتحركات أبو عبد الله الشيعي وتجسسه على أخباره في بداية انتشار الدعوة الفاطمية بين قبيلة كتامة. القاضي النعمان ،افتتاح الدعوة، ص 171؛ ابن خلدون ، تاريخ، ج4/ص 42.

(5) ميلة: مدينة صغيرة بأقصى إفريقية قليلة الماء. ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج2/ص 244.

لـه أبـو عبـدالله الشـيعي بحجـة أنّـه أراد الوقـوف علـى أمـره والجمـع بينـه وبـين العلمـاء ليتبـين مدى علمـه وصـدقه فـي مـا دعـى إليـه ولكـن تلـك الحيلـة لـم تنطـلِ علـيهم علـى الـرغم مـن أنّـه جمـع بـين الطلـب مـنهم والتهديـد والوعيـد إذا لـم يسـتجيبوا فإنّـه يقـوم بإيصـال أمـرهم إلـى إبـراهيم بـن أحمـد الـذي بإمكانـه أن يـأتيهم بجـيش لا قبـل لهـم بـه ومـع ذلـك كـان ردهـم قويـاً وحاسـماً وذلـك فـي قـولهم: "**مـا كنّـا بمـن يسـلمه، ولا يخذلـه، ولا يـدع أحـداً تمتـد يـده إليـه، وهـو ضيفنا وبين أظهرنا**"[1] .

وتلـك السياسـة لـم يحملهـا أبـو عبـد الله الشـيعي فقـط وإنّمـا كانـت فكـراً وأمـلاً أسـس لـه الـدعاة الإسـماعيلية ليبينـوا ملامـح دولـتهم الموعـودة التـي شـعارها العـدل ودسـتورها الـنص القرآنـي وذلـك مـا بيّنـه القاضـي النعمـان(363هـ/973م) فـي قولـه: "**والله أعلـم بخلقـة، فلـو علـم (عـز وجـل) أنّهـم يصـلحون علـى غيـر ذلـك لمـا جعـل لهـم ثوابـاً وعقابـاً، ولـو علـم أنّ الثـواب يجـزي مـن دون العقـاب والعقـاب دون الثـواب لمـا جعلهـم معـاً ولكنّـه (عـز وجـل) علـم أنّ طبـاع البشـر التـي جبلـوا عليهـا أنّـه لا يصـلحهم إلّا الثواب والعقاب**"[2] .

وتعمقـت الإخـوة وصـلح حـال المجتمـع وقيـل فـي ذلـك: "**تحامـى عـن فضـائح العيـوب عامـة النـاس خوفـاً ورغبـة وتقيـة ورهبـة، وأيقنـوا أنّـه لا رخصـة فيـه، ولا صـفح عنهمـا، فانحسـمت أطمـاعهم منهـا , وانقطـع الفسـاد والخيانة , وفشا الورع في الدين والأمانة**"[3].

(1) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص54 .

(2) افتتاح الدعوة , ص 122 .

(3) افتتاح الدعوة، ص 121 .

وبعد أن انتشر في الأرجاء سياسة العدل والصلاح التي أسس لها الشيعي أخذت الناس تقبل عليه وظهرت علامات نشوء الدولة الفتية وأخذت المناطق تتهاوى واحدة تلو الأخرى لسخط أهلها على حكامها والرغبة في الخلاص من الظلم والجور، ومنها مدينة ميلة ثم فتح طبنة[1]، والسيطرة على الأربس[2] وبذلك تهاوى ملك بني الأغلب، وبعد دخول مدينتي رقادة[3] والقيروان[4] بدأت معالم وسياسات الدولة الفاطمية في الظهور وأعلن أبو عبدالله الشيعي سياسته العدلية التي بدأها بإعطاء الأمان لجميع أهل القيروان بما فيهم رجالات دولة الأغالبة وليس ذلك فحسب بل أدخلهم في

(1) هي مدينة كبيرة من أعظم بلاد الزاب لها حصن قديم عليه سور من حجر لم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها وهي حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير فتحها موسى بن نصير وبها أخلاط من العرب والعجم والأفارقة والروم . اليعقوبي ، البلدان ، ص190 ؛ البكري ، المسالك والممالك ، ج2/ص711 ، الادريسي ، نزهة المشتاق ، ج1/ص263 .

(2) مدينة وكورة بافريقية ،وكورتها واسعة وأكثر غلتها الزعفران وبها معدن الحديد ولا شجر بها أنما هي مزارع الحنطة والشعير وبينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة الغرب وبينها وبين باجة مرحلتان وهي مدينة مسورة ولها ربض كبير. ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج1/ص136 ؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1/ص50 ؛ الحميري، الروض المعطار، ج1/ص24 .

(3) هي بلدة بافريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام وأكثرها بساتين ولم يكن بافريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيما وأرق تربة منها وهي دار ملك بني الأغلب بنيت من قبل ابراهيم بن أحمد وانتقل اليها من مدينة القصر القديم وبنى بها قصوراً وجامعا وعمرت الأسواق والحمامات والفنادق . البكري ،المسالك والممالك ،ج2/ص679 ؛ ياقوت الحموي ،معجم البلدان ،ج3/ص55 ؛ الحميري، الروض المعطار،ج1/ص 271.

(4) هي قاعدة البلاد الأفريقية وأُم مدائنها ،وكانت أعظم من المغرب وأكثرها بشراً وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالاً وأربحها تجارة وأكثرها جباية وكانت مدينتان القيروان وصبرة . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج2/ص420 ؛ الحميري، الروض المعطار، ج1/ص486 .

مهام دولته الناشئة للإفادة من خبراتهم في الإدارة والأعمال وبدأت الرعية تستشعر العدل ممّا عاد على الدولة بالقوة واستقرار الأوضاع، أمّا حالات الفساد والمجون التي كانت مستشرية في دولة الأغالبة، بدأ بطلب رموزها وإنزال العقوبة بهم حتى وصلت إلى القتل، ومنع الخمور وسادت معالم الصلاح لدى الرعية[1] .

وعند دخول عبد الله المهدي إلى مدينة القيروان منتصراً يوم الخميس من سنة (297هـ/934م) استقبله سادات أهل القيروان من الفقهاء والشيوخ والزعماء وهم فرحين مستبشرين بالحكم الجديد وما أملوا فيه من الحكمة والعدل[2].

وبعد وصول عبد الله المهدي إلى أفريقية عمل على التقرب من الناس من خلال التسامح والعفو عن الجميع بما فيهم رجال دولة الأغالبة حتى قيل فيه: "**ولم يبقى أحد من أهل أفريقية من العرب والعجم من وجوه الناس وغيرهم إلّا استقبلوا المهدي** (عليه السلام) **يوم دخوله أفريقية... نادى بالأمان لجميع الناس في سائر البلدان، ونادى بالأمان لعبد الله بن القديم وأيوب خليفة زيادة الله**"[3] .

وبيّن الطرطوشي أهمية تلك السياسة من خلال حوار بين أرسطاطاليس والإسكندر (236هـ-232 ق.م) وذلك في قوله: "**كتب أرسطا طاليس إلى الإسكندر: املك الرعية بالإحسان تظفر منهم بالمحبة، فإن طلب ذلك منهم بالإحسان هو أدوم بقاء منهم بالاعتساف. واعلم أنّك إنّما**

(1) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 246 – 247 .

(2) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص291 .

(3) الحاجب جعفر، سيرة، ص131 . 132 .

**تملك الأبدان ، فتتخطاها إلى القلوب بالمعروف"[1]**، أي أنّ امتلاك القلوب أدوم لبقاء الملك من امتلاك الأبدان .

وأظهر عبد الله المهدي سياسة الرفق والإحسان وإحقاق الحق، وسمع المظالم بنفسه وأنصف أهلها، وتعامل كذلك مع بني الأغلب وأتباعهم ومواليهم وقربهم من مجلسه وأوكل لهم المهام والمناصب لمن صلح لها، لذلك قيل في حبّ الناس له "**فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة، وعظم في عيونهم وقلوبهم"[2]** .

وكانت الكفاءة أساس البقاء في المنصب ليس فقط الأمانة والدين ومن ذلك عزل إسحاق بن أبي المنهال[3] وارجاعه مرة ثانية (312هـ/924م) وقال فيه المهدي "**وإنّما كنّا عزلناك للينك ومهانتك! ورددناك لدينك وأمانتك"[4]**، ومن ذلك إشارة إلى الرقابة والتقييم والعمل بمبدأ الثواب والعقاب.

وكان على رأس الجيش خليفته القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٥ م). الذي كان يده التي ضرب بها المتمردين والقلب الرحيم الذي تربى على العفو والإحسان، ومن حركات التمرد التي ظهرت في عهد

(1) سراج الملوك، ص477 .

(2) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص306 .

(3) إسحاق بن أبي المنهال :فقيه مالكي، تولى قضاء القيروان في أواخر العهد الأغلبي وبداية العهد الفاطمي في القرن الثالث الهجري، عُرف بعلمه وأمانته، عزله المهدي من القضاء سنة ٣١٧هـ/929مـ وعين بدلاً منه محمد بن عمران، ثم أعاده ثانية للقضاء لدينه وأمانته، استمر بالقضاء في السنوات الأولى من خلافة القائم بأمر الله . ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص 188-189؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ج4/ص 99؛ المقريزي، المقفى الكبير ،ج4/ص 565.

(4 ) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص189 .

عبد الله المهدي وأسند قيادة الجيش فيها إلى خليفته القائم هو تمرد في بلد كتامة الذين نصبوا صبياً وادعوا أنّه المهدي ونسبوا له كرامات وتوسعت حركتهم حتى سيطروا على ميلة، ممّا اضطر القائم الى قيادة جيش بنفسه وقضى على حركتهم وقتل مهديهم ومع ذلك فإنّه عفى عنهم وآمنهم[1]، وكذلك فعل مع مناطق أخرى منها طرابلس وقيل فيها: "**ثم خالف أهل مدينة طرابلس فأخرج إليها القائم ، فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة فعفا عن عامتها من أهلها وقتل الذين عقدوا الخلاف بها من أكابرها**"[2]، ومن ذلك نلاحظ أنّ معالم سياسة الفاطميين القضاء على التمرد بحزم ومعاقبة قادة الحركة والعفو عن قواعدهم والمظللين من عامة الناس لكسب أكبر قدر من الرعية، فضلاً عن ذلك التقليل من اتساع قواعد المعارضة والتمرد والسعي لكسب رضى الناس من خلال العفو والإحسان عند المقدرة .

وبعد وفاة عبد الله المهدي وصلت الخلافة إلى القائم بأمر الله الذي واجهت الدولة الفاطمية في عهده سلسلة من التمردات والثورات[3]، كادت تطيح بالحكم الفاطمي وأكثرها خطراً حركة مخلد بن كيداد[4] الذي وقف على أسوار المهدية[5] سنة ( 333هـ /944م)، وكانت أسباب تلك الحركات المعارضة متعددة منها حكم الفاطميين لخليط غير متجانس في المغرب كان له جذور في الاختلافات القبلية

(1) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص325 .

(2) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص325 .

(3) ينظر: حيدر ناصر، الخليفة القائم، ص142 . 167 .

(4) بن سعد الله بن مغيث الزناتي النكاري ، أبو يزيد من زعماء الإباضية وأئمتهم بربري الأصل ، كان يغلب عليه الزهد والتقشف ، ويلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج1/ص235 ؛ الزركلي ، الأعلام ،ج7/ص194 .

(5) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص328 .

والحضارية والمذهبية[1] جعل تلك المناطق أرض خصبة للصراعات والحروب المستمرة، أضف إلى ذلك توفر الدعم الخارجي الذي مثلته الدولة الأموية في الأندلس وبالأخص في مدة حكم عبد الرحمن الناصر (300.350هـ/912.961م) الذي وصف بأمير المؤمنين وأعلن نفسه خليفة للمسلمين سنة (316 هـ/ 928م) وحمل لقب الناصر لدين الله[2]، وكان لذلك أثر كبير في مناطق واسعة من أرض المغرب، ومع ذلك استطاع القائم الصمود ولديه الثقة العالية بالنصر وهو القائل: **"لو جاءني أبو يزيد حيث يأخذ بحلقتيّ هذا الباب ما خرجتُ إليهژ ژ ژ و و ۏۏ ژ[3] وليبتلي الله المؤمنين ويمحق الكافرين، والذي نفسي بيده لينجز لنا وعده ولو كره المشركون"** [4]. وتلك الطمأنينة لابد أنّها جاءت من حسن الضن بأتباعه وسيرته في الرعية التي ساهمت في سمو مكانته بين الناس وقادت إلى التمسك بالحكم الفاطمي والمساعدة في نصرته على أعدائه.

وبيّن الطرطوشي أنّ قيمة الإنسان الحقيقية لا تتغير بتقلبات الزمان وذلك في قوله: "**لا تنظر إلى أحد بالموضع الذي رتبه فيه زمانه، ولكن انظر إليه بقيمته في الحقيقة فإنّها مكانه الطبيعي**"[5]، وتلقب القائم بلقب أمير المؤمنين[6]، وفي ذلك اللقب دلالة على سعيه لامتلاك المكانة الروحية لدى الرعية إضافة إلى مكانته كخليفة وحاكم للبلاد وكان ذلك من عوامل الصمود والبقاء .

---

(1) ينظر: الكشاوي، الدولة الفاطمية، ص115 . 121 .

(2) الضبي , بغية الملتمس ، ج1/ص 39 ؛ السلاوي ، الأستقصا ،ج2/ص110 .

(3) سورة الأنفال ،الآية :44.

(4) الداعي إدريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص203 .

(5) سراج الملوك، ص779 .

(6) المقريزي، المقفى، ج6/ص92 .

وبعد القائم جاء المنصور بنصر الله (334-341 هـ/946-953م) فابتدأ حكمه بإطلاق سراح المساجين الذين كانت جرائمهم القدح في الدولة الفاطمية أمّا أصحاب الجرائم الكبيرة التي تساهم في نشر الفساد والخراب في البلاد فقد أصدر الأمر بقتلهم[1]، وعلى صعيد آخر اهتم بالفقراء والمساكين كثيراً حتى سادت إصلاحاته في أغلب أراضي الدولة وقيل في ذلك: " **ووصل الفقراء والمساكين، ووجّه مراكب كثيرة مشحونة بالطعام إلى فقراء مدينة سوسة المستورين بها ففرّقت فيهم، لما قاسوه من حصار أبي يزيد، فاتّسع ببركة أيّامه الحاضر والبادي، والشاسع والداني. وأقرّ الأمور على حالها ولم يغيّر السكّة ولا البنود**"[2] .

ونقل الطرطوشي عن اردشير[3] قوله في بعض الذين قدموا إليه للحكم في أمرهم بتهمة فساد نياتهم: "**نحن معاشر الملوك إنّما نملك للأجساد لا النيات، ونحكم بالعدل لا بالرضى ونفحص عن الأعمال لا عن السرائر**"[4]. وذلك ما عمل به المنصور في إطلاق سراح من كانت لديهم نيات فاسدة وعاقب من كان لهم أفعال سيئة كان لها أثر في نشر الفوضى والخراب في البلاد.

---

(1) المقريزي، المقفى، ج2/ص76 .

(2) المقريزي، المقفى، ج2/ص76 .

(3) أردشير بن بابك بن ساسان، مؤسس الإمبراطورية الساسانية سنة ٢٢٤ م، بعد إسقاطه الحكم البارثي، نجح بتوحيد أقاليم إيران تحت سلطة مركزية صارمة، وجمع السياسة بالديانة الزرادشتية كعقيدة رسمية للدولة لتعزيز شرعيته، قاد سياسة خارجية هجومية ضد الرومان لاستعادة أملاك أجداده الأخمينيين ليرسي بذلك القواعد الإدارية والثقافية لحضارة استمرت أربعة قرون الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج2/ص 37؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص ٣٤٨ وما بعدها .

(4) الطرطوشي، سراج الملوك، ص478 .

وتبينت معالم سياسة المنصور بنصرالله على الرغم من الحروب الطويلة التي خاضها مع أعدائه وما تحقق على يديه من انتصارات وإعادة المناطق والأراضي التي خرجت عن نفوذ الفاطميين إلّا أنّه لم يحد عن سياسة العفو والإحسان مع الرعية على الرغم ممّا أحدثوا وذلك في قولهم: "**وأطفأ الله بالمنصور الفتنة واستنقذ به الأمة وسار بالعفو والصفح عمن قدر عليه ممن نصب الحرب له وسعى في الفتنة إليه**"[1].

واستدل الطرطوشي على فضل العفو والإحسان من الآية القرآنية وقال سبحانه: **ژ ڈ ڈژ ژ ڑ ڑ ک ک ککگ گ گ ڳ ڳ** ژ [2]. **فاستعطف الخلق وندبهم إلى أن يعفو عن الجناة والظالمين والخاطئين كما يحبون أن يفعل الله بهم**"[3].

أمّا على المستوى الاقتصادي وصف الإدريسي(ت560هـ/1164م) الرفاه الذي كان يعيشه الناس تحت ظل الحكم الفاطمي ومنها عن مدينة المهدية عاصمة الدولة الفاطمية في المغرب بقوله: "**وهي في ذاتها حسنة الداخل والخارج بهية المنظر وأهلها حسان الوجوه نظاف الثياب**"[4]، وعن زويلة[5] بقوله "**وبمدينة زويلة الأسواق الجميلة والمباني الحسنة والشوارع**

(1) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص334 .

(2) سورة النور، الآية 22 .

(3) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص306 .

(4) نزهة المشتاق، ج1/ص282 .

(5) زويلة : من أقدم الخطط السكنية داخل القاهرة الفاطمية حيث تقع في قلب القاهرة، تعود تسميتها إلى قبيلة زويلة الأمازيغية التي وفدت من بلاد إفريقية مع جيش القائد جوهر الصقلي عند تأسيس المدينة سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م، وخصصت لها هذه المنطقة لتستوطنها . المقريزي المواعظ والاعتبار،ج3/ص 8.

**الواسعة والأزقة الفسيحة وأهلها تجار مياسير نبلاء ذوو أذهان ثاقبة وأفهام ذكية"[1] .**

وبعد وصول الخلافة إلى المعز لدين الله (٣٤١ – ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ – ٩٧٥ م) كان لهيب الفتن لم يهدأ بعد ومناطق الأطراف وبالأخص التي حوت تضاريسها جبال وعرة، ومنها مناطق البربر[2] ، من بني كملان ومليلة وهوارة [3] أقدم المعز على إرسال حملة عسكرية في سنة 342هـ/952م وصلت إلى جبل أوراس[4]أخضع تلك المناطق لحكم الدولة وأنهى التمردات فيها ممّا اضطرهم إلى طلب العفو فعفى عنهم كسيرة آبائه ممّا أدى بالنتيجة إلى انتشار الهدوء وازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية وقيل في ذلك: "**ووضعت الحرب أوزارها وخمد دخانها وطفئت نارها وأمنت السبل وهدأت الروعات وسكن الناس واطمأنوا وألف الله به قلوب العباد وقطع به أسباب الفساد ودانت له الأطراف والقبائل بكل دان وشاسع وقريب وناء وأتاه محمد بن خزر أمير البربر مستسلما إليه وملقياً بيده طالباً للصفح والعفو فمنحه ذلك تفضلاً منه**"[5]، وتلك السياسات التي تعمل

(1 ) نزهة المشتاق، ج1/ص282 . 283 .

(2) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص335 .336 ؛ ابن الأثير، الكامل، ج7/ص200؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص93 .

(3) هوارة: قبيلة تنتشر بشكل واسع بشمال إفريقيا، تنسب إلى هوار بن أوريغ بن برنس البربري . ابن خلدون ، تاريخ ، ج6/ص 182 .

(4) جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر.، وَكَانَ فِيهِ بَنُو كَمْلَانَ، وَمُلَيْلَةَ، وَقَبِيلَتَانِ مِنْ هَوَارَةَ ، وكانوا يرون رأي الخوارج الإباضية ، ويبلغ طوله اثنا عشر يوماً ومياهه كثيره وعمارته متصلة. الادريسي ، نزهة المشتاق ، ج1/ص264، 277؛ ابن الأثير، الكامل، ج7/ص200؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج1، ص278.

(5) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص335 . 336 .

على ضرب التمردات والعفو عن أصحابها الذين يدينون بالولاء والطاعة هي صفات الدولة المسؤولة عن أرواح الناس وأمنهم سواء أكانوا موالين أم مخالفين وتلك السياسة كان لها أثر على حياة الناس وتغيير الولاءات وانتعاش ظروف المعيشة .

ومن عطاء المعز للرعية ما رواه المقريزي (845هـ/1441م) عند طهور أبنائه أصدر أوامره إلى جميع ولاته: "**فحين عزم على طهورهم كاتب عماله وولاته من لدن برقة إلى أقصى سجلماسة، وما بين ذلك، وما حوته مملكته إلى جزيرة صقلية وما والاها، في حضر وبدو، وبحر وبر، وسهل وجبل، بطهور من وجد من أولاد سائر الخلق، حرهم وعبدهم، وأبيضهم وأسودهم، ودنيئهم وشريفهم، وملهم وذميهم، الذين حوتهم مملكته، لمدة شهر، وتوعد على ترك ذلك، وأمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسوتهم، وما يصلح أحوالهم من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغيره بمقدار رتبهم وأحوالهم، فكان من جملة المنفق في ذلك ممّا حمل إلى جزيرة صقلية وحدها من المال سوى الخلع والثياب خمسون حملاً من الدنانير، كل حمل عشرة آلاف دينار، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على أهل عمله**"[1] .

ومن ذلك العمل هنالك عدة إشارات منها الرعاية المسؤولة من قبل الخليفة الفاطمي لجميع رعايا الدولة دون تمييز على المستوى القبلي أو الديني أو العرقي أو الاجتماعي، أضف إلى ذلك سعيه لأجل كسب الرعية وودها من معاملة جميع الأطفال في الدولة كأبناء الخليفة وإدخال السرور في جميع أرجاء حكمه ، وكذلك هناك إشارة إلى المستوى الاقتصادي في

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص94 .

دولة المعز ومقدار السيولة النقدية المتوفرة من دلالات تحسن الظروف المعاشية في العصر الفاطمي في الدور المغربي .

ومن جانب آخر نجد أنّ المعز لدين الله عانى في حكم بلاد المغرب بسبب طبيعة المجتمع المغربي وتغيير الولاءات بين مرحلة وأخرى ومن ذلك حديثه مع جوذر (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م).نجده نعى أيامه بقوله: "**لو أنّ نفساً احترقت بلهبها وحز ما يجده الجسم الذي هو مسكنها , لكانت تلك النفس نفسي ممّا أقاسيه في كل وجه ثم لا أفتح عيني على معين, بل أجد الكل معيناً على التمزيق، وإذا ضاقت نفسي خرجت من الحجر الذي أنا فيه طمعاً أن أجد الراحة, فاشتغل بما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا فأنظر إلى نفسي, فأتصورها بصورة مجنون بين عقلاء , وعاقل بين مجانين, فأتعزى بما سمعت المنصور بالله يصفه عن المهدي صلوات الله عليهما وعلى سلفهما وخلفهما, كان يقول في كثير الأحايين وهو ماشي (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) فعلمت أنّه كان يجد ما أوجدهُ أنا في وقتي هذا**"[1] .

من حديث المعز دلالات على صعوبة السياسة والحكم لأرض المغرب وليس أمراً خاصاً في مدة حكمه وإنّما تلك صفة عامة في تلك البلاد والدليل التشابه في ما لاقاه آباؤه من قبل ومع ذلك فإنّ المعز كانت له دراية تامة بأحوال الرعية وكان جاد العمل ساعياً لإحراز مصالح المجتمع والتقليل من فجوة الأغنياء والفقراء والسعي لاختيار الأصلح للعامة من الولاة ومن ذلك ما ذكر في إحدى المجالس التي قال فيها المعز لدين الله: "**وقد حضر عامة أوليائنا ومن قد نستعمله على رعايانا، ونتوخى فيه من الخير ما نظن به**

(1) الجوذري , سيرة الأستاذ جوذر , ص 107 .

**أنه يمتثل فيهم أمرنا، فيوفي بحسن سيرته فيهم أموال أغنيائهم، ينعش بذلك فقراءهم، كما يجب أن يجري ذلك فيهم، ويمتثل الحق في صغيرهم وكبيرهم، ويعمل بأمرنا فيهم، فرحم الله من فعل ذلك و امتثل، ولا يرحم من تعداه وتجاوزه ولا غفر له وحرمه شفاعتنا عنده"**[1] .

وبيّن الطرطوشي أهمية الحاشية للسلطان وبالخصوص إن كانوا من أهل العلم والحكمة والرأي وذلك الخيار إن دلّ على شيء فهو كمال السلطان ورجاحة عقله "**كذلك السلطان ينبغي أن يكون الأقرب فالأقرب إليه أهل العلم والعقل والأدب، والرأي والأصالة والشرف والحصافة وذوي الكمال من كل قبيلة، وإن كان على خلاف ذلك فهو نقص في التدبير وكما أنّ جمال العقد بواسطته، كذلك جمال الرعية بكمال سلطانهم وفضله وبراعته وعدله"**[2] .

(1) القاضي النعمان ، المجالس والمسايرات ، ص559 .

(2) سراج الملوك، ص461 .

## المبحث الثاني

## محاسن سياسة الفاطميين في مصر

كانت مصر في وجدان الفاطميين منذ بداية تأسيس دولتهم لأنّهم أدركوا أنّ تلك الأرض هي الأصلح والأبقى لهم من سائر أرض أفريقية، والدليل على ذلك إرسال عبد الله المهدي الحملة الأولى إلى مصر سنة (301هـ/913م) على يد خليفته القائم وأنّ الزمان وقائد الحملة دلّ على أهميتها بالنسبة للفاطميين واستولى القائم على برقة ثم دخل الإسكندرية واستحوذ عليها وبعدها الفيوم وبذلك استولى على المساحة الأكبر من البلاد إلّا أنّ ارسال المقتدر بالله(295. 320هـ/907 .932م) العباسي قوة عسكرية كبيرة اضطر القائم على أثرها إلى ترك البلاد والرجوع إلى أفريقية[1].

وأعقبها المهدي بحملة أخرى قادها حباسه بن يوسف[2] الذي سار من برقة بجيش تعداده أكثر من مائة ألف مقاتل ودخل الإسكندرية في محرم من سنة (302هـ/914م)، ولم يقدر لتلك الحملة الصمود والبقاء بأرض مصر بسبب قوة المقاومة والتعزيزات التي أرسلها الخليفة العباسي[3] ومع ذلك بدا أنّ هناك أنصاراً وأتباعاً للفاطميين من داخل مصر شجعوا على دخول البلاد وذلك من خلال أبيات لأحد الشعراء المناوئين للفاطميين قال فيها :

---

(1) المقريزي، المقفى الكبير، ج6/ص94 .

(2) حباسة بن يوسف : أبو داود مياسة بن يوسف الكتامي، زعيم قبيلة كتامة، قائد عسكري في الدولة الفاطمية في المغرب، كان له أثر كبير في إقامة الدولة الفاطمية في إفريقية، كلفه عبيد الله المهدي بغزو مصر مرتين الأولى سنة ٣٠١ هـ والثانية سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م، لكنه فشل بالسيطرة عليها وهزمه مؤنس الخادم قائد العباسيين وقتل من جيشه خلقاً كبيراً فهرب إلى القيروان وهناك قبض عليه المهدي وقتله في القيروان بنفس السنة ،الكندي ،الولاة والقضاة ،ص 195؛ ابن الاثير ،الكامل ، ج6/ص 653؛ المقريزي، المقفى الكبير ،ج3/ص 90؛ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة، ج3/ص 184.

(3) الكندي، الولاة والقضاة، ص195 .

**وَقَـــدْ وَافَـــى حَبَاسَـــةُ فِـــي كَتَـــامٍ بَكُـــلِّ مُهَنَّـــدٍ وَبِكُـــلِّ خِطِّـــي**
**وَقَـدْ حَشَـدُوا لِمِصْـرَ وَدُونَ مِصـرِ لَـــهُ خَـــرْطُ الْقَتَـــادِ وَأَيَّ خَـــرْطِ**
**وَأَقْبَـــلَ جَـــاهِلًا حَتَّـــى تَخَطَّـــى وَجَـــازَ بِجَهْلِـــهِ حَـــدَّ التَّخَطِّـــي**
**بِكُتْـــبِ جَماعَـــةٍ قَـــدْ كَـــاتَبُوهُ مِـــنَ اقْبَـــاطٍ بِمِصـــرَ وَغَيْـــرِ قِبْطِـــي**
**وَكُـــلٌّ كَـــاتَبُوهُ وَنَافَقُونَـــا وَكُـــلٌ فِـــي الْـــبِلادِ لَـــهُ مُـــوَطِّي[1]**

والظـاهر مـن تلـك الأبيـات كثـرة العـدد وقـوة السـيوف، فضـلاً عـن وجـود أعـوان ومريـدين للفـاطميين لا يسـتهان بهـم ممّـا سـاهم فـي تعجيـل إرسـال الحمـلات وتتابعهـا نحـو مصـر مـن قبـل عبـد الله المهـدي، ولا سـيما أنّـه أرسـل حملـة أخـرى علـى رأسـها ولـي عهـده القـائم بـأمر الله فـي سـنة (306هـ/918م) ودخـل إلـى الإسـكندرية فـي صـفر مـن عـام (307هـ/919م) وحقـق انتصـارات كبيـرة فـرّ علـى أثرهـا الجـيش المـدافع عـن مصـر وأرسـل القـائم كتبـاً إلـى مكـة لـدعوة أهلهـا للطاعـة، وبعـث المهـدي قـوة بحريـة إلـى الإسـكندرية بقيـادة سـليمان الخـادم[2] لمسـاندة قواتـه هنـاك، إلّا أنّ صـمود بعـض القـوات المتواجـدة فـي مصـر مـع إرسـال الخليفـة المقتـدر بـالله (295 . 320هـ/907 .932م)حملـة كبيـرة بقيـادة مـؤنس المظفـر وتعـرض قـوات القـائم لوبـاء وقلـة فـي المـؤن أدى الى ترك مصر والرجوع إلى المهدية[3] .

(1) الكندي، الولاة والقضاة، ص196 . 197 .

(2) سليمان الخادم : أمير بحر فاطمي قاد الجناح الاستراتيجي البحري في الحملة الفاطمية الثانية لغزو مصر، تولى توجيه أسطول المهدية الضخم المكون من ٨٠ سفينة حربية لإسناد زحف جيش القائم بأمر الله براً، خاض مواجهة بحرية فاصلة في خليج أبو قير بالإسكندرية سنة ٣٠٨هـ / ٩٢٠ م ضد الأسطول العباسي بقيادة ثمل الدلفي، واجه تفوق الخصم باستخدام النار الإغريقية الحارقة، أسفرت المعركة عن تدمير معظم القطع البحرية الفاطمية وسقوط القائد سليمان أسيراً مع كبار رجاله واقتياده مكبلاً إلى الفسطاط . ابن الأثير ،الكامل في التاريخ، ج6/ص 659؛ المقريزي، المقفى الكبير ،ج6/ص 173.

(3) المقريزي، المقفى الكبير، ج6/ص94 . 95 .

ويبدو من ظاهر الأحداث أن هناك مقبولية للدولة الفاطمية التي نشأت في المغرب في أوساط المجتمع المصري لتوارد الأخبار عن محاسن سياستهم والقوانين العدلية التي سادت في مناطق نفوذهم بالنقيض ممّا كان سائداً في مصر من ظلم وفوضى وأزمات اقتصادية وفي إطار ذلك بيّن الطرطوشي(520هـ/1126م) آثار الحاكم الظالم على الحياة وكيف تكون تحت ظل السلطان العادل في قوله: "**كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصي والآثام وتورث دار البوار، وذلك أنّ السلطان إذا عدل انتشر العدل في رعيته وأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم، ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور، وانتعشت قوانين الحق**"[1] .

وإذا أخذنا المدة التي أخذ الفاطميون يضاعفون جهودهم من أجل بسط نفوذهم على مصر وذلك بعد ضعف العباسيين وسيطرة البويهيين على مقاليد الحكم سنة (334هـ/945م) وهو العام الذي توفى فيه محمد بن طغج الإخشيدي[2] وظهرت شخصية كافور الأخشيدي[3] الذي كان وصياً على العرش لصغر سن أبناء محمد بن طغج، وهم كل من أبو القاسم أنوجور الذي توفي في شهر ذي القعدة من سنة (349هـ/960م) وتولى بعده أخوه

(1) سراج الملوك، ص187 .

(2) محمد بن طغج بن جف بن بلتكين من أبناء ملوك فرغانة المنعوت بالإخشيد ومعناه ملك الملوك أقدم أبيه المعتصم بالله العباسي من فرغانة وأكرمه وأعطى أصحابه قطائع كبيرة ولد في بغداد سنة (268هـ/881م) ولي طرسوس من قبل الخليفة المعتضد بالله ثم بعدها انتقل إلى ولاية مصر سنة (321هـ/933م) في خلافة القاهر بالله. المقريزي، المقفى الكبير، ج5/ص745.746 .

(3) هو كافور الأسود الخصي الرومي مولى الأخشيد الذي كان وصياً على أبنائه بعد وفاته لصغر سنهم وصار هو من يتولى تدبير البلد كله ثم ولاه الخليفة المطيع سنة(355هـ/965م) على الحرب والخراج وجميع أمور مصر والشام والحرمين وكان يخاطب بالأستاذ إلى أن مات سنة(357هـ/967م) . المقريزي ،المواعظ والاعتبار،ج2/ص148 ؛ المقفى الكبير،ج2/ ص316 .

أبو الحسن علي إلى أن توفى في محرم من سنة (355هـ/965م) واستمر كافور طيلة تلك المدة المدبر لشؤون الملك بالوصاية إلى تلك السنة التي أصبح فيها حاكماً فعلياً للبلاد المصرية[1]. وفي مدة سلطة كافور لم تتهيأ الظروف للفاطميين من التحرك نحو مصر حتى أنّ عيون المعز ودعاته أشاروا عليه بصعوبة ذلك بوجود كافور وذلك في قولهم: "**إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها**"[2] وبالفعل بعد موت كافور سنة (357هـ/967م)، اضطربت أحوال مصر وعمت الفوضى حتى قيل "**مات كافور, فكثر الاضطراب وتعددت الفتن وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير وانتهبت أسواق البلد, وأحرقت مواضع عديدة, فاشتد خوف الناس وضاعت أموالهم وتغيرت نياتهم**"[3] .

وبحصول تلك الأحداث زادت رغبة المصريين في الدخول تحت ظل الدولة الفاطمية الناشئة وبعد أن تهيأت جميع الظروف المساعدة للحملة[4]، خطب المعز بالجيش وبيّن أنّ فتح مصر في متناول اليد وهو من المحتوم وبين سياسات المستقبل القريب منها بناء مدينة القاهرة وقال في ذلك: "**والله لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر, وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب, ولينزلن في خرابات ابن طولون، وتبتنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا**"[5]، وتبيّن حقيقة ما تنبأ به المعز فقد دخل جوهر مصر بدون قتال وقيل في ذلك: "**أخذ جوهر مصر بلا ضربة ولا طعنة ولا**

---

(1 ) ابن زولاق، اخبار سيبويه، ص70 .

(2) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ،ج17/ص431 ؛ المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 1/ص 102 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ،ج4/ص72 .

(3) المقريزي , إغاثة الأمة, ص 88 .

(4 ) ينظر: الكشاوي، الدولة الفاطمية، ص151 . 153 .

(5) الدوإداري , كنز الدرر , ج 6/ص 138 ؛ المقريزي , المقفى الكبير , ج 3/ص 87 .

**ممانعة**"[1] وكان كلام المعز ليس مجرد تنبؤات وإنّما جاءت من دراية ومعرفة بأحوال المنطقة، أضف إلى ذلك سياسة وعمل وجهود مكثفة لغرض توفير كل ما من شأنه تسهيل مهمة جوهر في دخول مصر.

أمّا الغرض من بناء مدينة القاهرة كان ضرورة عملية لتجنيب الجيش من الاختلاط المباشر بالناس لما له من آثار سلبية تخلفه الجيوش عندما تدخل مناطق مأهولة بالسكان، فضلاً عن الأعداد الكبيرة للجيش الفاتح الذي ذكره المقريزي(845هـ/1441م) بقوله: "**لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر بن فليبس المقدوني أكثر عدداً من جيوش المعز**"[2]، أضف إلى ذلك الأهمية الإستراتيجية للمدينة الذي ثبت مستقبلاً في صمودها أمام الأعداء وكانت حصناً لمصر، وبالفعل خط جوهر مدينته الجديدة التي أسماها المنصورية إشارة إلى آباء المعز ثم تغير اسمها إلى القاهرة التي أصبحت المركز الإداري والعسكري للدولة الفاطمية لذلك ذكرها المقريزي (845هـ/1441م) ي بقوله: "**لم تزل القاهرة دار خلافة ومنزل ملك, ومعقل قتال لا ينزلها إلّا الخليفة وعساكره**"[3] .

وذكر الطرطوشي أهمية إعداد تدابير للحرب تلائم البلد أو الأمة المراد دخول أراضيها لتحقيق النصر بأفضل الوسائل والخطط، ليس فقط بالألة العسكرية وإنّما ترك مساحة من التفاوض والاتفاقات وإطلاق العهود والمواثيق بما له مكاسب وآثار في التخفيف من المعارضة والقبول بالأمر الواقع وقال في ذلك: "**واعلموا أنّ الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتبا، ورتبوا فيها ترتيبًا، فلا يسع سائر أهل الأقاليم حملها، إذ لكل أمة في**

(1) ابن كثير, البداية والنهاية, ج 11/ص 266؛ السيوطي , حسن المحاضرة , ج 1/ص 599.
(2) المواعظ والاعتبار , ج 1/ص 177 .
(3) المواعظ والاعتبار , ج 2/ص 208 .

**الغالب نوعٌ من التدبير، وصنفٌ من الحيلة، وضربٌ من المكيدة، وجنسٌ من اللقاء والكر والفر، وتعبية المواكب وحمل بعضهم على بعض، ولكن نصف منها أشياء تجري مجرى المعاقد لا تكاد تختلف في أنهاء أزمة الحروب"**[1] .

ومن ذلك ما ذكره قائد المعز جوهر الصقلي في أنّ سيده جيّش الجيوش لأجل اعزاز أهل مصر وذلك في قوله: "**وهو أنّه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة, والجيوش المظفرة إلّا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم, إذ قد تخطفتكم الأيدي, واستطال عليكم المستذل، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة, والتغلب عليه وأسر من فيه, والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق"**[2] . وقصد بذلك ما تعرضت له بلدان المشرق من خطر الدولة البيزنطية والدور الذي قام به الفاطميون في التصدي لأطماع البيزنطيين[3]، وحقق المعز لدين الله في ذلك نصراً سياسياً، فضلاً عن النصر العسكري إذ بعث الإمبراطور البيزنطي رسولاً حاملاً طلباً للموادعة مع مبالغ الجزية وهدايا لغرض قبول العرض وكان ذلك في ما ذكره القاضي النعمان(363هـ/973م) في قوله: "**وقدم إليه بطريق من بطارقة الروم وأشرافهم رسولاً من طاغيتهم صاحب القسطنطينية بما أوجبه على نفسه من مغرم الجزية عن أرض قلورية، كما يبعث بذلك لكل سنة وجاء منه بهدايا كثيرة من آنية الذهب والفضة المرصعة بالجوهر وديباج حرير وغير ذلك من نفيس ما عندهم، وبكتاب من مرسله يخضع فيه إليه ويرغب**

(1) سراج الملوك، ص678 .

(2) المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج1/ص 104؛ إدريس, عيون الأخبار, السبع السادس , ص146.

(3) ينظر: عسكر، العلاقات البيزنطية، ص57 . 96 .

**ويسأل ويطلب الكف عن حربه ويسأل الموادعة"**[1]، وفي ذلك النص دلالة على ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من نجاحات على المستوى السياسي والعسكري، ومع ذلك نجد أنّ المعز رفض الطلب بداعي مخالفته لأحكام الشريعة وذلك في قوله: " **فإنّ الموادعة إنّما تجوز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحاً لهم وللدين، ولو كانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد، وانقطعت دعوة الإسلام وخولف حكم الكتاب**"[2]. وفي ذلك دلالة على التفوق الفاطمي على المستوى العالمي بالرغم من عمر الدولة القصير نسبياً في أيام المعز والذي قضي شطر منه في الحروب والتمردات الداخلية ومع ذلك استطاعت الصمود والظهور عالمياً على مستوى التوازنات الدولية .

ومن سياسات القائد جوهر الصقلي مع شريحة مهمة وفاعلة من الشعب المصري وهم أهل الذمة الذين كانت بأيديهم مفاصل مهمة من الإدارة في الدولة المصرية فاستثمر إمكاناتهم للمساهمة في إدارة الدولة الجديدة واستقرارها وذلك في ما ورد في الأمان الذي منحه لهم "**وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه، ولكم عليّ أمان الله التام الدائم, المتصل الشامل الكامل, المتجدد المتأكد على مرور الأيام, وكرور الأعوام, في أنفسكم وأموالكم, واهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم**"[3] .

وكان ذلك الأمان مشروطاً أن يكونوا مواطنين موالين للدولة والنظام الجديد بالأفعال والأقوال مطيعين لجميع الأنظمة والقوانين ويبتعدون عن

---

(1) المجالس والمسايرات، ص367.

(2) القاضي النعمان ، المجالس والمسايرات، ص367.

(3) ابن حماد ،أخبار ملوك بني عبيد ،ج1/ص87 ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ،ج1/ص104 ؛ إدريس , عيون الأخبار , السبع السادس ,ص 149 .

مناصرة البيزنطيين بأيّ شكل من الأشكال وذلك في قوله: "**وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها, وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين, ولا تنصرون له عدواً وتقيمون على ما عوهدتم عليه, وتلزمون ما أمرتم به**"[1] .

وذلك ما أشار إليه الطرطوشي في أنّ العدل هو من يملك قلوب الرعية ويجعلهم يتعلقون روحياً في كيان الدولة وذلك في قوله: "**واعلم أنّه إذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية، وإذا جار لم يملك منهم إلّا التصنع والرياء. وفي سير المتقدمين: قلوب الرعية خزائن ملوكها، فما أودعوها من شيء فليعملوا أنّه فيها. واعلم أنّ الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل**"[2] .

وسعى جوهر إلى إعادة ترتيب الجوانب الإدارية فجعل مع كل مصري مغربياً لاكتساب الخبرة والتأني في إحداث تقلبات كبيرة غير مدروسة[3] ، وكان أهل الذمة هم من تصدر إدارة الأعمال في عهد سابق للفاطميين ومن مصلحة القادة الجدد أن يحافظوا على مظاهر الإدارة في الديار المصرية من أجل كسب الوقت والسعي لاستثمار العقول للقيام بالإصلاحات التي تتلاءم مع توجه الفاطميين في السياسة والإدارة وعلى سبيل المثال من تلك الكفاءات اليهودي يعقوب بن كلس[4] الذي برز في

(1) ابن حماد ،أخبار ملوك بني عبيد ،ج1/ص88 ؛ إدريس , عيون الأخبار , السبع السادس , ص149 .

(2) سراج الملوك، ص477 .

(3) إدريس، عيون الأخبار , السبع السادس، ص 157 .

(4) يعقوب بن كلس: أبو الفرج يعقوب بن كلس، كان رجلاً سديد العقل حسن السياسة عالي الهمة خبيراً بتدبير المملكة، كان يهودياً ثم أسلم في أيام كافور الإخشيدي وعمل مدة في خدمته وبعد موته خرج إلى المغرب قاصداً المعز لدين الله فلقيه وحوله إلى مصر، تقلد الخراج وبقي على ذلك إلى أن نصبه العزيز بالله بالوزارة إلى أن مات سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م،الأنطاكي، صلة تاريخ أوتيخا، ج1/ص 219؛ الدواداري، كنز الدرر ،ج6/ ص 225.

أيام كافور الإخشيدي وقال فيه ابن القلانسي "**ذا مكر وحيلة ودهاء وذكاء وفطنة ... وكان ماهراً في أشغاله لا يسئل عن شيء من أمورها إلّا أخبر به عن صحة فكبرت حاله وخُبر كافور بخبره وما فيه من الفطنة والسياسة فقال: لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً**"[1]، وكان اعتقاد ابن القلانسي (ت 555هـ/1160م) أنّه على أثر تلك المقولة وطمعاً في الوزارة، سارع ابن كلس إلى إعلان إسلامه على يدي كافور، إلّا أنّ الأحداث وسيرته التي عرف بها بعد إسلامه أثبتت صدقه، ولاسيما أنّ دخوله في الإسلام لم يوصله للوزارة وإنّما عرضه للمطاردة من قبل وزير كافور ابن خنزابة حسداً وخشية أن يترجم ذلك الإعجاب إلى تقليده الوزارة فاضطر إلى الخروج من مصر والالتحاق بالمعز لدين الله الفاطمي في المغرب[2] وبقي معه حتى دخوله مصر سنة (362هـ/972م) وأصبح ذا شأن في السياسة والإدارة في الدولة الفاطمية طيلة حكم المعز الذي أوكل له مهام عديدة "**الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالي والأحباس والمواريث والشرطتين وجميع ما يضاف إلى ذلك وما يطرأ في مصر وسائر الأعمال**"[3] وأشرك معه في الأمر عسلوج بن الحسن[4]، ومن ثم ولي الوزارة في خلافة العزيز (365-386هـ/975-996م) في سنة (368هـ/978م)[5]، واستمر في منصبه إلى أن مرض قبيل وفاته، وزاره

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص32 .

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص32 .

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3/ص10 .

(4) عسلوج بن الحسن: أبو علي فضل بن الحسن الصنهاجي قائد وإداري مغربي من كبار رجالات قبيلة كتامة الصنهاجية في الدولة الفاطمية، عينه الخليفة العزيز بالله مشرفاً على الدواوين وأمور المالية والخراج، ساهم نفوذه المالي والإداري المتصاعد في الحد من صلاحيات جوهر الصقلي داخل مصر، انتهت حياته مقتولاً ومقطوع الرأس في محرم سنة ٣٨٧ هـ بأمر من الحاكم بأمر الله إثر صراعات سياسية المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ٤٦.

(5) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص242 .

الخليفة وهو قائل له "**وَدِدْتُ أَنَّكَ تُبَاعُ فَأَبْتَاعُكَ بِمُلْكِي، فَهَلْ مِنْ حَاجَةٍ تَرْضَى بِهَا؟ فَبَكَى، وَقَبَّلَ يَدَهُ، وَوَضَعَهَا عَلَى عَيْنِهِ، وَقَالَ: أَمَّا فِيمَا يَخُصُّنِي فَإِنَّكَ أَرْعَى لِحَقِّي مِنْ أَنْ أُوصِيَكَ بِمُخَلَّفِي، وَلَكِنْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِدَوْلَتِكَ سَالِمِ الْحَمْدَانِيَّةَ مَا سَالَمُوكَ، وَاقْنَعْ مِنْهُمْ بِالدَّعَةِ، وَإِنْ ظَفِرْتَ بِالْمُفَرِّجِ فَلَا تُبْقِ عَلَيْهِ**"[1]، ونفهم من ذلك النص التسامح والمساواة من قبل الفاطميين مع جميع الطوائف والتفاضل بين الأشخاص على أساس الكفاءة والنزاهة، وأنّ مثال ما قام به العزيز وما نطق به من عبارات هي حافز في التشجيع على الإخلاص والوفاء للدولة الفاطمية كونها لا تهمل رجالها المخلصين، وفي جانب آخر ما مثله الوزير يعقوب بن كلس من الوفاء وعدم التهاون في النصيحة وهو على فراش الموت، وذلك دلالة عن عقيدة وإيمان في سلوكه وحياته التي قضاها في خدمة الدولة الفاطمية، ولاسيما أنّه في الساعات الأخيرة من حياته وهو مهتم بوجود الفاطميين ومستقبلهم .

وفي ذلك ما أكده الطرطوشي أنّ السعي إلى إصلاح الرعية لابد أن يكون بالأفعال لا بالأقوال وذلك ما نقله عن حكماء الهند في قولهم: "**لن يبلغ ألف رجل في إصلاح رجل واحد، يحسن القول دون حسن الفعل، ما يبلغ رجل واحد في إصلاح ألف رجل يحسن الفعل دون القول**"[2] أي أنّ الذي يريد أن يوصل مشروعه الإصلاحي والسعي لكسب الرعية وحثهم على الصلاح لا بد أن يركز على الأفعال التي تكون ترجمان السياسة والطموح في إحداث التغيير وكسب الولاء من المجتمع وإخلاصهم للنظام الجديد .

ورث الفاطميين عند دخولهم إلى مصر تركة ثقيلة من التجاذبات والاختلافات بين عناصر مختلفة من السكان استمرت طيلة حكم الفاطميين بين مدّ وجزر تظهر على الساحة بقوة في أوقات ضعف الدولة وتتقلص في

(1) ابن الأثير، الكامل، ج7/ص440 .

(2) سراج الملوك، ص473 .

أوقات القوة، وكذلك سياسات بعض الخلفاء بالاعتماد على طائفة دون أخرى أو جلب عناصر جديدة فاقم الأوضاع سوءاً، ولا سيما التدخلات والدعم الخارجي الذي تتلقاه بعض تلك الطوائف بهدف إضعاف الدولة الفاطمية وتحقيق المكاسب على صعيد السياسة الخارجية والصراعات العسكرية بين الفاطميين وأعدائهم الخارجيين، أضف إلى ذلك تعدد المذاهب والديانات وكيفية التعامل معها والعمل على كسب ولاءها للوطن، ومن أبرز هؤلاء السكان الأقباط الذين حكموا مصر حتى الفتح العربي لها[1]، عندما كانت ولاية بيزنطية[2] ، وقد حافظ هؤلاء الأقباط على خصوصيتهم عبر التاريخ حتى قيل فيهم "**لم يبق من العجم أمّة إلّا وقد اختلطت بغيرها إلّا قبط مصر**"[3]، وكانت الديانة السائدة فيهم هي المسيحية[4]، وامتاز التاريخ الفاطمي بالصراع الطويل مع الدولة البيزنطية التي لم يفارق خيالها أنّ مصر كانت في يوم ما ولاية بيزنطية مسيحية، أضف إلى ذلك ما تمثله من موقع جغرافي مميز، ومرور طرق التجارة العالمية من خلالها، وعلى الرغم ممّا امتاز به العصر الفاطمي من التسامح مع الأقليات ومنهم الأقباط إلّا أنّهم مثلوا مصدر قلق في كثير من الأحيان وكان لهم أثر في الفتن الداخلية، فضلاً عن دخولهم في حلقات الصراعات الدولية ومنها ما قام به الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١ هـ/ ٩٩٦ – ١٠٢١م) من تهديم الكنائس والتمييز والعقوبات التي فرضها ضد النصارى[5] ومن ذلك قول

(1) ابن خلدون، تاريخ، ج2/ص84 .
(2) المقريزي، تاريخ الأقباط، ص27 .
(3) الكندي، فضائل مصر، ص3 .
(4) المقريزي، تاريخ الأقباط، ص14 .
(5) ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4/ص413 . 414 .

المقريزي(845هـ/1441م) فيهم: "**إنّ كثيراً منهم كان قد تمكن في أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم، فاشتدّ بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين**"[1].

وصف الطرطوشي السلطان بالنار التي تقوم الإعوجاج في قوله "**ومثال السلطان أيضاً مثال النار، ومثال الخلق مثال الخشب، فما كان منها معتدلاً لم يحتج إلى النار، وما كان منها متأوداً احتاج إلى النار ليقام أوده فيعدل عوجه، فإنْ أفرطت النار احترق الخشب قبل أن يستقيم أوده، وإن قصرت النار لم يلن الخشب لقبول الاعتدال فيبقى متأوداً، وإذا كانت النار معتدلة اعتدل الخشب، كذلك السلطان في أطواره إن أفرط أهلك الخلق، وإن فرط لم يستقيموا وإن اعتدل اعتدلوا**"[2].

وسياسة الفاطميين مع أهل الذمة في مصر كانت قريبة من تلك السياسة فمن كان طائعاً معتدلاً يؤدي عمله بإخلاص منح الأمان وبقي في عمله وكان له الحق في الوصول إلى أعلى المناصب الإدارية ومن أساء أو تمرد أو أخطأ في واجباته عوقب بأشد العقوبات، ومنها عقوبة الإعدام، ومن هؤلاء أحد رجال الدين المسيح وهو أبو اليمن قزمان ابن مينا الذي كان وزيراً عند كافور الأخشيدي وبعد دخول جوهر الصقلي إلى مصر أبقاه في وظيفة ناظر كورة[3] مصر[4] وعرف بالأمانة وحسن السيرة وأعمال الخير، لذلك

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4/ص413 .

(2) سراج الملوك، ص205 . 206 .

(3) ناظر كورة: الناظر للكورة أو متولي الكورة: هي منصب إداري وتنفيذي رفيع يعادل حاكم الإقليم أو المحافظ في الوقت الحالي، وكلمة كورة مصطلح يوناني قديم تعني الصقع أو الرستاق، استخدمت في مصر منذ القدم للإشارة إلى الأقسام الإدارية الكبرى التي تضم قرى، تتركز صلاحيات ناظر الكورة في ثلاث محاور رئيسية: جباية الضرائب، حفظ الأمن، والإشراف التمويني . المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج ١ /ص ١٣٦.

(4 ) ساويرس، تاريخ مصر،ج3/ص400 .

نال محبة المعز لدين الله واهتمامه وقربه منه وكان يأخذ بمشورته وولاه على خراج مصر، ثم كلفه المعز بإدارة أعمال فلسطين بعد مشورة الوزير يعقوب بن كلس[1] ، وبعد تعرض بلاد الشام إلى غزو القرامطة استطاع بحنكته وحسن تدبيره أن يخفي أموال ولايته البالغة (مائتي ألف دينار) عن الحسن بن أحمد[2] الذي أبقى على حياته رغبة في كسب ولائه، وبعد انكسار القرامطة وزوال خطرهم نقل الأموال إلى مصر[3] .

ومن الأقباط من كان له مرحلتان في حياته في ظل الحكم الفاطمي، الأولى الحصول على الثناء والمكافئة لما امتاز به من كفاءة وحسن سيرة والثانية نيل العقاب بسبب سوء سلوكه وتدابيره ومنهم عيسى بن نسطورس الذي وصل إلى مرتبة وزير في عهد الخليفة العزيز بالله (365 . 386 هـ/975 . 996م) والذي منح لقب السيد الأجل[4] وذكره المقريزي(845هـ/1441م) بقوله "**خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله في الأموال ووجوهها بديار مصر والشام والحجاز**"[5] وفي ذلك النص دليل على المكانة التي وصل اليها عيسى بن نسطورس في خلافة العزيز، ولكن ذلك ما دام طويلاً لتقريبه أبناء جلدته وإيكال الأعمال لهم وإبعاد العرب عنها لذلك قدمت للخليفة العزيز مظلمة كتب فيها: "**يا أمير المؤمنين بالذي أعزّ**

(1) ساويرس، تاريخ مصر،ج3/ص459 . 460 .

(2) أبو علي الحسن بن أحمد بن أبي سعيد حسن بن بهرام الجنابي القرمطي الملقب بالأعصم، ولد بالأحساء سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م ونشأ بها، استولى على الشام سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٩ م، واستناب على دمشق وشاح السلمي وعاد إلى الأحساء ثم قدم الشام ثانية ٣٦٠ هـ / ٩٧٢ م ومنها جاء إلى مصر وحاصرها ثم انسحب منها، توفي بالرملة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م، وكان يقر الطاعة للخليفة الطائع العباسي . ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦/ص 275 وما بعدها

(3) ساويرس، تاريخ مصر،ج3/ص461 . 463 .

(4) الأنطاكي، تاريخ، ص228 .

(5) المقريزي, المواعظ والاعتبار، ج3/ص342 .

**النّصارى بابن نسطورس وأعزّ اليهود بمنشّا بن إبراهيم وأذلّ المسلمين بك إلّا ما نظرت في أمري وكشفت ظلامتي"**[1]، وبعد تلك المظلمة أمر العزيز بإلقاء القبض على كل من عيسى بن نسطورس ومنشأ بن إبراهيم في الشام، ثم شفعت له ست الملك[2] ابنة الخليفة فأخرجه من السجن وأعاده إلى منصبه بعد أن أخذ منه ثلاثمائة دينار إلى خزينة الدولة، وشرط عليه تغيير سياسته وتحقيق العدالة في استخدام المسلمين في الوظائف والأعمال[3]، وهذا الموقف فيه دلالة على سياسة الخلفاء الفاطميين اتجاه موظفي الدولة والعقاب الحازم تجاه مرتكبي الأخطاء والمظالم الإدارية التي يعاني منها الرعية .

وتحدث الطرطوشي نقلاً عن العجم في سياسة الملوك في التقرب للرعية في قولهم " **وقالت العجم: أسوس الملوك من قاد رعيته إلى طاعته بقلوبها. ولا ينبغي للوالي أن يرغب في الكرامة التي ينالها من العامة كرهاً، ولكن في التي يستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير"**[4] لذلك اتبع الفاطميون سياسة النظر في مظالم الرعية وإنزال أقصى العقوبات في مرتكبي تلك المظالم في حق الرعية وذلك السلوك له أثر في كسب ولاء الرعية.

من الحوادث الجنائية التي حصلت في زمن العزيز هي قتل أحد التجار الغرباء في منزله وسلب أمواله وعندما علم الخليفة بذلك تفاعل مع الحدث وعاقب المقصرين في الجانب الأمني وأمر بتنحية أصحاب الشرطة

---

(1) النويري، نهاية الأب، ج28/ص167 .

(2) ست الملك: بموجب لقب الخليفة العزيز بالله الفاطمي كانت ذو عقل وأدب ودين، أنكرت أعمال أخيها الخليفة الحاكم بأمر الله أثناء خلافته وأرسلت من يقتله، توفيت سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . ينظر: الدوإداري، كنز الدرر؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج 6/ ص 316؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج4/ص 186-190

(3) النويري، نهاية الأب، ج28/ص167 .

(4) سراج الملوك، ص478 . 479 .

من وظائفهم وقال في ذلك ""**الأمر والله فظيع, يسوء الأولياء, ويسر الأعداء, وبالأمس كنا نضحك من فنا خسروا, واليوم ألجمنا بعار منى علينا في بلد نحن ساكنوه, والأخبار تسير في البلدان, وحسبك بقتل الأنفس في مواضع الأمن والطمأنينة في وسط عمارة المسلمين وتؤخذ الأموال ... فو الله لو جرى مثل هذا في بلد يبعد عنا لوجب الاحتساب لله فيه فكيف تحت كنفنا وفي بلدنا؟**"[1] .

ومن هذا النص يتبيّن لنا معاني عدّة منها أنّ الخليفة الفاطمي حاضر ومتابع لكل أمور البلاد واعتبر نفسه هو المسؤول الأول عن التقصير ووصف الفعل بالعار على الدولة الفاطمية أن ترتكب هكذا جرائم، في بلاد وصفها بمواضع الأمن والطمأنينة، وذلك دلالة على انخفاض مستوى الجريمة في ربوع الدولة الفاطمية، وذلك له أثر إيجابي على حياة الناس وازدهار الحياة الاقتصادية للبلاد وفيها تشجيع للتجار الأجانب والأموال الخارجية من الاستثمار وتنشيط الأعمال داخل البلاد المصرية .

ومن الأقباط فهد بن إبراهيم[2] وزير الحاكم بأمر الله(386 . 412هـ/996 . 1021م)[3] ،كان له مكانة عند الحاكم وذا كفاءة ودراية في تسيير الأمور لذلك عندما أراد أن يكلفه الخليفة بالوزارة جمع كتاب الدواوين وأصحاب الأعمال وقال فيهم: "**إنّ هذا فهداً كان أمس كاتب برجوان عبدي**

(1) سراج الملوك،, ج 1/ص 265 .

(2) أبي العلاء النصراني كان كاتباً لدى برجوان منحه النيابة عنه ولقب بالرئيس ،فقام بتدبير الأمور وإستولى عليها ونفذ أمره في جميع أعمال المملكة ورد أرزاق جماعة من الكتاب وغيرهم كان ابن عمار قد قطعها إستؤزر من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي بعد قتل برجوان بالإشتراك مع القائد الحسين بن جوهر ثم قتله الحاكم بسبب وشاية ضده .الأنطاكي ، صلة تاريخ أوتيخا ، ص240 ؛ المقريزي , المواعظ والاعتبار , ج 3/ص 59.58 .

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص82 .

**وهو اليوم وزيري فاسمعوا له وأطيعوا ووفوه شروطه في التقدم عليكم وتوفروا على مراعاة الأعمال وحراسة الأموال"**[1]، ومن ذلك النص إشارة إلى سمو مكانة الوزير وكفاءته، وكان مطلق اليد في رعايته لأبناء جلدته يشاركهم في طقوسهم كما ذكر ذلك المقريزي(845هـ/1441م) في أحداث سنة (388هـ/998م) " **في المحرم كان غطاس النصارى؛ فضربت الخيام والمضارب والأشرعة في عدة مواضع من شاطىء النيل؛ ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم وأوقدت له الشموع والمشاعل؛ وحضر المغنون والملهون، وجلس مع أهله يشرب إلى أن جاء وقت الغطاس فغطس وانصرف"**[2]، وفي ذلك دلالة على التسامح الديني في ظل الدولة الفاطمية وأنّ الوظائف العليا تمنح على أساس الكفاءة والنزاهة، أضف إلى ذلك أنّ الرقابة الإدارية التي يمارسها الخلفاء الفاطميون والعقوبات المشددة منها التي أطاحت برأس فهد بن إبراهيم وغيره من الوزراء والموظفين تكون رادعاً قوياً للمفسدين، على سبيل المثال عندما أوصلوا للحاكم بأنّ فهد بن إبراهيم كان لديه فائض من الأموال تقدر بستة آلاف دينار يأخذها لنفسه [3] ، وقيل قدمت شكاوى ضده تدينه في تقريب النصارى وتفويض الأموال والدواوين لهم ممّا أدى إلى اتساع نفوذهم واستحواذهم على المملكة[4]، وفي الروايتين إشارة إلى أبواب فساد وأخطاء في أداء الواجبات المكلف بها لذلك استحق عقوبة القتل وهي نهاية كل من يتهم بفساد مالي أو إداري.

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص90 .

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص17 .

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص95 ؛

(4) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج3/ص58 .

واعتاد الخلفاء الفاطميون سماع المظالم والسعي لمعاقبة المقصرين وإنصاف المظلومين ومن ذلك ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) عن النظر في ذلك بقوله: "**كان من جملة القصر الكبير موضع يعرف : بالسقيفة يقف عنده المتظلمون, وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين, فإذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة, وقال بصوت عال : لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي ولي الله, فيسمعه الخليفة فيأمر بإحضاره إليه، أو يفوض أمره إلى الوزير أو القاضي أو الوالي**"[1] .

وذكر الطرطوشي أنّ الركيزة في استقرار البلد يأتي من حفظ حقوق وأموال الناس "**وإذا اهتضمت حقوق المسلمين وأكلت أموالهم فسدت نياتهم وقلت طاعاتهم، فانتقضت الأمور ودبّ الفساد إلى الممالك**"[2].

أمّا سياسة الفاطميين اتجاه المذاهب الأخرى فكان قوامها التسامح والحريات الدينية مع وجود الصراع المذهبي على صعيد السياسة الخارجية المتمثل بالدولة العباسية وما مثله الخليفة العباسي من رمزية دينية لدى المذاهب المخالفة للمذهب الإسماعيلي، أضف إلى ذلك الدولة الأموية في الأندلس التي كان لها آثار على الحياة العامة والسياسة الداخلية في البلاد المصرية، فضلاً عن ذلك كان هناك موروث من الفتن الطائفية، ولاسيما أنّ أيام الحكم الإخشيدية والكافورية كانت مليئة بالفتن الطائفية وبالأخص في أيام عاشوراء وذلك ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) في قوله: "**وكانت مصر لا تخلو من الفتن في يوم عاشوراء عند قبر كلثم وقبر نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب في الأيام الإخشيدية**

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار , ج 2/ص 284 .

(2) سراج الملوك، ص561 . 562 .

**والكافورية، وكان سودان كافور يتعصبون على الشيعة، ويتعلق السودان في الطرق بالناس ويقولون للرجل: من خالك؟ فإن قال: معاوية أكرموه، وإن سكت لقي المكروه، وأخذت ثيابه وما معه، حتى كان كافور يوكل بأبواب الصحراء، ويمنع الناس من الخروج"**[1]، وفي ذلك النص نلاحظ أنّ هناك تاريخاً من الفتن الطائفية سبق حكم الفاطميين وكان لها آثار اجتماعية ودينية في المجتمع المصري على الفاطميين التعامل معها .

والظاهر من النصوص أنّ الفاطميين على الرغم من أنّهم حاولوا أن يقللوا من الاحتقان الطائفي ونشر سياسة التسامح إلّا أنّ الشخصية الطائفية للدولة الفاطمية كانت تضعف وتشتد حسب شخوص المرحلة ومذاهب الوزراء وذلك ما ذكره ابن تغري بردي(ت 874هـ/1469م) موضحاً كيفية تأدية شعائر عاشوراء تأثراً بمذهب الوزير وذلك في قوله: "**فإن كان الوزير رافضيّا على مذهب القوم تغالوا فى ذلك وأمعنوا، وإن كان الوزير سنّيّا اقتصروا**"[2].

ومن مظاهر التسامح الديني منذ الأيام الأولى لدخول الفاطميين إلى مصر نجد أنّ القائد جوهر الصقلي أبقى على القاضي أبا الطاهر محمد بن أحمد[3] على قضاء مصر وهو على المذهب المالكي وعند انتقال المعز لدين الله إلى مصر أبقى عليه كما في قولهم "**ولمّا وصل إلى مصر وجد**

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص146 .

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5/ص153 . 154 .

(3) أبو الطاهر محمد بن أحمد: محمد بن أحمد الذهلي محدث وقاضي، عينه الخليفة العباسي المطيع بن المقتدر قاضياً لمصر سنة ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م بأمر من الأخشيديين، ظل يمارس منصبه في ظل السيطرة الفاطمية لمصر حتى سنة ٣٦٦ هـ، بعدها ألم به مرض أقعده عن الحركة . الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، ص ١١٤.

**القائد جوهراً قد استخلف على القضاء أبا طاهر محمّد بن أحمد بن عبد الله الذهلى البغدادى، وهو القاضى على أيام كافور، فأقرّه"[1]**، وبما أنّ شعار الدولة الفاطمية الأسمى هو العدل وهو ركيزة جذب الفاطميين لمشاعر الكثير من سكان بلاد المغرب العربي التي كانت تعاني من الظلم وغياب العدل، ونلاحظ ذلك جلياً عند رفض المعز لدين الله مطالب جعفر بن عبد الأمير[2] الذي أراد أن يستخلفه في المغرب عندما قرر الانتقال إلى مصر وكان قد طلب تعيين القضاة من ضمنها كما في قوله "**ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي"[3]**، وكان ذلك مرفوضاً من قبل المعز واستثار غضبه واستبعد جعفر على أثر ذلك من خياراته وكان رده قاطعاً بقوله "**يا جعفر: عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكاً في أمري، واستبددت بالأموال والأعمال دوني، قم فقد أخطأت حظك، وما أصبت رشدك"[4]**.

لذلك فإنّ الإبقاء على القاضي أبي طاهر في دكة القضاء كان من سياسات الخليفة المعز في كسب مشاعر السكان من المذاهب الأخرى، ولاسيما أنّهم حديثو العهد بالمذهب الإسماعيلي، أضف إلى ذلك أنّ القاضي

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج28/ص152 .

(2) جعفر بن عبد الأمير : هو جعفر بن علي بن محمد الأندلسي: المعروف بـ ابن الأندلسية، أمير وقائد عسكري، تولى إمارة المسيلة والزاب كوالٍ للفاطميين، حظي بمكانة رفيعة وثقة عالية عند الخليفة المعز الفاطمي حتى عرض عليه أن يستخلفه على حكم المغرب وإفريقية عند رحيله إلى مصر سنة ٣٦٠ هـ، لكن جعفر اشترط شروطاً قاسية تمنحه استقلالاً واسعاً في إدارة العمال والنظام والجيش، فرفضت شروطه واختير بلكين بن زيري بدلاً منه . ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١ ص ٣٦٠.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص99 .

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص99 .

أبا طاهر كان كفوءاً متمكناً من الأحكام في القضاء، ولإحداث توازن بين رغبات المغاربة وأهل مصر عيّن المعز أبا ثوبان[1] للحكم بين المغاربة من الجند وغيرهم من التجار والنازحين إلى أرض مصر واشترك في الحكم في القضاء مع أبي طاهر وذلك في قولهم: "**وكان قد نصبه المعز للنظر في مظالم المغاربة، فتبسط في الأحكام بين المصريين، وقال في كتبه: قاضي مصر والإسكندرية، وشهدت عنده شهود مصر من المعدلين**"[2]، وفي حال الاختلاف في الحكم بين أبي طاهر وأبي ثوبان ترفع للنظر فيها والفصل في الأحكام من قبل الخليفة المعز وحدث أن اختلف الطرفان في قضية رفعت للقضاء[3]، ثم نظر فيها المعز وبعد أن استمع إلى حجية الطرفان رجح فيها حكم أبي طاهر وذلك في قولهم: "**فلمّا خرج توقيع المعز في أمر الحمام، انكسروا وقوي أبو طاهر وأصحابه. ومنع أولئك الشهود من حضور مجلسه، واعتل ابن أبي ثوبان بسبب ذلك، فدامت علّته إلى أن أتت على نفسه فمات**"[4] .

---

(1)عبد الله بن محمد بن أبي ثوبان، فقيه وقاضٍ إسماعيلي من المغاربة، رافق الخليفة الفاطمي المعز عند دخوله مصر سنة ٣٦٢هـ/972م عينه المعز جنباً إلى جنب مع قاضي مصر أبو الطاهر الذهلي في إطار سياسة القضاء المزدوج لتأمين الاستقرار السياسي للنظام الناشئ، تركزت مهامه الأولى بالفصل في الخصومات ومواريث المغاربة من الجند الفاطميين مراعاة لاختلاف أعرافهم وفقههم عن أهل مصر، نظراً لنفوذه ومكانته لدى الخلافة اتسعت صلاحياته لتشمل أحكام المصريين أيضاً وتقاسم مجال القضاء في الفسطاط والإسكندرية، ويعد تعيينه نقطة تحول مفصلية تمهيداً لتحول النظام القضائي المصري كلية نحو المذهب الشيعي الإسماعيلي بعد ذلك، توفي أواخر عهد المعز الفاطمي سنة ٣٦٥هـ/975م المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ١ ص ٢٢٣؛ العسقلاني، رفع الإصر، ص ١٩٩.

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص223 .

(3) ينظر: العسقلاني، رفع الإصر، ص199 . 200 .

(4) العسقلاني، رفع الإصر، ص 200 .

وفي زمن الحاكم بأمر الله عهد بالقضاء إلى أحد رجال المذهب الإسماعيلي وجعل تحت إدارته المناطق ذات المذاهب المخالفة كما في عهد الحاكم "**هذا ما عهد عبد الله ووليّه المنصور أبو عليّ الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، للقاضي حسين بن عليّ بن النّعمان حين ولّاه الحكم بالمعزّيّة القاهرة ومصر، والإسكندرية وأعمالها، والحرمين حرسهما الله تعالى، وأجناد الشام، وأعمال المغرب، وإعلاء المنابر، وأئمّة المساجد الجامعة، والقومة عليها والمؤذّنين بها، وسائر المتصرّفين فيها وفي غيرها من المساجد، والنظر في مصالحها جميعا**"[1]، ومن ذلك تبيّن كيف أنّ الفاطميين تدرجوا في فرض المذهب الإسماعيلي في الأحكام القضائية بعد أن شاع المذهب وأصبح لدى الناس وعياً بثقافته وأحكامه.

وفي سنة (405هـ/1014م) بعد وفاة القاضي الإسماعيلي محمد بن النعمان، بقيت مصر من دون قاضٍ لمدة عشرين يوماً إلى أن وقع الاختيار على أبي العباس[2] أحد الفقهاء على المذهب الحنفي، ولما أثار البعض إشكالية أنه على مذهب مخالف احتج الحاكم بقوله: "**هو ثقة مأمون مصري، عارف بالقضاء وبأهل البلد، وما في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره**"[3]، ومن ذلك النص دلالة على أنّ المعيار الأول في الاختيار

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10/ص392 .

(2) أبو العباس: أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام السعدي، قاضي مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمين، من فقهاء الحنفية، ولي القضاء في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي بمصر سنة ٤٠٥هـ/1014م، وفي أيامه غاب الحاكم وبقي الأمر شورى إلى أن استقر الظاهر لإعزاز دين الله فأقره على القضاء وكان يليه منه النظر في العيار ودار الضرب والصلاة والمواريث، توفي سنة ٤١٨ هـ (القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ص ٨٠؛ العسقلاني، رفع الإصر، ص ٧١؛ الزركلي، الأعلام، ج ١/ص 211.

(3) العسقلاني، رفع الإصر، ص72 .

هو الكفاءة والأمانة وأنّ المذهب المخالف ليس عائقاً في الاختيار، أمّا إشكالية الاختلاف في بعض الأحكام الفقهية عالجها الحاكم في وضع أربعة من المستشارين الفقهاء وذلك في ما ورد "**وشطر عليه فيه أنّه إذا جلس في مجلس الحكم، يكون مع أربعة من فقهاء الحاكم، لئلا يقع الحكم بغير ما يذهب إليه الخليفة**"[1]، وهنا دلالة على الكياسة في سياسة الفاطميين في مراعات مشاعر المذاهب الأخرى والحفاظ على ثوابت المذهب الإسماعيلي.

كانت سياسة نشر المذهب الإسماعيلي قائمة على أساس إقامة المجالس ودعم المناظرات الفقهية والثقافية، وذكر الداعي إدريس (872هـ/1467م) ذلك في قوله: "**وأقام الأود في الدين، وثبت الاعوجاج، وقويت الدولة العلوية، وعزت وطربت أعواد المنابر بنشر فضائل الوصي، والعترة الطاهرة، واهتزت**"[2]، ومن ذلك النص يتبيّن أنّ هناك نشاطاً غير مسبوق للفاطميين في نشر المذهب الإسماعيلي من خلال إقامة المجالس و الاهتمام بالوعي الديني .

ومن مراكز العلم جامع سمي (باب الجوامع)[3] شيده عمرو بن العاص واشتراه الحاكم بأمر الله بمائة ألف دينار، وأدخل عليه تحسينات ومرافق فخمة وقال فيه ناصر خسرو (ت٤٨١ هـ / ١٠٨٨م): "**وهذا المسجد قائم**

---

(1) العسقلاني، رفع الإصر، ص72 .

(2) عيون الأخبار، السبع السادس، ص216 .

(3) باب الجوامع (أو تاج الجوامع أو الجامع العتيق): الجامع الذي أسسه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م، والذي يعد النواة الأولى لمدينة الفسطاط وأقدم منارة إسلامية بإفريقيا، شهد في عهد الخليفة الحاكم الفاطمي مرحلة ترميم وازدهار هيكلي بارز عكست فلسفة الدولة بإعمار الحواضر الكبرى، تجلت اللمسات الفاطمية فيه بتجديد المحاريب وتزيين الجدران الداخلية وتزويده بأثاث فاخر ومصاحف نفيسة بجانب التنور الفضي الشهير (المزيد ناصر خسرو، سفرنامة، ص ١١٧؛ المقريزي في المواعظ والاعتبار، ج ٤ /ص 5 وما بعدها.

**على أربعة آلاف عمود من الرخام، ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولا يقل من فيه في أيّ وقت، عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء"[1].**

وامتازت مصر بتعدد المذاهب الدينية فيها وكان منها ظاهراً ومنتشراً كما في قول المقريزي(845هـ/1441م): "**وما زال مذهب مالك ومذهب الشافعيّ رحمهما الله تعالى يعمل بهما أهل مصر، ويولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبي حنيفة رحمه الله"[2]** .

أمّا مذهب أحمد بن حنبل(241هـ/855م) لم يكن له صدى في مصر كونه قد ظهر في القرن الثالث في العراق وانتشر خارج العراق في القرن الرابع لذلك قال السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)، فيه: "**هم الديار المصرية قليل جدًّا، ولم أسمع بخبرهم فيها إلّا في القرن السابع وما بعده؛ وذلك إنّ الإمام أحمد رضي الله عنه كان في القرن الثالث، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلّا في القرن الرابع، وفي هذا القرن ملكت العبيديون مصر"[3]**، ومعنى ذلك أنّ أرض مصر أصبحت توجهاتها المذهبية مخالفة لمذاهب أهل السنة وليست بيئة صالحة لرواج من لديه تقاطعات مذهبية مع الحاكم، ومع ذلك كان مذهب التشيع ليس دخيلاً على البلاد المصرية وإنّما كان له جذور منذ بدايات دخول الإسلام إلى تلك البلاد ومن ذلك قول المقريزي(845هـ/1441م): "**وقد كان التشيع بأرض مصر معروفاً قبل ذلك"[4]**، وكما في نقله عن يزيد بن حبيب قوله: "**نشأت بمصر وهي**

(1) سفر نامة، ص117 .

(2) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج4/ص151 .

(3) السيوطي، حسن المحاضرة، ج1/ص480 .

(4) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج4/ص151 .

**علويــة، فقلبتهــا عثمانيــة"**[1]وبـذلك فـإنّ الدولـة الفاطميـة كانـت أمـام تحـدي اسـتيعاب ذلـك التنـوع المـذهبي وإيجـاد بيئـة ملائمـة للتعـايش لكسـر مـؤامرات المنافسـين الـدوليين الـذين يـدفعون فـي إحـداث فـتن طائفيـة لإربـاك البيئـة الاجتماعية الداخلية .

ونـذكر مـن السياسـة المذهبيـة للحـاكم بـأمر الله فـي مـا ذكـره فـي إحـدى سجلاته " **أمّـا بعـد فـإنّ أميـر المـؤمنين يتلـوا علـيكم آيـة مـن كتـاب الله المبـين، لا إِكْـراهَ فـي الـدِّينِ 2: 256 (الآيـة) . مضـى أمـس بمـا فيـه، وأتـى اليـوم بمـا يقتضـيه. معاشـر المسـلمين نحـن الأئمـة، وأنـتم الأمّـة. لا يحـلّ قتـل مـن شـهد الشـهادتين ولا يحـلّ عـروة بـين اثنـين تجمعهـا هـذه الأخـوّة، عصـم الله بهـا مـن عصـم، وحـرّم لهـا مـا حـرّم، مـن كـل محـرّم مـن دم ومـال ومـنكح، الصـلاح والأصـلح بـين النـاس أصـلح، والفسـاد والإفسـاد مـن العبّـاد يسـتقبح. يطـوى مـا كـان فيمـا مضـى فـلا ينشـر، ويعـرض عمـا انقضـى فـلا يـذكر. ولا يقبـل علـى مـا مـرّ وأدبـر مـن إجـراء الأمـور علـى مـا كانـت عليـه فـي الأيـام الخاليـة أيـام آبائنـا الأئمـة المهتـدين سـلام الله علـيهم أجمعـين، مهـديهم بـالله وقـائمهم بـأمر الله، ومنصـور هـم بـالله ومعـزّهم لـدين الله، وهـو إذ ذاك بالمهديّـة والمنصـوريّة، وأحـوال القيـروان تجـري فيهـا ظـاهرة غيـر خفيّـة ليسـت بمسـتورة عـنهم ولا مطويّـة. يصـوم الصـائمون علـى حسـابهم ويفطـرون، ولا يعـارض أهـل الرؤيـة فيمـا هـم عليـه صـائمون ومفطـرون، صـلاة الخمـس للـدين بهـا جـاءهم فيهـا يصـلون وصـلاة الضـحى وصـلاة التـراويح لا مـانع لهـم منهـا ولا هـم عنهـا يـدفعون. يخمّـس فـي التكبيـر علـى الجنـائز المخمّسـون، ولا يمنـع مـن التكبيـر عليهـا المربّعـون. يـؤذّن بحـيّ علـى خيـر العمـل المؤذّنـون، ولا يـؤذى مـن بهـا**

(1) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج4/ص151 .

**لا يؤذّنون. لا يسبّ أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف، والخالف فيهم بما خلف. لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده وإلى الله ربّه ميعاده، عنده كتابه وعليه حسابه. ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم، لا يستعلى مسلم على مسلم بما أعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما أعتمده من جميع ما نصّه أمير المؤمنين في سجلّه هذا، وبعده قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة"(1).**

وهنا نقرأ من ذلك السجل معاني عدة، إذ ابتدأ الحديث بآية من القرآن الكريم دالة على حرية الاعتقاد في الدين وبذلك أطلق الحريات الدينية على أن يمارس كل مذهب ما اعتقد به وأشار إلى مواطن الاختلاف منها الصوم والإفطار في شهر رمضان من خلال الاستهلال أو الحساب ومنها الصلوات محل الخلاف بين المذاهب التي أطلقها للجميع كل حسب اعتقاده، وأمر بالآذان بحي على خير العمل وعدم المساس في من امتنع عن ذكرها، وليس هناك منزلة أعلى من أخرى ولا حق لمعترض على آخر، ولاسيما أنّ كل مذهب له دليله في ما ذهب إليه وأن الرجوع لله تعالى في جزاء الأعمال، وأطلق الشعار الذي يوحد الجميع هو الدعوة للإصلاح ورفض الفساد في جميع أشكاله.

وفي زمن الخليفة الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ/ ١٠٢١ - ١٠٣٦ م). عقد هدنة مع الروم بشروط كان أهمها فتح مسجد في القسطنطينية وتقرأ فيه

(1) ابن خلدون، تاريخ، ج4/ص76 . 77 .

خطبتة وزين في الحصر والقناديل ورفع فيه الآذان، وبالمقابل أذن بفتح كنيسة القمامة في القدس بعد إعادة تأهيلها من خلال نقل أموال وآلات لأغراض التأهيل على نفقة ملوك النصارى في الغرب[1].

ونقل الطرطوشي عن ابن الكواء[2] في جوابه لمعاوية في قوله "**وقال معاوية لابن الكواء: صف لي الزمان. فقال: أنت الزمان إن تصلح يصلح، وإن تفسد يفسد**"[3]، وفي ذلك القول جعل دائرة الإصلاح للمجتمع والحياة ومحاربة الفساد والمفسدين تقوم على أساس سياسة الخليفة أو الحاكم في ذلك المجال .

ولاقى الحكم الفاطمي مقبولية في أغلب الأمصار في زمن المستنصر بالله لذلك اتسع نفوذ الفاطميين حتى شمل مناطق عدة مختلفة في المذهب والولاء وبين الداعي إدريس(872هـ/1467م) ذلك بقوله "**ونادى باسمه في الخطبة في جميع الأمصار المنادي، فكانت مملكته في مصر والحرمين والشام وبلاد المغرب كافة، وملك داعيه الأجل الأوحد علي بن محمد الصليحي اليمن عنوة، وأظهر له فيه الدعوة، وظهرت دعوته في شيراز،**

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص176 .

(2) بن الكواء: عبد الله بن عمرو بن عمران اليشكري، شخصية جدلية بارزة في صدر الإسلام عُرف بفصاحته وسعة علمه بالقرآن ومكانته الرئيسة في التحولات السياسية لعصر الخلافة الراشدة، كان من أكابر التابعين والمخضرمين في الكوفة، شهد صفين مع الإمام علي ثم انشق عنه بعد قضية التحكيم ليصبح من خطباء الخوارج ومناظريهم الأوائل في حروراء، له مع معاوية بن أبي سفيان محادثات سياسية وجغرافية هامة، توفي نحو ٦٠ هـ / ٦٧٩ م . ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٠٨؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، ج ٤ ص ٤٧٤؛ العسقلاني، لسان الميزان، ج ٣/ص 329.

(3) سراج الملوك، ص251 .

**وأرض فارس، وخطب له فيها الداعي المؤيد في الدين ... ثم تغيير عليه. وكذلك خطب له في بغداد والكوفة أياماً"[1].**

وذلك الانتشار الواسع لنفوذ الدولة الفاطمية وسطوتها دلّ على عالميتها وجاء ذلك من سياستها الرشيدة في التعامل مع مختلف الديانات والمذاهب والطوائف العرقية ممّا ولد مقبولية ورضى من قبل المجتمع في المناطق جميعها التي دخلت في حكم الدولة الفاطمية .

(1 ) الداعي ادريس. عيون الأخبار، السبع السادس ، ص329 .

## المبحث الثالث

## مبادئ السياسة المالية للدولة الفاطمية

اهتم الإسماعيلية بالسياسات المالية قبل أن تقوم دولتهم في المغرب عندما كانت تلك الدولة مجرد أفكار في أذهان القادة، وأسهمت تلك الأموال في حماية التنظيم ورجاله والعمل على نشره ودعم توسعه في مختلف المناطق ليكسب الصفة العالمية .

وفي ضوء ذلك نجد أنّ الطرطوشي وضع السياسة المالية من الأولويات التي تكلم في إطارها العام وذلك في قوله: "**واعلم أنّ المال قوة السلطان وعمارة المملكة ولقاحه الأمن ونتاجه العدل، وهو حصن السلطان ومادة الملك، والمال أقوى العُدد على العدو وهو ذخيرة الملك ، وعمارة المملكة ، وحياة الأرض، ومن حقه أن يؤخذ من حقه ويوضع في حقه ويمنع من السرف، ولا يؤخذ من الرعية إلّا ما فضل عن معاشها ومصالحها ثم ينفق ذلك في الوجوه التي يعود عليها نفعها**"[1]، وذلك النص أعطى إستراتيجية مالية للدولة، والأقرب للتطبيق أنّ الفاطميين عملوا بها في أدوار نشوئهم وتطورهم وازدهارهم.

وعند دراسة تاريخ الدعوة الإسماعيلية في الجوانب المالية، نجد أنّها فرضت ضريبة مالية على كل من دخل إلى التنظيم، تسمى النجوى، اختلف مقدارها من فرد إلى آخر مراعاةً للظروف المعيشية للأفراد فكانت تتباين بين ثلاثة دراهم وثلث ، وهي ضريبة العامة من أفراد التنظيم أمّا القسم الآخر فهم الميسورون من أصحاب الأموال وارتفع مقدارها إلى أن وصل إلى ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثي الدينار، وهؤلاء لهم تكريم خاص من الإمام، أخذ جانب

(1) سراج الملوك، ص495 .

معنوي وعقائدي، وكانت تقدم لهم رقعة تحمل أسمائهم مكتوب عليها "**بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك**"[1]، وتلك الأموال تذهب إلى الإمام وعند وصولها يمنح جزء منها لحاملها والدعاة النقباء لتغطية نفقات التنظيم[2]، وذكر الحاجب جعفر **(ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م)** تلك الأموال في قوله: "**وما زالت الأحوال مستقيمة ورسل الدعاة عندنا في كل وقت يأتون من كل بلد بالأموال والهدايا والأعمال من أعمال المؤمنين وأخماسهم وبما يتقربون به**"[3]. ومن ذلك النص تبيّن أنّ هناك موارد مختلفة للأموال كانت تصل إلى الإمام الفاطمي وكان أغلبها تجبى تحت إطار شرعي ومنظم تنقل بصورة دورية إلى مقر إقامة الإمام .

وما فاض عن ذلك يبقى لدى الإمام يصرف في أبواب فيها دعم للتنظيم, منها كسب ذمم مجموعة من الأفراد منهم زعماء قبائل أو موظفين كبار في الدولة من خلال منحهم أموالاً وكسب ولائهم[4]؛ لذلك نجد أنّ الأئمة الإسماعيلية استطاعوا التنقل من مكان إلى آخر من دون المساس بهم وكانت تصلهم التحذيرات من الأخطار بمستوى أعلى من خصومهم.

ومن ذلك ما بيّنه الطرطوشي في المقارنة بين الإنفاق والتقتير في شؤون الملك في قوله: "**فإذا ضعف بيت المال ببذله للحماة قوي الناصر واشتد بأس الجند فيقوى الملك، وإذا قوي بيت المال وامتلأ بالأموال قل الناصر وضعفت الحماة، فضعف الملك فوثب عليه الأعداء**"[5] ، وذلك ما

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين ، ص112 ؛ المقريزي , المواعظ والاعتبار , ج 2/ص 259 .
(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار , ج 2 / ص 259 .
(3) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص4 .
(4) القاضي النعمان , آداب أتباع الأئمة , ص 111 .
(5) سراج الملوك، ص502 .

جناه زيادة الله من جمع الأموال بعد انهزام عسكره في الأربس على يد قوات أبي عبد الله الشيعي، وهروبه من رقادة، كان اهتمامه الأكبر كيفية تدبير نقل أمواله الطائلة أثناء هروبه وذلك ما نقله الداعي ادريس(872هـ/1467م) في قوله: "**وأخذ زيادة الله في شدّ الأموال ونفيس الخلع والسلاح والجواهر، وانتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم، وجعل على وسط كل واحد منهم منطقة فيها ألف دينار من العين**"[1]، وذلك التخطيط والتدبير في نقل الأموال لم يشفع لإطالة عمر دولته وإنّما عجل في تفرق الجند والأتباع[2] لإدراكهم سوء إدارته للأزمات التي عصفت به وكانت السبيل لزوال حكمه ومعه دولة الأغالبة .

وعند الإشارة إلى سياسة الأموال في بدايات ظهور الدولة الفاطمية على مسرح الأحداث كانت تستخدم ضمن إستراتيجية أمنية وتنظيمية منها التوسع في التنظيم والنجاة من الملاحقات الأمنية للأتباع وادخارها في أوقات الوفرة من أجل إنفاقها في أوقات الحاجة الفعلية لها، من ذلك ما رواه جعفر الحاجب بأنّ المهدي أمره عندما كانوا في سلمية بحفر بركة وملئها بالأموال ثم بنى عليها بركة أخرى وملأها ماءً لخفاء الأموال وبعد أن هاجر المهدي إلى أرض المغرب أمر جعفر بالعودة إلى سلمية واستخراج الأموال واللحاق به في طريقه إلى أرض المغرب [3] واستخدم تلك الأموال في أكثر من مرّة لتسهيل أمر انتقاله بين مناطق المغرب وكسب ذمم وولاء من حوله من خلال الإنفاق بسخاء كما ذكر المقريزي(845هـ/1441م) في قوله:

(1) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص84 .

(2) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص84 .

(3) اليماني، سيرة الحاجب جعفر، ص7 ،8 ، 10 .

**"فسار من مصر مع أصحابه ومعه أموال كثيرة، فأوسع في النفقة على من صحبه"[1] .**

وعند قيام دولته بين سياسته المالية من خلال ما ذكره القاضي النعمان(363هـ/973م) بأنّ صاحب ديوان المال أخبره بأنّ حصيلة الأموال في بيت المال في شهر رمضان هي مائة ألف دينار وكان مسروراً بذلك، إلّا أنّ المهدي أظهر له أنّ ذلك أقل ممّا كان يرجو فيه الوصول إلى الرفاه ومستوى العيش لرعايا دولته الموعودة وكان ذلك في قوله: **"لو بلغني الله إلى حقي ونلت أملي ما رضيت مثل هذا العطاء بأسره لرجل واحد من أوليائي وكان جواداً بالمال، وكان مع ذلك لا يضيع أقل شيء من المال ولا يستهين به أن يذهب، ولا يترك منه واجباً أن يصرف في غير حق"[2]**، وهنا دلالة على الحكمة والتنظيم في التعامل مع الأموال وضبط الإيرادات والمصروفات على وفق الحاجة الفعلية وهناك خطط مستقبلية لتطوير الإيرادات لتحسين المستوى المعيشي للأفراد .

وإذا بحثنا في موارد الفاطميين المالية منها ما نصّت عليه الشريعة وبينّت موارد الصرف فيه وهنا امتاز به الفاطميون عن غيرهم، هو الأمانة في نقل الأموال وإيصالها إلى أصحابها ومنها الزكاة التي تفرض على المسلمين في كل عام وبين القرآن الكريم مستحقيها كما في قوله: **ژ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ژ[3].**

وفي خلافة القائم بأمر الله على الرغم من ثقل النفقات وتخصيص النسبة الأكبر في دعم الحملات العسكرية لمواجهة خطر الثورات الداخلية،

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص60 .
(2) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص304 .
(3) سورة التوبة، الآية 60 .

إلّا أنّه استمر في تخصيص جزء من النفقات لصالح الفقراء والمساكين كما في قوله لجوذر **(ت ٣٨٦هـ / ٩٩٦م): "يا جوذر أسعدك الله بطاعته، وتولاك بكفايته، إنّا قد أوجبنا على أنفسنا من العتق والصدقات وفعل الخيرات ... بما تمثله في اخراج ما رسمناه من الصدقة على الفقراء بالمهدية وما حولها"**[1] ، وذلك دلالة على سعي الخلفاء الفاطميين على إيصال الحقوق التي نصّ عليها الشرع إلى أصحابها في أحلك الظروف وذلك فسر لنا صمود المهدية وما حولها في وجه الأعداء .

أمّا الفريضة الأخرى التي اختلف فيها المسلمون في طريقة فرضها وفي مستحقيها هي الخمس، التي بيّن القاضي النعمان(363هـ/973م) أحقيتها لأهل بيت النبي من دون سواهم وذكر في ذلك قولاً للإمام جعفر بن محمد الصادق (ﷺ) قال فيه **"الخمس لنا أهل البيت ليس للناس معنا في شيء ونحن شركاؤهم في أربعة أخماس الغنائم فيما شهدناه معهم والخمس لنا دونهم نعطي منه يتامانا وفقرانا ومساكيننا وابن سبيلنا وليس لهم ولا لنا في الصدقات شيء"**[2]، وبيّن أنّ ذلك الخمس هو حقّ النبي(ﷺ) وفي غيابه انتقل إلى أمام العصر من أهل البيت يتم صرفه على مستحقيه من أهل بيته الذين بيّنهم النص، ولاسيما أنّهم حرمت عليهم الصدقات وذلك الخمس يفرض مرّة واحدة على مغانم المكاسب[3]، وكانت تلك الموارد تمثل أموالاً طائلة يحملها أنصار التنظيم للإمام مفترض الطاعة ذكرها الحاجب جعفر **(ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م)** في قوله: **"وكانت الأموال والذخائر**

(1) جوذر، سيرة، ص51 .

(2) القاضي النعمان، الهمة، ص80 .

(3) القاضي النعمان، الهمة، ص79 . 80 .

**تُحمل من كل بلد من قِبل الدعاة إليه إلى سلمية قال وكان الإمام قد حفر سرداباً في الأرض من الصحراء إلى جوف داره بسلمية طوله اثنى عشر ميلاً وكانت الأموال والذخائر تُحمَلّ على الجِمال ، فَيُفْتَحُ لها باب السرداب في الليل ... وكانت الأموال عظيمةٌ حتى يُقال أنه ما كسب المهدي قدس الله روحه بعد أن فتح الله له إلّا نحواً ممّا خلف بسلمية"[1].**

وهناك أموال أخرى يتقرب بها المؤمنون إلى أئمتهم وتكون على شكل هدايا وأموال غير الزامية وإنما على سبيل التطوع إكراماً وتقرباً لأجل كسب الرضى والبركة من الإمام أو لتقديم المعونة للدعم والإسناد لجهود أوليائهم في الإنفاق في سبيل الله تعالى **"ثم المؤمنون بعد ذلك مندوبون إلى التطوع بالإنفاق من أموالهم في سبيل الله ورفع أعمالهم منها إلى أولياءهم ، أو من أقاموه لقبض ذلك منهم وذلك مفوض فيه إليهم وليس عليهم فيه توقيت ، ولا فرض معلوم وإنّما هو تطوع" [2] كما قال عز من قائل ژ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑک ژ [3] .**

وهناك موارد أخرى تقليدية متبعة في الأنظمة الجبائية للبلدان المعاصرة للدولة الفاطمية منها الضرائب الشرعية التي وضع أسسها الفقهاء المسلمين مثل الخراج والجزية والزكاة والخمس المأخوذ على المعادن المستخرجة من باطن الأرض، والخمس المفروض على سيب البحر[4]، وهناك ضرائب غير شرعية منها ما يسمى **(المُكوس)**[5] وذكر البكري مقدار

(1) اليماني ، سيرة الحاجب جعفر ، ص108 .

(2) الهمة ، ص85 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 184.

(4) قدامة بن جعفر، الخراج، 204 . 205 .

(5) المكوس : ضرائب تُؤخذ على السلع في الأسواق ، خارجا عن الزكاة والخراج والجزية ، وكان فقهاء المسلمين لاينظرون إلى هذه الضرائب بعين الرضا لأنها في نظرهم ضرائب غير قانونية

المكس الذي يجبى من أحد أبواب المنصورية زمن المعز لدين الله في كل يوم هو (ستة وعشرون) ألف درهم[1] وهنالك العديد من أبواب فرض تلك المكوس منها ما فرض على حمولات التجار غير المسلمين مثل الرومان الذين ينزلون في ثغر الإسكندرية وفرض عليهم مكس سمي بالخمس الرومي[2].

وكذلك نقل جوهر عند فتح مصر ألف حمل من الأموال[3]، وعملية نقل الأموال إلى داخل مصر بعيداً عن الغرض الرئيسي في تمويل الحملة العسكرية، الأرجح أنّها تساهم في دعم التداول النقدي ممّا يؤدي إلى تحسين المستوى المعيشي وتعزيز قيمة العملة، أضف إلى ذلك دعم السياسات المالية والأداء الحكومي لزيادة الرغبة في التغيير والنظام الجديد .

وكانت سياسات الخلفاء الفاطميين المالية تعبر عن رغبة في إنصاف الناس ورفع مستواهم المعيشي من ذلك ما ذكره ابن تغري بردي(ت 874هـ/1469م) على لسان يعقوب بن كلس الوزير الفاطمي وشهادة من المؤرخ والأديب المسبحي المعاصر للفاطميين: "**قال الوزير يعقوب بن كلّس: «سمعت العزيز بالله يقول لعمّه حيدرة: يا عمّ، أحبّ أن أرى النّعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضّة والجوهر، ولهم الخيل واللّباس والضّياع والعقار، وأن يكون ذلك كلّه من عندى» . قال**

---

تتنافى وأحكام الشرع الإسلامي . أبو هلال العسكري ، معجم الفروق اللغوية ، ص 100 ؛ راشد البراوي ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ،ص 340 .

(1) البكري، المسالك، ج2/ص677 .

(2) المخزومي، المنهاج، ص45 .

(3) ابن خلدون، تاريخ، ج1/ص458 .

**المستّجى: وهذا لم يسمع بمثله قطّ من ملك"[1]**، وتلك الأفكار لم تكن مجرد أمنيات، وإنما أصبحت واقعاً تحدث فيه الرحالة الذين زاروا البلاد المصرية في زمن الفاطميين .

وبالعودة إلى سياسة فرض المكوس كانت سياسات متحركة، تفرض عند توفر الإمكانات وترفع في وقت الأزمات كما فعل الخليفة الحاكم لأمر الله عندما انخفض منسوب نهر النيل وقلت الأراضي المزروعة لذلك أمر برفع المكوس عن الغلات والأرز للتخفيف عن التجار وتشجيعهم على جلب الغلة لتجاوز الأزمات[2].

وهناك أموال يتحصل عليها من خلال السياسة الخارجية منها ما فرض على الروم من خلال عقد اتفاقات دبلوماسية مع الدولة الفاطمية منها ما ذكر على لسان الخليفة الحاكم في قوله: "**إنّ الروم يرسلون إلينا الآن الذهب والمال كل سنة، وهم راضون أن يذهب جيشنا إليهم، ونحن معهم في سلام تام"[3]**، أضف إلى ذلك ما يصل إلى الدولة الفاطمية من أموال سنوية من الجزر في البحر المتوسط ومنها صقلية[4].

ذكر ناصر خسر (481هـ/1088م) و الأمن و الآمان الذي ساد في الثغور والتنظيم والتسامح في جباية الأموال ومنها مدينة تنيس، وقال في ذلك: "**ويقيم بتنيس جيش كامل السلاح، احتياطاً حتى لا يستطيع أحد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها، وسمعت من الثقات أنه يصل منها لخزانة سلطان مصر يومياً ألف دينار مغربي ويصل ذلك المقدار مرة واحدة،**

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4/ص125 .
(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص74 .
(3) ناصر خسرو، سفر نامه، ص99 .
(4) ناصر خسرو، سفر نامه، ص100 . 101 .

**يحصله شخص واحد، يسلمه أهل المدينة في وقت معين، وهو يسلم للخزانة، فلا يتأخر منه شيء، ولا يجبى شيء بالعنف من أي شخص"[1]**، وفي ذلك دليل على أنّ جباية تلك الأموال عالي الدقة والتنظيم وأنّ ما يؤخذ مقابل خدمات تقدم للناس ومنها الأمن وأنّ ذلك يتم برضى وقبول من الجميع وكذلك ذكر ناصر خسرو(481هـ/1088م) أبواب الصرف على الخدمات منها الجسور التي اعتمد عليها السكان في أوقات ارتفاع مناسيب المياه وكانت هناك صيانة دورية منتظمة لتلك الجسور وذلك في قوله: "**وقد أنشأوا على الشاطئ، من أول الولاية لآخرها، جسراً من الطين ليسير عليه الناس، وتصرف خزينة السلطان كل سنة للعامل المعتمد، عشرة آلاف دينار مغربي، لتجديد عمارته"[2]**.

ومن الموارد المالية المهمة التي بنى عليها الفاطميون سياستهم في الحصول على الأموال من أجل تحقيق الرفاه للسكان والإنفاق على مشاريعهم العمرانية، هو السيطرة على تجارة ومناجم التبر، ومن ذلك يمكننا ترجيح ذهاب عبدالله المهدي إلى سجلماسة، الواقعة على طريق الذهاب إلى غانة مركز تجارة الذهب التي كانت تبعد مسيرة ثلاثة أشهر[3] عنها ومن خلال تعرض عبد الله المهدي لمنافسة اليهود الذين عملوا على الوشاية به لدى اليسع بن مدرار[4] ممّا نتج عنها إدخاله للسجن وقيل في سكنهم فيها

---

(1) سفر نامه، ص94 .

(2) سفر نامه، ص97 . 98 .

(3) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج2/ص13.12 ؛ القزويني ، آثار البلاد ، ص19،42 ؛ابن بطوطة ، تحفة النظار ،ج4/ص241 .

(4) اليسع بن مدرار: أبو القاسم اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع، تولى الحكم (الدولة المدرارية) في صفر ٢٧٠ هـ وتلقب بالمنتصر (لقب جده)، وكانت طاعته للمعتضد العباسي، وفي أيامه وصل للمغرب عبيد الله المهدي وابنه أبو القاسم ودخلا سجلماسة فقبض عليهما

"**السبب في تسخير أهل سجلماسة لليهود ... كونهم محبين في سكنى بلدهم للإكتساب لما علموا أنّ التبر بها أمكن منه بغيرها من بلاد المغرب لكونها باباً لمعدنه فهم يعاملون التجار به ليخدعوهم بالسرقة وأنواع الخدائع**"[1]، ولمّا أدرك عبد الله المهدي لنواياهم وحيلهم ومواقفهم العدائية، ذكر لأبي عبدالله الشيعي أخبارهم، ممّا أدى به إلى قتل أغنياهم ومصادرة أموالهم[2]، وجمع بها من جراء ذلك أموال طائلة كان لها الأثر في دعم خططه في بناء الدولة ومن ذلك " **قيل إنّه تحصل له من التبر ومن الحلى وقر 120 جملاً أدخلها رقادة وبايع بها لعبيد الله وأقامه وأدخله القيروان وبنى المهدية**"[3] .

وفي مصر وضعوا أيديهم على وادي العلاقي[4] الذي عُدّ مصدراً مهماً لتجارة الذهب، ، فضلاً عن استخراج الذهب هناك نشاط صناعي

---

وحبسهما في غرفة عمته مريم بنت مدرار، وأقبل أبو عبد الله الشيعي زاحفاً من إفريقية فاقتحم سجلماسة وأخرجهما، وفر اليسع إلا أن قوماً من البربر يعرفون ببني خالد غدروا به واستأمنوا إلى أبي عبد الله الشيعي بتسليمه إليه فقتله سنة ٢٩٦ هـ وانقضى بقتله عهد الاستقلال والاستقرار في إمارة سجلماسة وولى عليها الشيعي رجلاً من كتامة اسمه إبراهيم بن غالب الماسي ،ابن الأثير، الكامل، ج ٦/ص 597-598 ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ١٥٧؛ الزركلي ،الاعلام ،ج7/ص 197

(1) مجهول ، الاستبصار ، ص202 .

(2) مجهول ، الاستبصار ، ص202 .

(3) مجهول ، الاستبصار ، ص204 .

(4) وهو فج جغرافي جاف ممتد بين نيل أسوان والبحر الأحمر، يصفه الجغرافيون كأهم حاضرة تعدينية استراتيجية لإنتاج الذهب، وحلقة وصل لوجستية كبرى ربطت مصر بأعماق إفريقيا، تحول هذا الوادي إلى مدينة عامرة ومسرح لامتزاج قبائل ربيعة العربية بالبجة المحلية فغدا معبراً تجارياً وبؤرة لنشر الثقافة الإسلامية وتأمين حدود مصر الجنوبية. اليعقوبي ،البلدان، ص ٢؛

يتعلق في أعمال تنقيته وسبكه ليكون جاهزاً لدخول الأسواق العالمية وزيادة الطلب عليه في مختلف البلدان[1]، وذكر اليعقوبي (بعد292هـ/بعد905م) مناطق تواجد الذهب في مصر بقوله: "**ومن أراد المعادن معادن التبر خرج من أسوان إلى موضع يقال له الضيقة بين جبلين، ثم البويب، ثم البيضية، ثم بيت إبن زياد، ثم عذيفر جبل الأحمر، ثم جبل البياض، ثم قبر أبي مسعود، ثم عفار، ثم وادي العلاقي، وكل هذه المواضع معادن التبر يقصدها أصحاب المطالب**"[2].

وكانت الدولة الفاطمية تهتم بالتخطيط والمراقبة للشؤون المالية وإعداد تقارير سنوية لذلك وكان لها مؤسسات خاصة منها ديوان المجلس الذي وصف بأصل الدواوين وأنّ فيه علوم الدولة جميعها، وكان يتولاه أقدر كتاب الدولة وهو أشبه بوزارة المالية الحالية، وتسجل فيه إيرادات الدولة ونفقاتها بالكامل ويدرس التفاوت في ذلك سنوياً[3] لمعرفة الوضع الاقتصادي وإعداد الخطط لتطوير القطاع المالي، ومن نتاجات تلك السياسات ارتفاع قيمة الدينار الفاطمي عالمياً، ودليل ذلك ما ذكره أحد المستشرقين اليهود وهو جوايتاين الذي وصف حال الدينار المعزي بقوله: "**لقد كان الذهب والفضة، وبخاصة الدنانير المصرية، دولارات ذلك العهد**"[4].

---

الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٤؛ ابن حوقل، صورة الأرض؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ١ ص ٤٦.

(1) الإدريسي ، نزهة المشتاق ،ج1/ص46 .

(2) البلدان ، ص172 .

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص74 . 75 .

(4) دراسات ، ص267 .

وكذلك بيّن الطرطوشي جهود الملك في تدبير أمر رعيته ووصفه بصاحب البستان الذي يعمل على تهيئة منظومة متكاملة من خلال التخطيط وتوفير جميع متطلبات النجاح وذلك في قوله: "**مثل الملك في مملكته مثل رجل له بستان فيها عين معينة، فإن هو قام على البستان فأحسن تدبيره فهندس أرضها وغرس أشجارها وحظر على جوانبها، ثم أرسل عليها الماء اخضر عودها، فقويت أشجارها وأينعت ثمارها وزكت بركاتها، فكانوا جميعاً في أمان من الضيعة لا يخافون فقراً ولا شتاتاً**"(1).

وبيّن ناصر خسرو(481هـ/1088م) الثقة العالية بعدل السلطان الفاطمي من قبل المصريين وبما استطاعت الدولة الفاطمية من توفيره لرعاياها من أمن وآمان ووفره في الموارد المالية حتى قال فيها: "**ورأيت أموالاً يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقني الناس في فارس. فاني لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرهم، أما الأمن الذي رأيته هناك فاني لم أره في بلد من قبل**"(2)، وبما أنّ رحلة ناصر خسرو(481هـ/1088م) كانت بين سنتي 444هـ و473هـ ، أي في خلافة المستنصر بالله الفاطمي(427 . 487هـ / 1036 – 1094م)، وما ذكره من مظاهر الترف والمستوى المعيشي دل على جهود وعمل لمدة طويلة من الزمن أي أنّ الإستراتيجية الاقتصادية لم تقتصر على خليفة معين أو فترة زمنية محددة بل أنّها جاءت من سياسات مالية ناجحة من قبل الخلفاء الفاطميين الذين سبقوا الخليفة المستنصر، وتلك الأموال لم تقتنيها الأسرة الحاكمة وإنّما عامة الناس، إذ ذكر تاجر نصراني استعانت به الدولة في توفير الغلة في سنة انخفضت فيها مناسيب نهر النيل وكان رده "**أسعد الله**

(1) سراج الملوك، ص502 . 503 .

(2) سفر نامة، ص121 .

**السلطان والوزير ، إنّ لدي من الغلة ما يمكنني من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات"**[1]، ويتضح من النص مدى حرية التجارة والمساواة بين الناس على اختلاف اطيافهم، أضف إلى ذلك دلّ النص على أنّ مصر كانت تمتلك تجارة عالمية، والدليل على ذلك الكمية الكبيرة من الغلة التي يمتلكها تاجر واحد من المصريين تفوق الحاجة الفعلية للبلد وذلك دلالة على عالمية التجارة.

وعند الحديث عن التجارة العالمية عبر أراضي الدولة الفاطمية ومنها تجارة الكارم[2]، كان تجار كل من الهند والحبشة واليمن يسلكون طريق بحر القلزم إلى عيذاب ثم يسيرون في الصحراء إلى قوص وبعدها تدخل مدينة مصر[3] وكان ذلك الطريق أكثر أماناً، وذكر القلقشندي(ت821هـ/1418م) ذلك في قوله: "**وكان لهم أيضا أسطول بعيذاب يتلقّى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن، وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب، فيحميهم الأسطول منهم، وكان عدّة هذا الأسطول خمسة مراكب، ثم صارت إلى ثلاث، وكان والي قوص هو المتولّي لأمر هذا الأسطول، وربما تولاه أمير من الباب، ويحمل إليه من**

(1) سفر نامة، ص121 .

(2) تجارة الكارم: تسمية أطلقت على فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى من الفلفل والتوابل وما يليها من بهار وغيره من أنواعه البضاعة، ولكلمة كارم كلمة هندية الأصل وأنها تتكون من مقطعين (كار) و(يم)، كار تعني الحرفة أو التجارة ويم تعني المحيط أو البحر البعيد الشواطئ، سقطت الياء فصارت كارم أي حرفة التجارة في البحار، وإن لفظ كار ما زال متداولاً إلى اليوم بمعنى الحرفة أو العمل الشاطر. لبيب، التجار الكارمية، ص5-7 .

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1/ص374 .

**خزائن السلاح ما يكفيه"**[1]، وفرض الأسطول الفاطمي الأمن والحماية في جميع المناطق الساحلية في مصر وبلاد الشام في أوقات وقوعها تحت نفوذ الفاطميين[2] وذلك ساعد في ازدهار التجارة وماله من آثار على المستوى الاقتصادي للسكان.

أما التجارة مع الروم كانت مزدهرة وكانت المراكب الرومانية تصل إلى السواحل المصرية وتفرض رسوماً أو زكاة على البضائع المستوردة و الصادرة[3]، وكانت تلك الرسوم تؤخذ من التجار الروم بنسب متباينة بين الخمس والعشر، وذكر ابن مماتي(**ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م**) ذلك في قوله: "**عمّا يستأدى من تجار الروم الواردين على الثغر بمقتضى ما صولحوا عليه، وربما بلغ ما يستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين دينار، وانما انحط من العشرين ديناراً، ويسمى كلاهما خمساً، ومن كنايس الروم ما يستأدى منه العشر، إلا أنه لما كان الخمس أكثر، كانت النسبة اليه أشهر**"[4] وكانت تجبى في السواحل المصرية مثل دمياط وتنيس ورشيد و عيذاب وأسوان وأعظمها ما يجبى من الإسكندرية [5]،وكانت مقدار تلك المكوس يتباين بين سلعة وأخرى[6] وذكر المقريزي(845هـ/1441م) مقدار تلك الضرائب قبل أن يسقطها صلاح الدين بقوله: "**إنّ الذي أسقطه السلطان صلاح الدين والذي سامح به لعدّة**

(1) صبح الأعشى، ج3/ص597 .
(2) صبح الأعشى، ج3/ص596 .597 .
(3) المخزومي، المنهاج، ص43 . 44 .
(4) قوانين الدواوين، ص326 .
(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1/ص204 . 205 .
(6) ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1/ص195 . 197 .

**سنين، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار وألفي ألف أردب"[1].**

وكانت تلجأ الدولة الفاطمية إلى رفع المكوس أو تخفيضها على وفق سياسات اقتصادية عند تعرض البلاد لأزمات منها ما تحدث عنه المسبحي في شوال من سنة (415هـ/1024م) وكانت أزمة حادة ارتفعت فيها أسعار القمح والدقيق والخبز[2]، وكان أحد سبل مواجهة الأزمة هو رفع المكوس من المناطق الساحلية لتشجيع التجارة وخفض أسعارها وقرأ سجل بذلك "**نزل دواس بن يعقوب من القاهرة ومعه سجل قد كتب بحطيطة جميع المكوس من سواحل مصر عن سائر أصناف الغلات ... وأن يبيع الناس كما يؤثرون بما أطعم الله ورزق بغير تسعير ، وقرأ هذا السجل وقرئ هذا السجل في شوارع مصر ، فأصبحت الأخباز كثيرة متوافرة في الأسواق"[3]**، نلاحظ من هذا النص الرقابة الصارمة على الأسواق والتعامل بمهنية وشفافية بحسب ما تمليه الحاجة .

أمّا السياسة المالية النقدية الفاطمية مع دول العالم كانت تدعم الحفاظ على الكتلة النقدية الداخلية وعدم استنزافها وتصديرها إلى الخارج وكان ذلك يتم من خلال سياسات نقدية منها رفع قيمة الدينار الفاطمي مقارنة بالعملات الأخرى[4]،أضف إلى ذلك اتباع أسلوب المقايضة في التجارة أي تبادل ما تنتجه مصر مثل الحديد والنحاس والملح والفواكه والبقول مع السلع

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1/ص197 .

(2) أخبار مصر، ص187 .

(3) أخبار مصر، ص196 .

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص122،146.

المستوردة من الخارج[1] للتقليل من خروج النقد في الأسواق الفاطمية إلى الخارج، وعملت الدولة الفاطمية على تجديد السكة ومنع الغش من خلال إعادة صهرها وسكها على العيار الفاطمي[2]، ومن أجل رفع قيمة العملة الفاطمية والحط من العملات الأجنبية الأخرى ومن ذلك الأمر يأخذ الخراج بالدينار المعزي، وذكر المقريزي(845هـ/1441م) ذلك في قوله: "**وامتنع يعقوب وعسلوج أن يأخذ في الاستخراج إلّا ديناراً معزيّاً، فاتضع الدينار الراضي وانحط، ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار، فخسر الناس من أموالهم، وكان صرف المعزى خمسة عشر درهما ونصف**"[3].

ولم تقتصر العملة على الدينار وإنّما أصدرت الدولة عملة الدراهم كانت قيمتها أعلى من العملات الأخرى حتى قيل: "**وقرئ سجل يمنع المعاملة بالدراهم الأولى وترك من في يده شيء منها ثلاثة أيام، وأن يورد جميع ما تحصل منها إلى دار الضرب، فاضطرب الناس وبلغت أربعة دراهم بدرهم جديد، وتقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهما بدينار**"[4].

وبيّن الطرطوشي أنّ الترتيب والحكمة في الإدارة أبقى وأصلح لبناء الدول "**لا شيء أصلح للسلطان من ترتيب الأمور ولا شيء أفسد له من إهمالها. واعلم أن درهماً يؤخذ من الرعية على وجه الإهمال والخرق، وإن كان عدلاً أفسد لقلوبها من عشرة تؤخذ منها بسياسة على زمام معروف ورسم مألوف، وإن كان جوراً**"[5].

---

(1) التطيلي، رحلة، ص347 .

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص104 .

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص146 .

(4) المقريزي، رسائل، ص169 . 170 .

(5) سراج الملوك، ص222 .

وفي زمن الخليفة الحاكم بأمر الله لم تستثنى العائلة الحاكمة من متابعة النمو المفرط في الثروة ومنها أخت الحاكم التي أهدت له ثلاثين فرساً وعشرين بغلة مرصعة بالذهب والجواهر وخمسين خادماً وغيرها من الهدايا منها بستان من الفضة[1]وذلك فيه دلالة على حجم الثراء الذي وصلت إليه الأسرة الفاطمية الحاكمة ممّا استدعى من الخليفة الحاكم بأمر أن يتخذ موقفاً صارماً وهو مصادرة الأموال ومن ذلك: "**وقبض الحاكم على سائر عقار والدته وأخته وعمّاته وحرمه وخواصّه من النّساء، وأملاكهنّ وسائر إقطاعهنّ من الدّور والأجنة والحمّامات التي بمصر والقاهرة وقبضه إليه**"[2] .

وكان الخلفاء الفاطميون يقومون في جولات في الأسواق والمرافق الحكومية لمتابعة الأمور الإدارية وقضاء حاجات الناس من ذلك ما ذكره المسبحي في جولة للخليفة الظاهر وهو متنكر بقوله: "**نزل أمير المؤمنين عليه السلام إلى البيمارستان متنكراً في عبيده فطافه وشاهد المقيمين فيه من المجانين وأطلق لكل رجل منهم خمسين درهماً وللقيم عليهم خمس مائة درهم ، وأمر بأن يعمر البيمارستان ، ويجرى الماء إليه على رسمه ، وأن يطبخ للمجانين في كل يوم ما يأكلونه بعد ما ينفق عليهم فيما يستعملونه من الأدوية و الأشربة**"[3]، إنّ متابعة حاجات تلك الفئات التي ليس لديها القدرة للمطالبة بحقوقها أو رفع المظالم للسلطات دلالة على حرص الخلفاء الفاطميين على تقديم المعونات والخدمات لجميع فئات المجتمع .

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص15 .

(2) الأنطاكي، تاريخ، 279 .

(3) المسبحي، أخبار مصر، ص57 .

# الفصل الثالث

# العمران البشري والمؤسسات الحضارية للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي



المبحث الأول: المؤسسات المالية

المبحث الثاني: العمران والنشاط الاقتصادي

المبحث الثالث: العمران الاجتماعي في الدولة الفاطمية

**مدخل:**

يرى الطرطوشي في نظريته أنّ العمران البشري هو ثمرة التضامن الجماعي، حيث لا يتحقق الإنجاز الحضاري إلّا بتضافر جهود المجتمع كافة. فالحضارة في نظره هي نتاج التفاعل العضوي والتكامل الوظيفي بين أركان السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر [1]، واستكمل ابن خلدون(808هـ/1406م)خطوطها وخرج بنظرية عمرانية، ذكر أنّ الطرطوشي هو الذي وضع أسسها قبل ما يقارب الثلاثة قرون من عصره[2] ، وبيّن ابن خلدون(808هـ/1406م) معنى العمران بأنّه الاجتماع والتعاون في السعي للحصول على وسائل العيش وعبّر عنها بالحصول على القوت للغذاء والتمكين من السلاح للدفاع عن الوجود لاستكمال حكمة الخالق والوصول إلى غاية خلق الإنسان وهي إعمار الأرض وخلافته فيها ولا يتم ذلك إلّا بوجود وازع وهو السلطان الذي يكون واحداً منهم له اليد القاهرة ليدفع عدوان بعضهم عن بعض لدفع الظلم وبذلك يتم عمران العالم ويتحقق ما أراده الله تعالى من خلق البشر [3] .

وجاء الطرطوشي في كتابه سراج الملوك بمشروع إصلاحي سياسي واجتماعي استقى مبادئه من دراسته لتاريخ الأمم السابقة من حضارات العرب والفرس والروم ومن حكم وتجارب الهند والسند والهندوس[4]، وبيّن أنّ السبيل هو الأخذ من العلماء والصلحاء فهم حبل النجاة لنهوض الأمم ودوامها وذلك في قوله: "**فاتخذ أيها الملك العلماء شعاراً، والصالحين دثاراً، فتدور المملكة بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء، وأخلق بمُلك**

(1) الجابري، مفكرو الإسلام والعمران البشري، ص47 .

(2) تاريخ ابن خلدون، ج1/ص52 .

(3) تاريخ ابن خلدون ، ج1/ص55 . 56 .

(4) سراج الملوك، ص720 ؛ ربوح، تجربة الإصلاح عند أبي بكر الطرطوشي، ص146 .157 .

**يدور بين هاتين الخصلتين أن تقوم عمُده ويطول أمده"**[1]، وبيّن الطرطوشي أنّ فلسفة العمران في بناء وازدهار الحضارة قائم على العدل، الذي وضع أساسه الإسلام بواسطة النبي الأكرم محمد (ﷺ) من خلال سيرته وتفسيره لأحكام القرآن وتعاليمه، وبغياب النبي كان حملة العلم هم رعاته وحفاظه وفقهاءه[2] ، وبذلك خصّ ما كتبته أنامله من ركائز في العمران بالأهمية وأن يأخذ بها، ولا سيما أنّه أحد العلماء الذين كان لهم الأثر في نشر أبواب مختلفة من العلوم في عصره، وبيّن العلاقة بين مفاصل الدولة من خلال أقوال الحكماء في قوله: "**واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا: الملك بناء والجند أساسه، فإذا قوي الأساس قام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء، فلا سلطان إلّا بجند ولا جند إلا بمال، ولا مال إلّا بجباية ولا جباية إلّا بعمارة، ولا عمارة إلّا بعدل فصار العدل أساساً لكل الولايات"**[3]، وبذلك هناك علاقة تكاملية بين مفاصل الدولة ومرتكزات الحياة المختلفة لإنتاج الحضارة .

(1) سراج الملوك، ص216 .

(2) سراج الملوك، ص216 .

(3) سراج الملوك، ص 215 . 216 .

## المبحث الأول

## المؤسسات السياسية

### أولاً: الخلافة

جمع ذلك العنوان بين الخلافة والإمامة فهو خليفة النبي (ﷺ) والوريث الشرعي الديني والدنيوي وتمتد سلطته إلى عدد من الجزر التي ينتشر فيها دعاة الإسماعيلية.

واعتقد الإسماعيلية أنّ ما كسبه الإمام من العلوم المختلفة ومنها الطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة والمعرفة في الأحكام الشرعية لا يدانيها أحد من الخلق[1] لذلك فهو الأحق بالخلافة، والخليفة الفاطمي مطلق الصلاحيات ليس من حق أحد الشراكة في سلطانه إلّا ما منح هو للأعوان الذين كلفهم بمهام على وفق حدود صلاحياتهم، والدليل على ذلك مفاتحة أبي عبدالله الشيعي للخليفة وإظهار النصيحة له مع بيان تفضيل سياسته مع قبيلة كتامة على سياسة الإمام والسعي للوصول إلى صلاحيات أكبر في إدارة شؤون البلاد"[2]، سرعت في مقتله [3] .

وتلك السطوة في الحكم والقوة في اتخاذ القرار رجحها الطرطوشي لما فيها من مصلحة لحفظ الحقوق وازدهار البلاد وذلك في قوله: "**كذلك السلطان إذا كان قاهراً لرعيته وكانت المنفعة به عامة، وكانت الدماء به في أهلها محقونة والحرم في خدورهن مصونة، والأسواق عامرة والأموال محروسة**"[4]، وبذلك رجاحة سياسة القهر ضد الأفراد من قبل السلطان

(1) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص148 .

(2) افتتاح الدعوة، ص309 . 311 .

(3) افتتاح الدعوة، ص316 .

(4) سراج الملوك، ص199 . 200 .

مقابل إحراز المصلحة العامة في الحفاظ على الأمن والاستقرار في الحياة العامة.

ودخلت الخلافة الفاطمية في صراع سياسي وديني ومذهبي مع الخلافة العباسية في بغداد والأموية في الأندلس وهم أحق من غيرهم في خلافة النبي الأكرم (ﷺ)كونهم من نسله وحملة علومه، ومنذ الإعلان الأول بالخلافة بعد فتح رقادة والقيروان ذكر عبد الله المهدي في خطبته أنّ خلافته للنبي وآل البيت (عليهم السلام) أعطته الحق في خلافة الأرض جميعاً، وذلك في قوله: "**اللهم وكما اصطفيته لولايتك واخترته لخلافتك وجعلته لدينك عصمة وعماداً ولبريتك موئلاً وملاذاً ... وافتح به مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته**"[1]، وبذلك أعلن شرعية خلافته وبطلان الخلافتين العباسية والأموية .

أمّا مقام الخلافة انتقل من الأب إلى الابن من خلال الوصية وكان الأحق بها ذرية الإمام علي (عليه السلام) اقراراً بوصية الرسول الأعظم (ﷺ) بالولاية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) في يوم الغدير[2] ولا تخرج عن أبنائه وبذلك يكون انتقال الخلافة في ذرية فاطمة الزهراء (عليها السلام)ومن ذلك جاء لقب الفاطميين[3]، والدليل على ذلك ما ذكره المعز لدين الله عندما نعى والده المنصور في قوله: "**الأئمة المهديين من عترته الكرام الأبرين الذين اختارهم للخلافة وارتضاهم للإمامة وأكد بوصية الرسل حجتهم وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيله إياهم على العالمين، بأبوة محمد سيد**

(1) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص293 . 294 .

(2) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص327 .

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص10 .

**المرسلين، وعلي أفضل الوصيين، وعلى أمّه سيدة النساء ... وعلى أميري المؤمنين المهدي بالله والقائم بأمر الله سيدي الورى وإمامي الهدى"**[1].

امّا ولاية العهد في الدولة الفاطمية فقد مرت بتحولات، من الانتقال بالوراثة من الأب إلى الابن من خلال الوصية والتعيين من الإمام السابق إلى اللاحق سواء أكان ظاهراً أم محتجباً بحسب ما تمليه الظروف[2]، فقد أوصى الحسين بن أحمد[3] عند احتضاره إلى ولده عبد الله المهدي وقال له "**إنّك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة، وتلقى محنة شديدة**"[4]، أمّا القائم بأمر الله سمّي بولاية العهد في حياة أبيه منذ وقت مبكر[5]، وسمى القائم ولي عهده في بداية تسلمه للإمامة إلّا أنّه أبقى الأمر مكتوماً وأخبر به الخاصة ومنهم جوذر **(ت ٣٨٦هـ / ٩٩٦م)** الذي قال له: "**ولدي إسماعيل هو حجتي وولي عهدي فاعرف له حقّه ، واكتم أمره أشد كتمان حتى أظهره بنفسي في الوقت الذي يشاء الله ذلك ويختاره**"[6] ، والظاهر من النص أنّ القائم وجد من واجبه الشرعي تسمية ولي عهده وكتمان ذلك، للحفاظ على حياته عندما تكون الظروف غير مؤاتيه .

---

(1) جوذر، السيرة، ص79 .

(2) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الأول، ص9 .

(3) الحسين بن أحمد: هو الإمام الحسين بن أحمد الملقب بالزكي إمام الستر الثالث، تميز بنشاطه المعرفي حيث عمل على تأطير أتباعه وتثقيفهم وبث علوم الإسماعيلية وأظهرها وشرح رسائل أبيه أحمد التقي، ومن أهم الدعاة الذين برزوا في عصر الاستتار بعهده الحسن بن حوشب وعلي بن الفضل اللذين نشطا على الساحة اليمنية، توفي سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠م مستودعاً سر الإمامة ابنه الإمام عبيد الله المهدي. الداعي إدريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص ٣٩٥. البهروجي، كتاب أزهار، ج ٢ /ص ٢٣٦.

(4) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص157 ؛ ابن الأثير، الكامل، ج6/ص588 .

(5) ابن الأثير، الكامل، ج6/ص589 .

(6) جوذر، السيرة، ص40 .

أمّا المعز لدين الله كان فقد أشار إلى إمامته بعد أبيه منذ زمن جده القائم بأمر الله وفسر أمر ولاية العهد أنّها من قبل الله تعالى خصّ بها من شاء وأنّ هنالك دائماً مصلحة في أظهار ولاية العهد أو إخفاءها من قبل الله تعالى أو الإمام على الرغم من أنّ تأخير الإعلان قد يؤدي إلى حصول فتن وشبهات حول شخص الإمام وبين المعز ذلك في حديث والده المنصور له في قوله: "**فأمّا ما خولني الله من الكرامة واصطفاني به من الإمامة ، فإنّما هو متاع عندي وعاريةٌ في يدي لانقضاء المدة وتمام العدة ، ثم هو لك بحكم الله وأمره واعطائه ، لا عن أمري وحكمي واختصاصي إيّاك به**"[1]، وبيّن المعز عقيدة الإسماعيلية في الإمامة بأنّها تسري في العقب ولا تنتقل من الأخ إلى الأخ بعد الإمام الحسن والحسين وكان إخفاء إعلان ولي العهد لدوافع الحفاظ على حياته من الأخطار والاستهداف المباشر من قبل أعداء الدين والمذهب وكان ذلك بأمر الله وتشخيصه[2] ويقضي النظام الإسماعيلي بأنْ يكون الابن الأكبر صاحب الحق الشرعي في ولاية العهد وهو أمر معروف بالنسبة للخلاف الذي حدث بعد وفاة الإمام جعفر الصادق(١٤٨ هـ/٧٦٥م) ، بين الإسماعيلية والاثني عشرية وأنّ النص لا يرجع للقهقرى، وبحسب هذا الأمر يجب أن يكون المنصوص عليه من أولاد المعز لدين الله الابن الأكبر (تميم)، لكنّ الذي حصل أنّ المعز نصّ على ابنه الأوسط عبد الله ولياً لعهده؛ لأنّ تميم كان يعيش حياة طائشة لا تؤهله أن يتقلد الإمامة[3].

(1) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص124 .

(2) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص124 .

(3) الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص ١٥٧؛ الصلابي، الدولة الفاطمية، ص ١٥٧.

يوضح الطرطوشي ممتنّاً عظيم نِعمة الله على البشرية بتنصيب الحاكم؛ مستشهداً بقوله تعالى ﴿ ﴾ [1] ويرى أنّ هذا الفضل يتجسد واقعياً في استتباب الأمن، إذ يمثل السلطان رادعاً للظالم عن ظلمه، وملاذاً للمظلوم يسترد به أمنه وحقه وذلك في قوله: "**لولا أنّ الله تعالى أقام السلطان في الأرض يدفع القوي عن الضعيف وينصف المظلوم من الظالم، لأهلك القوي الضعيف وتواثب الخلق بعضهم إلى بعض، فلا ينتظم لهم حال ولا يستقر لهم قرار فتفقد الأرض ومن عليها**"[2] ، وما ذهب اليه الإسماعيلية في التسليم لله تعالى في تعيين الإمام، ذكر الطرطوشي ما هو قريب منه، وذلك في قوله: "**في إقامة السلطان في الأرض فيأمن الناس به، فيكون فضله على الظالم كف يده وفضله على المظلوم أمانة وكف يد الظالم عنه**"[3] وهنا يطرح سؤال هل ذلك الحكم شمل جميع الحكام والسلاطين؟، فضلاً عن ذلك أنّ الطرطوشي نوّه على الموضوع من دون ذكر شخصه أو بيان صفاته وهو الذي كان في وجوده فضلاً على الناس من قبل الله تعالى وإن أطلقنا منزلة السلطان على جميع الحكام فذلك يتنافى مع العقل والمنطق ومع التاريخ الذي صور لنا الكثير من الحكام الظالمين الذين كان وجودهم ظلم وفساد في الأرض، وإذا ذهبنا مع اعتقاد الفاطميين أنّ أئمتهم هم من خصهم الله تعالى في الذكر لا غيرهم، وفي وجودهم الفضل على الناس، وذلك الرأي لا يمكن التسليم به، لا سيما أنّ دولتهم مرّت في مراحل، منها زمن القوة والازدهار الذي دلّ على حسن السياسة ومثالية الحكم ومنها مرحلة الضعف والصراع وعدم امتلاك القرار بوجود حاكم ضعيف غير قادر على سياسة البلاد، وهناك الكثير من تاريخ الأمم

(1) سورة البقرة: الاية 251.

(2) الطرطوشي، سراج الملوك، ص182 .

(3) الطرطوشي، سراج الملوك، ص182 .

مشابه لما مرّ به تاريخ الدولة الفاطمية من علو وازدهار ومن ثم تدهور وانهيار ،ممّا استبعد كون الأئمة الفاطميين هم من خصهم الله تعالى بالإمامة والحكم.

وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر منح المعز ولاية العهد إلى ثاني أبنائه الأمير عبد الله بن المعز الذي كان يذكر اسمه مع اسم المعز في الخطبة[1]، وقدمه كقائد ساهم في صدّ هجوم الحسن بن أحمد القرمطي سنة(363هـ/974م )[2]، ولكنّه لم يصل إلى الخلافة لوفاته في حياة أبيه سنة (364هـ/975م) بعد علّة ألمت به[3]، وبقي عنده من الأبناء تميم ونزار وعقيل[4]، ولم يسمِّ المعز لدين الله ولياً للعهد حتى اعتل بمرضه الذي توفي فيه، فعهد إلى ابنه أبي منصور نزار[5]، وفي خلافة العزيز تكرر تسمية الأمير محمد بولاية العهد ثم توفي في حياة أبيه وبايع العزيز قبل موته إلى ولده أبي علي المنصور الحاكم بأمر الله وكان صغيراً في السن لم يتجاوز الحادية عشرة من سنه وكلّف بتدبير الأمور للحسن بن عمار[6] الملقب بأمين الدولة[7]، ويصف الحاكم حاله عندما ولي الخلافة وهي يعيش حياة

(1) جوذر، السيرة، ص139 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص135 .

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص208 .

(3) ابن الميسر، أخبار مصر، ص166 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص217 .

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص236 .

(5) ابن الميسر، أخبار مصر، ص168 .

(6) الحسن بن عمار: وهو الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسين أمين الدولة أبو محمد الكتامي، أحد بني عمار قبيلة كتامة، كان أبوه يعمل عند الخليفة القائم بأمر الله، تمكن ابن عمار من فتح قلعة روضة واستولى على جميع ما فيها، كما حارب مع الخليفة المعز ضد أبي خزر الزناتي، استعظم ابن عمار في الدولة أثناء خلافة الحاكم مما أدى بالأخير إلى عزله وقتله سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م. الأنطاكي، تاريخ، ص ٣٢٤. النويري، نهاية الأرب، ج ٢٨ ص ٢٢٥. المقريزي، المقفى، ص ٣٥٢.

(7) ابن الطوير، أخبار الدول، ص43 .

الصبيان بقوله: "**فبادر إلي برجوان[1] وأنا على جميزة كانت في الدار فقال: انزل ويحك، الله الله فينا وفيك، قال: فنزلت، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي، وقبل لي الأرض وقال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته، قال: وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة، فقبل جميعهم لي الأرض، وسلموا علي بالخلافة**"[2] .

ولم يراعِ الحاكم بأمر الله العقائد الإسماعيلية في ولاية العهد بعد أن أصدر سجلاً إلى ابن عمّه عبد الرحيم بن الياس في سنة (404هـ/1014م) بولاية العهد وركب مراكب الخلافة وكسائها وبايعه الأولياء والجند وقرأ على المنابر وأدخل اسمه في السكة والطراز [3] وأمر بالسلام بولي العهد بقولهم "**السلام على ابن عمّ أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين؛ وتعين له محل يجلس فيه من القصر**"[4] وولد ذلك الحدث انقلاباً في عقائد المذهب الإسماعيلي وولّد امتعاضاً لدى بعض الولاة ومنهم أبو مناد باديس[5] الذي

---

(1) برجوان: وهو من كبار خدام الحاكم بأمر الله ومديري دولته، وإليه تنسب حارة برجوان في القاهرة. قتله الحاكم في نصف جمادى الأولى سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م، إذ أمر زيدان الصقلبي صاحب المظلة فضربه بالسكين فقتله. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5/ص375 ؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٨/ ص ١٧٤ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٢٧/ ص ١٤٨.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5/ص375 . 376 .

(3) الأنطاكي، تاريخ، ص306 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص101 .

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص101 .

(5) أبو مناد باديس بن المنصور بن يوسف بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي والد المعز بن باديس، ولد سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م، كان متولياً أمر مملكة إفريقية نيابة عن الحاكم الفاطمي ولقبه الحاكم نصير الدولة وكانت ولايته بعد أبيه المنصور سنة ٣٨٦ هـ، كان قائداً حازماً شديد البأس، توفي سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م، فبايعوا ابنه المعز بن باديس. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢٦٥. ابن عذاري، البيان، ج ١ ص ٢٤٧. ابن خلدون، تاريخ، ج4/ص208 .

قال في ذلك: **"لولا أنّ الإمام لا يعترض عليه في تدبير لكاتبته ألا يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بني عمه"[1].**

وكان المعارض الأكبر لولاية العهد هي أخت الحاكم ست الملك صاحبة النفوذ والسطوة التي كانت تسعى في أن تصل الخلافة إلى ابن أخيها الذي تربى تحت ظلها ولا يخرج الملك من نسل أخيها الحاكم بأمر الله فدبرت مكيدة للقضاء على عبد الرحيم بن الياس ،إذ وظفت الأميرة ست الملك دهاءً سياسياً عالياً لتحييد العرش لابن أخيها الظاهر لإعزاز دين الله، إذ استغلت غياب الخليفة الحاكم لتراسل عبد الرحيم بن إلياس في الشام بكتب رسمية توهمه بالبيعة والكرامات واستدعائه للقاهرة لإدارة شؤون الخلافة، وما أن انطلت الحيلة على عبد الرحيم وتحرك بموكبه نحو مصر حتى أطبقت عليه كمائنها العسكرية عند الحدود في قرية (الفرما)، فجرى اعتقاله مكبلاً بالأصفاد وسوقه إلى القصور الفاطمية حيث سجن فيها، وبذلك أزاحت العقبة الشرعية الأقوى لتعلن فوراً تولية ابن أخيها وتستقل هي بإدارة الدولة[2]. وألبست الظاهر لإعزاز الله خلع الخلافة وأمرت الجند بالبيعة له ثم بايعه الناس بالخلافة[3] .

ونال الخلافة وهو في سن السابعة عشرة من عمره ولم يكن له أولاد للإعلان بولاية العهد وبذلك خرج عن التعاليم الإسماعيلية وبعد ولادة معد

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص101 .

(2) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦ ص ١٢٨ – ١٢٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٢٨ /ص ١٦٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢ /ص ١٢١.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15/ص182 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص183 ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4/ص193 . 194 .

لقبه بالمستنصر وأصبح ولياً للعهد وهو رضيع[1]، وأخذ الداعي إدريس(872هـ/1467م) يبرر ذلك بقوله: "**وكان والده الظاهر لإعزاز دين الله ، يتوسم فيه الفضل على صغر سنه ، ولاحت فيه لوائح من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء بطوله ومنه ، فقلده الخلافة من بعده ، وجعله ولي عهده**"[2] تواصل انحدار مؤسسة الخلافة نتيجة اعتلاء خلفاء يفتقرون للخبرة سدة الحكم؛ إذ أدى صغر سنهم دوراً حاسماً في ذلك. فخلافاً لما كان عليه الحال في عهد الخلفاء الأوائل، لم يحظَ هؤلاء بفترة إعداد كافية خلال ولاية العهد، ممّا حال دون اتقانهم لمهارات الإدارة السياسية والاستراتيجيات العسكرية الضرورية لقيادة الدولة.

وأخذ المستنصر بالله الخلافة وهو ابن سبع سنين " **ثم تولى الأمر بعده ولده أبو تميم معد المستنصر بالله أمير المؤمنين وعمره سبع سنين وشهران وأخذت البيعة له بعد أبيه في شعبان سنة 427**"[3] ، وبعد اعتلاء المستنصر للخلافة لم يسمِ ولي عهده لمدة خمسين سنة تقريباً وذلك لا يتطابق مع عقيدة الفاطمية في أنّ الخليفة قبل أن يتم دفن من سبقه يقوم بتسمية ولي العهد اللاحق للحفاظ على تلك المؤسسة وكان ذلك أشبه بشعيرة لها القدسية في العقيدة الفاطمية لكي لا تخلو الأرض من حجة ونقل جوذر(**ت ٣٨٦هـ / ٩٩٦م**) عن القائم ذلك في قوله: "**يا جوذر إنّه لا يحل للحجة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم حجة لنفسه**"[4] .

(1) زهر المعاني، ص248 .

(2) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع السادس، ص321 .

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص135 .

(4) جوذر، السيرة، ص39 . 40 .

وتوافق الطرطوشي مع الإسماعيلية في ضرورة وجود حجة في الأرض وذلك في قوله: "**ومن الحكم التي في إقامة السلطان: إنّه من حجج الله تعالى على وجوده سبحانه، ومن علاماته على توحيده، لأنه كما لا يمكن استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر ينفرد بتدبيره**"[1]، وكذلك نوه على المصلحة لوجود سلطان واحد في الأرض لتجنب الفوضى بالحكم وتشتت الآراء والدخول بصراعات على السلطة والنفوذ ممّا يلقي بظلاله على عدم صلاح حياة الناس[2] .

وبعد المتغيرات التي طرأُت على مؤسسة الخلافة ونظامها العام ووصول خلفاء صغار السن وبقاء منصب ولاية العهد من دون مسمى فتح الباب على تدخلات في شؤون الحكم من قبل نساء القصر والفئات المرتبطة بها، وظهور الوزراء الأقوياء بسبب ضعف الخليفة والدخول في صراعات وحروب بين الطامعين في السلطة والنفوذ.

**ثانياً: الوزارة**

تأتي كلمة الوزارة من المؤازرة أي المعاونة أو الوزر بمعنى الثقل، وهو من الرتب المملوكية معناه مطلق الإعانة للسلطان[3]، وهناك نوعان من الوزارة تأتي من طبيعة المهام والصلاحيات، هما وزارة التفويض و التنفيذ[4]، والنوع الأول هو أن يمنح الحرية في تدبير الأمور والاجتهاد في تسيير الإدارة بما يراه صالحاً ولابد فيها أن يكون ذا كفاية وقدرة على الإدارة والاجتهاد ولديه من الصفات القريبة لما يمتلكه الإمام، أضف إلى ذلك خبرة ودراية في أمور الحرب والخراج[5]، أمّا وزارة التنفيذ هي وساطة بين الإمام

(1) سراج الملوك، ص198 . 199 .

(2) سراج الملوك، ص 199 .

(3) ابن خلدون، تاريخ، ج1/ص249 .

(4) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص50 ؛ أبي يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص29 .

(5) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص50 .

والرعية والولاة أي يتصرف برأي الإمام وتدبيره[1]، ويكون شخص الوزير أمّا من أرباب السيوف أو الأقلام وكلاهما ممكن أن يصل إلى وزارة التفويض أو التنفيذ[2] .

وبرهن الطرطوشي على أهمية الوزارة من القرآن الكريم عند ذكر قصة النبي موسى(عليه السلام) وطلبه من الله تعالى أن يجعل له وزيراً من أهله أخاه هارون وبين مهامه وذلك في قوله "**فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران. ثم ذكر حكمة الوزراء فقال: ژ ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئېژ**[3] **. دلت هذه الآية على أن موضع الوزير أن يشد قواعد المملكة وأن يفضي إليه السلطان بعجز ونحوه إذا استكملت فيه الخصال المحمودة"**[4].

أمّا الوزارة عند الفاطميين في المرحلة المغربية لم تكن مكتملة المعنى وكانت شخصية الخلفاء هي الطاغية، مع قيامهم بتكليف الأعمال لمن وجدوا فيه الكفاءة مع خضوعه للمراجعة والمحاسبة منهم عبد الله بن القديم[5] الذي كان عاملاً عند زيادة الله في حكم الأغالبة بعد قيام الدولة الفاطمية منح الأمان وولاه عبد الله المهدي الدواوين وبعد أن ثبت أنّه أفسد

(1) أبي يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص31 .

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3/ص553 .

(3) سورة طه: الاية 32.

(4) سراج الملوك، ص287 .

(5) أبو القاسم عبد الله بن محمد المعروف بابن القديم، من الشخصيات الإدارية التي برزت نهاية العصر الأغلبي، إذ كان من خاصة زيادة الله خلال رحلته إلى المشرق، إذ اضطلع بمهام دبلوماسية وإدارية مهمة فكان رسوله إلى والي مصر والمشرف على أمواله، وبعد إعلان الخلافة الفاطمية في المغرب قربه عبيد الله المهدي الفاطمي وأسند إليه الإشراف على الدواوين والأعمال الإدارية كافة في القيروان تقديراً لكفاءته وخبرته، إلا أن مسيرته انتهت نهاية مأساوية بعد تورطه في مؤامرة ابن العباس الشيعي ضد المهدي، فقد أمر بقتله سنة ٢٩٨هـ/910م . القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص ٢٦٤ – ٢٦٧. الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء، ص ١٢٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ١٢٠ – ١٢١.

وخالف قام بقتله[1]، وبعد أن قرر المعز لدين الله الانتقال إلى مصر أسند جميع الدواوين في أفريقيا إلى زيادة الله بن عبيد الله بن القديم وقال فيه مخاطباً يوسف بن بلكين: "**إنّي تركت زيادة الله بن القديم عونا لك على جميع الأموال بإفريقية، كبّره**"[2]، وذلك معناه أنّ الأعمال والصلاحيات كانت تقلد إلى أشخاص ذوي كفاءة قبل أن يظهر منصب الوزارة بصورة رسمية لعدم إمكانية إدارة البلاد بشكل منتظم ومثالي من دون المعاونة والمؤازرة من قبل الأكفاء .

وبعد انتقال مركز الخلافة إلى مصر تكونت مظاهر الوزارة وترسخت أركانها وكانت أرفع الوظائف في الدولة وأخذ نفوذ الوزير يتباين بين القوة والضعف متأثراً بشخصية الخليفة والأحوال التي تمر بها الدولة، ومن الرجال الذين أوكلت اليهم مهام جليلة هو جوهر الصقلي الذي لم يكن رجلاً فاتحاً للبلاد المصرية فحسب وإنّما مثل الخليفة المعز لدين الله في إدارة مصر إلى انتقال الخلافة رسمياً إلى مصر[3].

وظهرت الوزارة كمنصب في الدولة الفاطمية زمن الخليفة العزيز بالله الذي منح المنصب إلى يعقوب بن كلس[4] سنة (368هـ/973م) ولقب بالوزير الأجل [5]، وكان يهودياً، لذلك اتهم الفاطميون بأنّهم من اليهود وقيل في ذلك "**والدليل على أنّهم من أولاد اليهود استعمالهم اليهود في الوزارة**

(1) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص120 . 121 .
(2) النويري، نهاية الأرب، ج24/ص169 .
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2/ص190،180.
(4) ابن الصيرفي، الإشارة، ص19.
(5) ابن الصيرفي، الإشارة، ص21 .

**والرياسة وتفويضهم إليهم تدبير السياسة"[1]**، وذلك الرأي ليس منصفاً، ولاسيما أنّ يعقوب بن كلس كان يهودياً وأسلم سنة (356هـ/961م) وأظهر إسلامه، في أيام كافور الأخشيدي، وبعد انتقاله إلى خدمة المعز لدين الله الفاطمي في المغرب أصبح أحد علماء المذهب الإسماعيلي وألقى المحاضرات في مجالس الحكمة وكان له مؤلفات في الفقه الإسماعيلي منها كتاب في الفقه عرف بالرسالة الوزيرية[2] وأمّا الفاطميون فبالرغم من أنّهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي إلّا أنّهم لم يتقيدوا في اختيار الكفاءات للإدارة على مختلف الديانات والمذاهب وذلك ينفي تعصبهم لمذهب من دون آخر، بل إنّ الكفاءة والنزاهة على الأرجح هي الحاكمة في الاختيار.

وبيّن الطرطوشي مكانة الوزير من الملك في قوله: "**وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة الوزير عون على الأمور وشريك في التدبير، وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة"[3]** ، لذلك عند اختيار شخص الوزير لابد أن تكون لديه صفات ترجح توليه الوزارة ليتمكن من إدارة السياسة والتدبير لذلك نجد أنّ اختيار الفاطميين للوزير يعقوب بن كلس كان لما امتلكه من صفات أهلته للمنصب، إذ قال فيه الأنطاكي (ت458هـ/1066م) "**وكان رجلا جيّد العقل حسن السياسة كبير الهمّة خبيراً بتدبير المملكة"[4]**.

---

(1) الحمادي، كشف أسرار الباطنية، ص37 .

(2) الأنطاكي، تاريخ، ص219 . 220 ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7/ص227 . 229 ؛ الزركلي، الأعلام، ج8/ص203 .

(3) الطرطوشي، سراج الملوك، ص288 .

(4) تاريخ، ص 219 .

ولم تكن سلطة الوزير مطلقة في خلافة العزيز، فبعد وفاة يعقوب بن كلس، كلف علي بن عمر العداس سنة (381هـ/ 992م)، وقضت التوجيهات بضرورة التزامه بالنزاهة التامة، والابتعاد عن الرشوة وقبول الهدايا، والحرص على كل درهم ودينار في بيت المال [1]، غير أنّ المراجعة المالية بنهاية العام كشفت عن خلل في إدارة الضياع؛ اذ قام بفسخ عقد ضمان ومنحه لملتزم آخر في عملية لم تدرّ ربحاً على خزينة الدولة، وبالرغم من ثبوت براءته من تهم الفساد والارتشاء، إلّا أنّ سوء التدبير كان كفيلاً بإنزال العقوبة به؛ فاعتُقل العداس سبعة وخمسين يوماً، وأُلزم بسداد خسائر المشروع، وانتهى الأمر بعزله من منصبه[2].

وفي خلافة الحاكم بأمر الله سنة (386هـ/996م) أوكل الأمور إلى الحسن بن عمار، وقال له: "**أنت أميني على دولتي**"[3] استمر في مهام منصبه حتى اندلاع الفتنة مع المغاربة عام(387هـ/989م) ، والتي أسفرت عن تنحيته عن مسؤولياته ولزومه داره. ولم تلبث الأمور أن انتهت بمقتله في سنة(390هـ/1000م) ، حيث اتبع ذلك صدور سجل من الخليفة الحاكم بأمر الله تحديداً إلى والي صقلية لأنّه ابن عمّه، تضمن تقريعاً شديداً له وتجريداً لمكانته التاريخية والسياسية السابقة. وقال فيه: "**الحمد لله قاطع الأنساب بفاظع الأسباب اذ يقول وقوله هدى لأولي الألباب يانوح انه ليس من أهلك، وعددت في هذا الكتاب ذنوبه وذكرت اساآته**"[4] وفي ذلك إشارة إلى أن الوزير عندما يمنح الصلاحيات يكون تحت المراقبة والمحاسبة في

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3/ص58 .

(2) ابن الصيرفي، الإشارة، ص24 .

(3) ابن الصيرفي، الإشارة، ص26 .

(4) ابن الصيرفي، الإشارة، ص27 .

أي لحظة يكافأ إن كان مصيباً ويعاقب ان كان مخطئاً أو مسيئاً، وهناك سلسلة طويلة من التعين والإقصاء للوسطاء أو الوزراء ومنهم من كانت عقوبته القتل[1] .

ومن الوزراء أحمد بن علي الجرجرائي[2] الذي كان يعمل في الدواوين لدى الحاكم بأمر الله الذي نقم عليه وأمر أن تقطع يديه ومع ذلك رجع إلى عمله في الديوان وكان مثار عجب لمن شاهده ورد على هؤلاء بقوله: "**إِنّ أَمِير الْمُؤمنِينَ لم يعزلني وَإِنَّمَا عاقبني لخيانتي فَلَمَّا بلغ ذَلِك الْحَاكِم استعظمه وَشرف لَدَيْهِ وَرفع بِهِ إِلى الوزارة**"[3]، وفي قبوله الحكم دلالة على ولائه للدولة الفاطمية واعتقاده أنّه اقترف ذنباً أوجب العقوبة وتلك عقيدة حملها الإسماعيلية في واجب التسليم للأئمة في جميع الأمور ومن ذلك ما ذكره القاضي النعمان (363هـ/973م) في قوله: "**فنزل بهم أمر من الله تعالى أو من أوليائه صلوات الله عليهم فيه لهم عقوبة أو امتحان بأي وجه جرى ذلك ... لم ينكروا من ذلك شيئاً بظاهر أمورهم ولا باطنها، ويسلموا لأمر الله ولأوليائه قوة وفعلاً واعتقاداً ونية، وأيقنوا أن ذلك عدل**

(1) ينظر: ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص19 . 64 .

(2) الجرجرائي: أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي نجيب الدولة ووزير الديار المصرية، ولد في جرجرايا (سواد العراق) وسكن مصر، فتنقل في الأعمال السلطانية في الريف والصعيد، قطعت يداه سنة ٤٠٤هـ/1013م بأمر الحاكم، وولي ديوان النفقات سنة ٤٠٦هـ/1015م ولقب سنة ٤٠٧هـ/1016م بنجيب الدولة، استوزره الظاهر سنة ٤١٨هـ/1027مـ ووقره الخليفة المستنصر ورفع مكانته، استمر في الوزارة ملقباً بالوزير الأجل الأوحد أمير المؤمنين، توفي سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م، وكان ذو مقدرة وشهامة وعفة، خلى فيه التكبر بنفسه. ابن الأثير، الكامل، ج ٩ / ص ٤٩. الدواداري، كنز الدرر، ج ٦/ ص ٣٦٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢/ ص ١٦٥.

(3) ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص102 .

**من الله ومن أوليائه"**[1] والظاهر في تصرف الجرجرائي أنّه نمّ عن العقيدة الإسماعيلية التي توجب طاعة الإمام، وأنّ العقوبة الصادرة عنه تمثل شريعة الله في الأرض، لذلك نلاحظ أنّ الحاكم بأمر الله أيقن بمكانة ذلك الشخص من الإيمان بالعقيدة الإسماعيلية في منزلة الإمام ووجوب طاعته، ومنه قرر أن يرفع من شأنه إلى منصب الوزارة .

وفي خلافة الظاهر لإعزاز الله منح منصب الوزارة للجرجرائي في سنة (418هـ/1027م)[2]، وعرف بكفاءته وحسن سياسته حتى قال فيه: "**رأي أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يستكفيك أمر وزارته وينزلك أعلى منازل الاصطفاء بخاص أثرته ويرفعك على جميع الأكفاء بتام تكرمته وينوه باسمك تنويهاً لم يكن لأحد قبلك من الظهراء في دولته فسماك بالوزير لموازرتك له على حمل الأعباء ووكد هذا الاسم بالأجل لأنك أجل الوزراء**"[3]، وفي ذلك إشارة إلى أنّ المنظومة السياسية التي كان يعمل بها الفاطميون كانت ذات ركائز عقائدية ثابته لها امتداد لعقود من الزمن والدليل أنّ الوزير الجرجرائي قد عمل مع ثلاثة من الخلفاء الفاطميين هم الحاكم والظاهر والمستنصر[4] .

وبيّن الطرطوشي أهمية الوزير وقيمة الأعباء التي يتحملها وذلك في قوله: "**وإنّما اشتقت الوزارة من الوزر وهو الثقل. يريد أنّه يحمل من أمر المملكة وأعبائها وأثقالها مثل الأوزار. أسعد الملوك من له وزير صدق،**

(1) آداب اتباع الأئمة، ص95.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3/ص408 .

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص130 . 131 .

(4) ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص102 .

**إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه"**[1]، ومن ذلك أنّ منصب الوزارة له المكانة السامية في الإعانة على سياسة البلاد وهو ركيزة مهمة لبناء الحضارة وازدهار البلاد فهو مكمل لسلطان البلاد في اتخاذ القرار ومتابعة تنفيذ إستراتيجية الدولة ولا يمكن أن ينجح في ذلك إلّا إذا كان مالكاً لمؤهلات النجاح .

ومن الوزراء الأكفاء في خلافة المستنصر، الحسن بن علي اليازوري[2] (442 . 450هـ/1051 . 1058م)، ونال من الشرف أن جمع له القضاء والدعوة والوزارة حتى قيل في توليته: "**ولقب بالوزير الأجل المكين، سيد الوزراء، تاج الأصفياء، قاضي القضاة، وداعي الدعاة**"[3] وعرف اليازوري بحسن التدبير والقوة في القرار، وكان الاختبار الأبرز بعد سقطته الكبرى عندما أشار على الخليفة بعدم خزن الغلة من القمح في مخازن الدولة والتي كانت تمثل خزيناً إستراتيجياً تلجأ إليه في وقت الأزمات وكان قوله في ذلك: "**يا مولانا, أن المتجر الذي يقام بالغلة فيه مضرة كبيرة على المسلمين, وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها, فتتغير في المخازن وتتلف, وأنه يقام متجر لا كلفة على الناس**

---

(1) الطرطوشي، سراج الملوك، ص288 .

(2) أبو محمد الحسن بن علي ويازور (إحدى قرى الرملة بفلسطين)، جاء لمصر سنة ٤٣٩هـ/1047م وتولى ديوان أم الخليفة المستنصر، ثم ارتفعت مكانته وفي سنة ٤٤٢هـ/1050م بعد أن أثبت جدارة في كل ما تولاه نال عدة ألقاب ولم يجمع ذلك لأحد من قبل: القضاء والدعوة والوزارة، منحته الخليفة لقب الوزير الأجل والمكين وسيد الوزراء وتاج الأصفياء وقاضي القضاة وداعي الدعاة، بلغ من النفوذ وعظم المحتوى أنه ضرب اسمه على السكة مع اسم الخليفة المستنصر بالله، توفي سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م. ينظر: المقريزي، المقفى الكبير، ج3/ص207 ؛ مرهج، دور الوزير الفاطمي اليازوري، ص3-5 .

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص212 .

**فيه, ويفيد إضعاف فائدة الغلة, ولا يخشى عليه من تغيير في المخازن ولا انحطاط سعر, وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك"**[1] .

وبعد هذه المشورة والعمل بها، تعرضت مصر لأزمه خانقة بسبب انخفاض مستوى نهر النيل وذلك في سنة (447هـ/1055م) ووصل سعر التليس[2] من القمح إلى ثمانية دنانير، ولم يكن لدى الدولة خزين من القمح ومع ذلك استطاع أن يساوم التجار في التضييق عليهم وشراء الغلة منهم بسعر ثلاثة دنانير ومنحهم بعض التسهيلات في الخراج مما شجع على تعاونهم مع الدولة واستطاع عبور الأزمة بحسن التدبير[3]، حتى قيل فيه بعد مقتله في سنة (450هـ/1058م): "**فلمّا قتل الوزير أبو محمد لم ترى الدولة صلاحاً، ولا استقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها، ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته، ولا يرضى تدبيره**"[4] .

وبيّن الطرطوشي أن يكون الوزير على قدر من الكفاءة التي تمكنه من تدبير الأمور وإيجاد الحلول الناجعة للأزمات وفي ذلك صلاح البلاد أمّا إذا كان لا يمتلك مؤهلات الوزارة أساء إلى كيان الدولة وقال في ذلك: "**وموقع الوزير من المملكة كموقع العينين من الإنسان وكاليدين، فإنه إذا صح قبضهما وبسطهما صح التدبير، وإذا سقما دخل النقص على الجسد. ولا تصلح الوزارة أن تكون في غير أهلها**"[5].

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج 2/ص 225 ؛ المواعظ والاعتبار , ج 1/ص 205 .

(2) التليس: كيس من الصوف أو الخوص، ذو سعة معينة. لمقريزي، إغاثة الأمة، ص ٤١.

(3) المقريزي، إغاثة الأمة، ص95 . 96 .

(4) المقريزي، إغاثة الأمة، ص96 .

(5) سراج الملوك، ص295 .

وهناك تفاوت في الحظوة والمكانة بين الوزراء في الدولة الفاطمية ومنهم في زمن المستنصر، هو عبد الله بن محمد البابلي الذي جاء إلى الوزارة ثلاث مرات الأولى استمر فيها شهرين وأربعة عشر يوماً، والثانية سنة (452هـ/1157م) لمدة أربعة أشهر، والثالثة بقي فيها خمسة أشهر[1]، وبعد أن اعتقل قال فيه الموكلون في سجنه مقارنة مع اليازوري "**فكان الموكلون به يتعجبون من فرق ما بينه وبين اليازوري، فإن ذاك كان ساكن الطباع كثير الصمت شريف النفس مع حداثة سنه، وهذا شيخ يظهر منه من الخفة والطيش والجهل مع الشيخوخة ما يضحك منه**"[2].

مرت الدولة الفاطمية بمراحل تاريخية حرجة، طغت فيها سلطة الوزارة على مقام الخلافة؛ إذ تحول الخليفة الى رمزٍ بروتوكولي بينما تركزت القوة الفعلية في يد الوزراء، ويُعد بدر الدين الجمالي النموذج الأبرز لهذا التحول، ففي عهد المستنصر بالله، وصلت البلاد إلى حافة الانهيار نتيجة الفتن العسكرية التي أشعلها بنو حمدان[3]، وتفاقم الأزمات الاقتصادية التي بلغت حدّ المجاعة، هذا التدهور دفع الخليفة للاستنجاد بالجمالي(ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) من عكا عام(465هـ/1073م) والذي نجح في استعادة الأمن

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص332 . 333 .

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص251 .

(3) هم فرع من الأسرة الحمدانية التغلبية (آل ناصر الدولة صاحب الموصل)، قادهم الأمير الحسين بن حمدان (ناصر الدولة الثاني)، استغلوا النزاع العسكري بين السودان والأتراك في الجيش الفاطمي وأزمة (الشدة المستنصرية) لإشعال حرب أهلية طاحنة (٤٦٠ – ٤٦٥ هـ / ١٠٦٧ – ١٠٧٣ م)، نجحوا في فرض سيطرتهم على القاهرة ونهب القصور وصك العملة بأسمائهم، وحاولوا قطع الخطبة للخليفة المستنصر لإعادة التبعية للخلافة العباسية حتى انتهت فتنتهم بقتلهم على يد حلفائهم الأتراك، ابن الأثير، الكامل، ج ٨/ص ٣٩. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢ / ص ٢٢٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥ / ص ٩٠ وما بعدها.

وبسط نفوذه على مفاصل الدولة، مُنهياً بذلك عهد السلطة المطلقة للخليفة، الذي لم يعد يملك من أمره سوى الظهور في المناسبات الرسمية [1] .

**ثالثاً: القضاء**

ذكر الطرطوشي الصفات التي هي قواعد السلطان في الحكم وتأذن له في الاستمرار وعدم الانهيار والزوال وأولها العدل وذلك في قوله "**فأول الخصال وأحقها بالرعاية العدل الذي هو قوام الملك، ودوام الدول ورأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو إصطلاحية**"[2]، وكان من ركائز قيام الدولة الفاطمية هو إقامة العدل بين الرعية وذلك ما كان يتطلع إليه الإسماعيلية وذلك في قولهم ""**أبشروا بالمهدي, فإنّه ينبعث على اختلاف من الناس شديد, وبلابل يملأ الأرض قسطاً وعدلا, كما ملئت جوراً وظلماً ويرضى عنة ساكن السماء , وساكن الأرض ويملأ الله قلوب عباده سروراً ويسعهم عدله**"[3]، وبذلك فإنّ أمل المستضعفين هو إقامة العدل وهو شعار الدعاة الإسماعيلية في جذب المريدين .

وفي دراستنا للقضاء نحاول عدم الخوض في الهيكل التنظيمي وإنّما نبحث آثار تلك المؤسسة في المجتمع ومدى التغيير الذي حصل في حياة الناس بعد قيام الدولة الفاطمية وهل استطاعت أن تنفذ شعاراتها الإصلاحية ووعودها في مرحلة التأسيس .

إنّ أدق مظاهر القضاء هو العدل، قال الله تعالى في كتابه الكريم: **ژ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ**"[4]، من ذلك أن مؤسسة القضاء تتحمل أعباء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتنفيذ أحكام الله تعالى بين الناس وقد بيّن

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص135 .

(2) سراج الملوك، ص213 .

(3) إدريس , عيون الأخبار ,السبع الخامس , ص 11 .

(4) سورة النحل، الآية 90 .

النبي الأكرم (ﷺ) خطورة مهنة القضاء في قوله: "**مَنْ جُعِلَ قَاضِيًا بَيْنَ النَّاسِ، فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ**"[1] .

وبعد دخول أبي عبد الله الشيعي إلى مدينة القيروان أسند القضاء إلى محمد بن عمر المروزي[2] وأقر تعيينه الخليفة عبد الله المهدي ليكون أول قاضٍ على المذهب الشيعي[3]، وعيّن أفلح بن هارون الملوسي على قضاء رقادة[4]، وكان القاضي يخضع للرقابة وتقييم الآداء وذكر الخشني (361هـ/971م) من أراد أن يكلف في القضاء أو الوظائف المرتبطة به وكان من المذاهب المخالفة في المغرب كان عليه أن يغيّر إلى المذهب الإسماعيلي ومنهم قاضي صقلية إسحاق بن أبي المنهال، الذي أسند اليه القضاء على مرحلتين في خلافة عبد الله المهدي، الأولى في صقلية والثانية في القيروان[5] وقال فيه "**وإنّما كنّا عزلناك للينك ومهانتك ورددناك لدينك وأمانتك**"[6]، والواضح من أسلوب النص أنّ الداعي لإعادة التكليف بالقضاء هو الدين والصدق والأمانة وذلك ينافي القائل بأنّ تشيعه كان لأجل وظيفة القضاء[7]، أضف إلى ذلك قوله في قاضي المهدية زرارة بن أحمد: "**كان**

(1) ابن ماجه، السنن، ج2/ص774 ؛ أبو داود، السنن، ج3/ص298 .

(2) فقيه وقاضي شيعي إسماعيلي، عين سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م من قبل الداعية أبي عبد الله الشيعي كأول قاضي للدولة الفاطمية الناشئة في القيروان، حيث كان أول من تلقب بلقب قاضي القضاة في سجلات إفريقية، أقره عبيد الله المهدي في منصبه ففرض المذهب الإسماعيلي بقوة السلطة في إفريقية، انتهت حياته نهاية مأساوية بعد تزايد الشكاوى الشعبية من فظائعه، إذ غضب المهدي فعزله من منصبه ثم عذبه وقتله سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م. ابن عذاري، البيان، ج ١ /ص ١٥١ وما بعدها؛ أبو العرب، المحن، ص ٤٧٨؛ السنوسي، مسامرات، ص ١٦.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص151 ؛ السنوسي، مسامرات، ص283 .

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص159 .

(5) الخشني، طبقات علماء إفريقية، ص232 . 241 .

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص189 .

(7) طبقات علماء إفريقية، ص235 .

**يصحب المدنيين والعراقيين، ويتحلى بالعلم والنظر في اختلاف الناس، تشرق وولاه عبيد الله قضاء مدينته التي أسماها المهدية وهو في مذهب الشيعة من الغالين"**[1] وهذا النص أعطى إشارات بأنّ هؤلاء قد دخلوا في المذهب الإسماعيلي عن علم وإيمان وإلّا كيف يكون من المغالين الشيعة، وكان تشيعه لغرض الوظيفة، فضلاً عن أن الفاطميين في المغرب حرصوا على أن تكون مهنة القضاء لدى الفقهاء الإسماعيلية للإبقاء على الأحكام على وفق المذهب الإسماعيلي لتطبيق سياسة العدل التي وعدوا بها الناس.

وباشر عبد الله المهدي سماع المظالم بنفسه وإنصاف أهل الحق، لذلك شاع عدله وكسب قلوب الناس[2] ويبدو أنّ سياسة عبد الله المهدي في إسناد القضاء على أساس المذهب لم تستمر طويلاً لكثرة المخالفين من المذاهب الأخرى في أرض المغرب لذلك لابد للخلفاء الفاطميين من مراعاة ذلك، وفي خلافة القائم بأمر الله راعى في تكليف أحد قضاته رغبات الرعية، فقرّه على القضاء[3] وهو أحمد بن الوليد[4] .

وكذلك في خلافة المنصور كان قاضي برقة من المذاهب المخالفة ووصل للخليفة قوله: **"إنّ قاضي برقة تقدم إليه خصمان، فحكم على**

---

(1) طبقات علماء إفريقية، ص241 .

(2) الداعي ادريس، تاريخ الخلفاء، ص177 . 178 .

(3) القضاعي، تاريخ، ص561 ؛ ابن ظافر، أخبار، ص17 .

(4) أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الوليد المعروف بابن الوليد، من الشخصيات الدينية والقضائية البارزة في القيروان خلال فترة الخليفة الفاطمي أبو القاسم القائم بأمر الله، تولى منصب صاحب المظالم وحاكم القيروان في فترة اضطرابات أبي يزيد بعد ما فوض أهل القيروان باختيار من يتولى شؤونهم الشرعية والقضائية فوقع إجماعهم عليه لما عرف به من العلم والدين وحسن السيرة، اشتهر بفصاحته وبلاغته في الخطابة إلى جانب ما اتصف به من العدالة والاستقامة في أحكامه، وقد ظل موضع تقدير بين أهالي القيروان حتى وفاته سنة ٣٤٥هـ/956م ودفن بباب سلم. القضاعي، تاريخ، ص٢٥٦. المالكي، رياض النفوس، ج ٢/ ص ٢٣٠. الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج ٣ / ص ٥٣ – ٦١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ١ /ص ٧٦.

**أحدهما، فقال له المحكوم عليه: لقد حكمت بغير مذاهب أهل البيت عليهم السلام. فقال له: والله لا أحكم بمذاهبهم ولو علّقت بيدي، فأحضروه إلى القيروان وعلّق بيده على خشبة غرزت في غربيّ الجامع حتّى مات"[1]**، والظاهر من النص أنّ الخلفاء الفاطميين كانوا يحاولون التقليل من الاحتقان الطائفي من خلال تعيين الفقهاء من المذاهب الأخرى في القضاء أو غيره من الوظائف وبالأخص بعد الثورات والتمردات التي نشبت في أرض المغرب وكانت الصراعات الطائفية جزءاً من أسبابها.

ومن ذلك تولية محمد بن أبي منظور[2] قاضيّاً على القيروان بعد فتنة أبي يزيد لإرضاء الناس مع مراعاة أن يتصف القاضي بالعدالة والوقار "**وكان شرط على إسماعيل حين ولاهم أن لا يأخذ لهم صلة. ولا يركب لهم دابة، ولا يقبل شهادة من قاربهم. ولا يركن إليهم. فأجابوه إلى ذلك. وكان صليباً في قضائه. سالكاً طريق العدل في أمره"[3]**، وكان الفقهاء من جميع المذاهب لهم حظوة عند الخلفاء الفاطميين ما داموا مع النظام في الدولة ولا يتآمروا أو يتمردوا ويتحالفوا مع الأعداء وكانوا من المقربين للخليفة لتقديم المشورة في رسم سياسات البلاد ومن ذلك ما نقله المقريزي(845هـ/1441م) في قوله "**وأمر القاضي النعمان بن محمّد بجمع العلماء المالكيّة والشافعيّة**

---

(1) المقريزي، المقفى، ج2/ص102 .

(2) محمد بن أبي منظور: أبو عبد الله محمد بن أبي المنظور الأنصاري، قاضي مالكي من كبار أصحاب الحديث، تولى قضاء القيروان بعد فتنة أبي يزيد الخارجي، اشتهر بصلابته في الحق واستقلاله عن نفوذ الدولة، ولاه الخليفة الفاطمي المنصور بالله القضاء ليتألف به الرعية فاشترط ألا يأخذ راتباً وأن لا يركب دواب السلطان وألا يقبل شهادة بطانة الدولة، توفي سنة ٣٣٧هـ/948م. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج ٣ ص/ ٣٢٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥ /ص ٣٢٦.

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج5/ص329 .

**والحنفيّة والشيعة، فاجتمعوا يوم الخميس النصف من صفر، للنظر في هدنة صاحب القسطنطينيّة وموادعته، وهل يجتمع رأيهم على قبول المال منه وترك محاربته، أو محاربته وترك موادعته"[1].**

وكان للقاضي النعمان صلاحيات واسعة في القضاء فبعد أن كلفه المنصور بالقضاء أمره بأن يتخذ من قصر الخلافة مكاناً للنظر في حوائج الناس ورفع ظلاماتهم وكان أغلب المتظلمين من النساء والضعفاء وبعد أن ضاق القصر بهم ومن أجل رفع الحرج عن قدومهم لعظم قصر الخلافة في نفوسهم، وبعد أن التقى المعز لدين الله بالقاضي النعمان بيّن له بأنّه يرغب في نقل مكان القضاء إلى مكان أصلح وأقرب للرعية وذلك في قوله: **"لا والله ما هو بموضع يصلح لك، ولأن تكون بارزاً للناس ظاهراً يصل إليك الضعيف، ويبلغ حاجته لديك، وتقف المرأة وتبلغ اليك في استتار، ويمكنك من إقامة ما يجب إقامته من الحدود والآداب، أهيأ وأجمل وأفضل، فقلت، الرأي ما رأه الأمير، وفقه الله وسدده"[2]**، وأعطى صلاحيات للقاضي النعمان في تعيين القضاة في كامل الأراضي التي تحت نفوذ الدولة الفاطمية ويحكمون على وفق فقه وأحكام المذهب الإسماعيلي[3] .

وذلك ما بيّنه الطرطوشي في رسم السياسة العامة للملوك التي فيها الوعد بالنصر والديمومة والبقاء ووضع شرائط لذلك بينها في قوله تعالى: **ژ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ژ**[4]عززها الله تعالى في كتابه الكريم

(1) المقفى، ج2/ص102 .

(2) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص332 . 333 .

(3) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع الخامس، ص331 .

(4) سورة الحج، الآية 41 .

بوعد بالنصر في قوله تعالى: " ژ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ژ"[1] وأوضح الطرطوشي تلك الشروط التي فيها سبيل النصر والإصلاح وبينها في **قوله "بإقامة الميزان بالقسط الذي شرّعه الله تعالى لعباده، وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السماوات والأرض، وإظهار شرائع الدين ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم، وكف يد القوي عن الضعيف ومراعاة الفقراء والمساكين، وملاحظة ذوي الخصاصة والمستضعفين"**[2] .

وبيّن القاضي النعمان(363هـ/973م) إحدى المظالم التي رفعها مجموعة من الناس ضد أحد الولاة فأمر المنصور أن يشخص الوالي مع المدعين ضده وينظر فيها النعمان ولما سمع من الأطراف الخصوم اعترف الوالي ببعض الحق وناور بالبعض الآخر بحجة أنّ تلك الصلاحيات منحها له المنصور ورفع القاضي النعمان الأمر إلى الخليفة للنظر في الحكم، فأرسل إليه المعز لدين الله وبعد أن حضر خاطبه بقوله: "**إنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنّما يصرف إليك من يصرفه ممّن يشتكي من العمال لتسمع قول الناس فيهم وشكواهم وتنصفهم فيما يجب من دعواهم وتغلظ فيما ينبغي فيه الإغلاظ عليهم**"[3]، والواضح من النص أنّ القاضي مطلق الصلاحيات في اتخاذ الحكم وفق الأدلة المتوفرة بين الخصوم ولا حصانة للولاة أو غيرهم من رجال الدولة وأنّ الجميع متساوون أمام القضاء .

وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر تطورت وظيفة القضاء وظهر منصب قاضي القضاة في خلافة العزيز لدين الله ومنح لأبي الحسن علي

(1) سورة الحج، الآية 40 .

(2) سراج الملوك، ص160 . 161 .

(3) المجالس والمسايرات، ص77 . 78 .

بن النعمان[1]، وولي القضاء بعده أخوه أبو عبد الله محمد بن النعمان الذي نقل عنهم قولهم فيه: "**ولم نشاهد بمصر لقاض من الرياسة ما شاهدناه له، ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق، ووافق ذلك استحقاقًا؛ لما فيه من العلم والصيانة والهيئة وإقامة الحق، وقد ارتفعت رتبته؛ لأنّ العزيز أجلسه معه يوم العيد على المنبر، وزادت عظمته في دولة الحاكم**"[2] وبقي في القضاء حتى وفاته سنة(489هـ/1096م)، ومن الواضح اهتمام الفاطميين في إسناد القضاء إلى أكفاء لهم من العلم والفقه في أحكام القضاء ما يؤهلهم لشغل ذلك المنصب لما له من أهمية في تثبيت أركان الدولة وتهيئة ركائز نموها وازدهارها .

وتعرض ذلك المنصب إلى حلقات فساد ومرحلة اضطراب كما في سائر مفاصل الدولة منها في خلافة الحاكم بأمر الله بعد أن أسند القضاء إلى الحسين بن علي بن النعمان سنة (390هـ/1000م) وأصبح قاضي القضاة[3]، إلّا أنّه عزل سنة (394هـ/1004م) ثم قتل وأحرق وكان السبب؛ ظلامة رفعت من رجل إلى الحاكم بأمر الله اتهم القاضي بالتلاعب وأخذ أموال إرث أبيه المودعة في ديوان القاضي وبعد التفتيش والتدقيق أقر القاضي بذنبه وطلب العفو والتوبة إلّا أنّ ذلك لم يشفع له فأمر الحاكم برميه في النار حتى هلك[4] وولي القضاء بعده ابن عمّه عبد العزيز بن محمد بن النعمان وقتل سنة (398هـ/1008م)[5] .

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2/ص147 .
(2) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2/ص147 .
(3) العسقلاني، رفع الإصر، ص ١٣٩ – ١٤٢.
(4) المقريزي، المقفى، ج3/ص 354 . 355 .
(5) الكندي، كتاب الولاة، ص356 .

وفي خلافة المستنصر عانت البلاد من فوضى إدارية وصلت إلى وظيفة القضاء فما بين سنتي (450 . 466هـ/1058-1074م) تقلد القضاء اثنان وأربعون قاضياً[1]، وبعد مجيء بدر الدين الجمالي طرأ تغيير على منصب قاضي القضاة الذي قال فيه ابن الطوير "**كان قاضي القضاة طوال العصر الفاطمي يختار من بين الفقهاء الإسماعيليين ويشترط عليه ألّا يحكم إلّا بمذهب الدولة**"[2]، وبعدها أخذ يلقب الجمالي (كافل قضاة المسلمين) وأصبح القاضي نائباً للوزير ويقرأ ذلك في الكتب الصادرة إلى الآفاق[3].

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص70 .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص71 .

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص70 . 71 .

## المبحث الثاني

## العمران والنشاط الاقتصادي

ذكر الطرطوشي أنّ أساس عمران الأرض من خلال التعاون وازدهار الحياة الاقتصادية هو عدل السلطان وذلك في قوله: "**إنّ السلطان إذا عدل انتشر العدل في رعيته وأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم، ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور، وانتعشت قوانين الحق فأرسلت السماء غياثها، وأخرجت الأرض بركاتها، ونمت تجارتهم وزكت زروعهم وتناسلت أنعامهم، ودرت أرزاقهم ورخصت أسعارهم وامتلأت أوعيتهم، فواسى البخيل وأفضل الكريم، وقضيت الحقوق وأعيرت المواعين، وتهادوا فضول الأطعمة والتحف**"[1].

وبين ابن خلدون(808هـ/1406م) العلاقة بين الاجتماع الإنساني والنشاط الاقتصادي والعمران في قوله "**اعلم أنّه لمّا كانت حقيقة التّاريخ أنّه خبر عن الاجتماع الانسانيّ الّذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التّوحّش والتّأنّس والعصبيّات وأصناف التّغلّبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدّول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصّنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال**"[2]، ومن ذلك فسّر ابن خلدون(808هـ/1406م) غايات الاجتماع الإنساني من أجل التعاون في النشاط الاقتصادي لتوفير بيئة منتجة تغطي

(1) سراج الملوك، ص187 .

(2) ابن خلدون، تاريخ، ج1/ص46 .

حاجات الإنسان المتزايدة وبالتالي تؤدي إلى تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية ممّا يؤسس ركيزة وأساساً للعمران .

ومن الأمثلة على فلسفة العمران عند الفاطميين في المغرب هو بناء مدينة المهدية وما شهدته من تكامل في العمران للجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومن ذلك قول عبدالله المهدي بعد اكتمال بنائها ""**اليوم أمنت على الفاطميات**"[1] وذلك معناه الحفاظ على النظام السياسي القائم أولاً وذكر المهدي الغاية من بناء المهدية لحماية كيان الدولة وعاصمتها من الفتن وبالتالي توفير الحماية والأمن للمجتمع وذلك في ما تحدث به المعز نقلاً عنه في قوله: "**وذلك أنّه كان يرمز بمحنة تكون، وفتنة تظهر، ونفاق يشتمل على أكثر الأمة، ومن أجل ذلك ابتنى المهدية وحصنها**"[2]، وفي ذلك قراءة لواقع المغرب ورسم سياسات مستقبلية في بناء المدن ومراعات ذلك في مرتسم البناء لذلك فقد بالغ في تحصيناتها وبنى بها مرسى للسفن الحربية وقيل فيه "**وأمر المهدي بحفر مرسى المدينة وكان حجرا صلدا فنقر نقرا وجعله حصنا لمراكبه الحربية**"[3]، وذلك أعطاها أكثر مناورة واستراتيجية في مواجهة الأخطار وقيل فيها: "**ووصفوها بالمنعة، وأنّه لم يبنَ مثلها**"[4] وتلك المنعة لا تتم من دون تكامل الجوانب الأخرى لذلك طلب الناس من المهدي الانتقال إلى السكن فيها وذلك في قولهم "**فخرج**

(1) ابن الأثير , الكامل , ج 6/ص 641 ؛ ابن الوردي , تتمة المختصر، ج 1/ص 245 ؛ ينظر : مقديش , نزهة الأنظار ، ج 1/ص 344 – 347 .

(2) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص542 .

(3) التجاني، رحلة، ص322 .

(4) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص542 .

**النـاس ... وكتبـوا إلـى المهـدي يسـألونه الانتقـال إلـى المهديـة فأجـابهم إلـى ذلك فانتقلوا إليها وتمت عمارتها"**[1].

ومنهـا علـى مسـتوى الفعاليـات الاقتصـادية مـا رواه القاضـي النعمـان(363هـ/973م) مـن لقائـه مـع مجموعـة مـن أهـل البـوادي القريبـة مـن المهديـة الـذين كـانوا يحملـون معهـم غلـة بـاعوا مـا عنـدهم ولـديهم أمـوال كثيـرة وكـان النعمـان قـد اسـتفهم مـنهم كيـف أنّهـم قـد أظهـروا تلـك الأمـوال ولا يخـافون مـن السـراق وقطـاع الطـرق وكيـف تـتم المعـاملات التجاريـة بطمأنينـة وسـلام وتحـدثوا لـه بعـدم وجـود تلـك المخـاطر فـي وجـود الخلافـة الفاطميـة [2]، وبينّـت تلـك القصـة مسـتوى الأمـن والاسـتقرار الاجتمـاعي والاقتصـادي فـي تلـك المدينـة والتـي مثلـت مـا عمـل الفـاطميون علـى تأسيسـه، أضـف إلـى ذلـك الموقـع الجغرافـي علـى المسـتوى الاقتصـادي كونهـا تقـع علـى سـواحل البحـر، ممّـا أضـفى علـى سـكانها الرفـاه فـي المسـتوى المعيشـي والـدليل علـى ذلـك الواقـع العمرانـي للمدينـة إذ ذكـر فـي قـولهم: "**وابتنـى بهـا الحصـون والقصـور الحسـنة الشـارعة علـى البحـر والظـاهرة عنـه وابتنـى النـاس بالمهديـة أجـل الأبنيـة وصـارت مـن أجـل الأمصـار**"[3]، وقيـام النـاس ببنـاء تلـك الأبنيـة المميـزة تعبيـر عـن القـدرة الشـرائية للسـكان والتـي تعكـس البيئـة الاقتصـادية المثاليـة للنمـو الاقتصادي والعمراني .

وبنـى عبـدالله المهـدي مدينـة أخـرى سـميت زويلـة المهديـة لقربهـا مـن المهديـة وارتباطاتهـا الاقتصـادية معهـا وبـين ذلـك يـاقوت الحمـوي فـي قولـه: "**زويلـة المهديـة، وهـي مدينـة بإفريقيـة بناهـا المهـدي عبيـد الله ... بينهمـا**

(1) التجاني، رحلة، ص323 .

(2) ينظر: القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص337 . 338 .

(3) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص145 ؛ ابن سباهي زادة، أوضح المسالك، ص613 .

**رمية سهم فقط، فسكن هو وعسكره بالمهدية ... وأسكن العامة في زويلة، وكانت دكاكينهم وأموالهم في المهدية وبزويلة مساكنهم، فكانوا يدخلون بالنهار للمعيشة ويخرجون بالليل إلى أهاليهم"**[1]، وكان المهدي قد حقق مبتغاه من انشاء تلك المدينة ولكونه أدرك طبيعة أهل المغرب وقربهم من التمرد لذلك عندما سئل عن سبب التفريق بين سكن هؤلاء العامة وأموالهم فقال في جواب حكيم "**أنا في راحة لأني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم فآمن غائلتهم"**[2]، وكذلك جعل لهم وازعاً للدفاع عن مدينة المهدية لقيامهم في دفاع مقدس عن عوائلهم وأموالهم في المهدية فكانوا جدار صدّ في وجه الأعداء .

وقام القائم بأمر الله ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م. وسماها المحمدية وكان له إستراتيجية من بناء تلك المدينة فقد كانت تسكنها قبيلة بني كملان من هوارة وكانت أقرب إلى التمرد من الطاعة لذلك تم نقلهم إلى (فج القيروان) وأمر ببناء تلك المدينة من قبل علي بن حمدون الأندلسي الذي جعلها تحت ولايته وأضاف إليها الزاب وعمل على تحصينها وجعلها مخزناً للأقوات وبيّن حسن سياسته فيها بعد تمرد صاحب الحمار وانضمام بني كملان تحت رايته وتمردهم ضد الفاطميين وكان في تلك المدينة المدد للمنصور في الحصار الذي فرضه ابن كيداد على الفاطميين[3] دلّ ذلك على القوة الاقتصادية والبشرية لتلك المدينة فكانت سنداً للمنصور في حماية المهدية وصدّ تمرد صاحب الحمار، وبيّن المقريزي(845هـ/1441م) أهمية تلك المدينة في قوله: "**وانتقل كثير من**

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص160 .

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3/ص160 .

(3) ابن خلدون، تاريخ، ج4/ص51 .

**الناس إلى المحمدية، وأمر عاملها أن يكثر من الطعام، ويخزنه ويحتفظ به، ففعل ذلك، فلم يزل مخزونا حتى خرج أبو يزيد، ولقيه المنصور بن القائم بن المهدي، ومن المحمدية كان يمتار ما يريد إذ ليس بالموضع مدينة سواها"**[1]، ومن ذلك النص تبيّن نجاح الغاية الإستراتيجية من تلك المدينة وتكامل تلك المدينة من الجوانب السياسية والعمرانية والاقتصادية والبشرية وتلك فلسفة العمران لدى الفاطميين .

أمّا في زمن المنصور بنصر الله اختط مدينة المنصورية أو (صبرة) ونقل إليها أسواق القيروان وصناعاتها وقال فيها **البكري (ت٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م) "ومدينة صبرة متّصلة بالقيروان، بناها إسماعيل سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة واستوطنها وسمّاها المنصورية، وهي منزل الولاة إلى حين خرابها، ونقل إليها معد بن إسماعيل أسواق القيروان كلّها وجميع الصناعات ... ويذكر أنّه كان يدخل واحد أبوابها كلّ يوم ستّة وعشرون ألف درهم"**[2].

ومن ذلك تبيّنت العلاقة الوطيدة بين السياسة والعمران والاقتصاد والمجتمع فمدينة المهدية أدت ما عليها كمدينة دفاعية استطاعت أن تصمد في وجه قوة أبي يزيد وجبروته، وإنّ البقاء في تلك المدينة يعني البقاء في حالة الدفاع وذلك ليس من الحسن كون قدرات المدينة وعناصر قوتها وضعفها أصبحت مكشوفة للأعداء، ولابد للفاطميين أن ينتقلوا إلى حالة الهجوم والتوسع وكانت أرض صبرة أفضل المناطق من جوانب عديدة منها كانت الأرض التي انتصر فيها المنصور على صاحب الحمار وانتقل فيها من حالة الدفاع إلى الهجوم، أضف إلى ذلك الموقف السلبي لمدينة القيروان

(1) اتعاظ الحنفا، ج1/ص72 .

(2) المسالك والممالك، ج2/ص676 . 677 .

ووقوفها إلى جانب الأعداء بسبب تركيبتها الاجتماعية المعارضة للفاطميين، وما تمثله تلك المدينة من أهمية جغرافية وإستراتيجية في حركات التمرد لذلك لابدّ للفاطميين أن يحسنوا التعامل مع تلك المدينة لذلك اتخذ ذلك الموقع القريب من القيروان والمشرف عليها أضف إلى ذلك تفريغ قوتها وأهميتها الاقتصادية من خلال نقل الأسواق والصناعات منها إلى مدينة المنصورية ومن ذلك ما ذكره ابن حوقل (٣٦٧ هـ / ٩٧٨م)في ذلك "**فمنّ على أهل القيروان بالعفو والغفران واتّبع أبا يزيد فكان بينهما ما يطول شرحه ويتفاقم إنباؤه إلى أن أخذه ورجع إلى العسكر المنصور والمكان المذكور فاختطّ به أحسن بلد فى أسرع أمد وانتقل اليه واستوطنه وأقام به واستحسنه**"[1].

وبيّن الطرطوشي العلاقة بين السياسة والأمن والنشاط الاقتصادي نقلاً عن حكم أهل الهند في قوله: "**وفي حكم الهند: أفضل السلطان من أمنه البريء وخافه المجرم ... شر المال ما لا ينفق منه وشر الإخوان الخاذل ... وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن**"[2]، وهنا أشار إلى سياسة العدل التي لا يظلم فيها برئ ولا يسلم منها مجرم وحذر من خذلان الأنصار الذي يؤدي اختلال الداخل وهو أخطر من بأس الأعداء، وبين أهمية السياسة المالية التي توازن بين الإيرادات والنفقات وتلك السياسة التي يزدهر فيها النشاط الاقتصادي ويعم فيها الأمن في ربوع البلاد .

وعند دراسة الظروف التي انتقل فيها الفاطميون إلى مصر نجد أنّ تلك البلاد كانت تمر في حالة من الانهيار الحضاري في جميع المستويات، منها الجانب السياسي الذي عانى من الفراغ وتشتت القوى الذي دفع بعضهم

(1) صورة الأرض، ج1/ص72 .

(2) سراج الملوك، ص249 . 250 .

إلى إرسال دعوة للمعز للقدوم، وأشار إليه الأنطاكي(ت458هـ/1066م) في قوله: "**ولم ترض الإخشيديّة أن يكون شمول[1] مدبّرا لهم، وصار كلّ واحد منهم يتسمّى بالأمير، وكثر حسد بعضهم لبعضهم، وكتب جماعة منهم ومن وجوه البلد إلى المعزّ لدين الله صاحب المغرب يستدعون منه إنفاذ جيوشه إلى مصر ليتسلّمها وضمنوا له المعونة والمساعدة على أن يملك البلد بغير حرب ولا قتال**"[2].

وفي الجانب الاقتصادي عانت البلاد من أزمات متتالية وكان أشدها في عام (352هـ/963م) واستمر لمدة تسع سنين بسبب انخفاض منسوب مياه نهر النيل ممّا نتج عنه ارتفاع أسعار القمح وقال فيه المقريزي(845هـ/1441م): "**فعظم البلاء وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن ونهبت الضياع والقلاع ، وماج الناس في مصر بسبب السعر**، وتفاقمت الأزمة الاقتصادية في عامي (357. 358هـ/968-969م) ورافق ارتفاع الأسعار وقلة الأقوات انتشار وباء هلك فيه ناس كثيرون حتى قال فيه الأنطاكي(ت458هـ/1066م): "**وهلك الضعيف من الناس وأكلوا الميتة والجيف وكانوا يسقطون موتى من الجوع ، وزاد الوباء وكثر الموت ولم يلحق دفنهم، وكان يحفر لهم حفرا ويرمى فيها عدّة كثيرة ويردم عليهم**

(1) شمول: شمول بن عبد الله أبو الحسن الكافوري مولى كافور الإخشيدي، ولي إمرة دمشق في خلافة الحسن بن عبيد الله بن طغج بن جف، أمير دمشق سنة ٣٥٨هـ/968م، فأقام بها إلى أن بلغه توجه جعفر بن فلاح من قبل جوهر الصقلي قائد المصريين لأخذ دمشق، فاستخلف على دمشق غلامه إقبالاً وتوجه لقتاله، فلما هزم جعفر الحسن بن عبيد الله صار شمول من أصحابه فولاه دمشق سنة ٣٥٩هـ/969. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢٣ /ص ٢١٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٦ /ص ١٧٤. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ١ /ص ١٢٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٤ /ص ٤٢.

(2) الأنطاكي، تاريخ، 121 . 122 .

**التراب من غير صلاة ولا غسل ولا كفن، ولم يزل أمرهم على تلك الصورة إلى سنة إحدى وستّين وثلاثمائة"[1]**

وفي الجانب الاجتماعي تفاقم انتشار الفساد والانحلال الاجتماعي ومنها حادثة ابنة الإخشيد التي اشترت جارية ذات حسن وجمال أرسلتها أم الأمراء زوجة المعز لتباع في مصر واشترتها ابنة الإخشيد الشابة بمبلغ ستمائة دينار بعد أن تحايلت على البائع وقيل له إنّها تريدها لتتمتع بها فنقل ذلك الخبر إلى بلاط المعز الذي سارع إلى جمع الناس وقال لهم "**يا إخواننا: انهضوا إليهم، فلن يحول بينكم وبينهم شيء، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم**"[2] .

وبيّن الطرطوشي أنّ أهم ما انماز به النظام السياسي الناجح هو اختيار الأكفاء في مواقعهم المناسبة ممّا يؤدي إلى عزة البلد ودفع شر الأعداء . وأضاف إلى ذلك إنّ تحسين السياسة المالية أولاً ورفع المستوى المعاشي وتحسين الوضع الأمني هي سبل حماية ذلك الازدهار والانتعاش الاقتصادي ، كما بيّن أنّ أهم خصال العمل الناجح انضاج سياسة إصلاحية تقوم على الممكن والابتعاد عن السياسات المتهورة التي لا تجلب الخير للبلاد والاستفادة من الأخطاء السابقة وعدم تكرارها، كونها تؤدي إلى الانحدار في السياسة الإصلاحية ومن ذلك قوله: "**من استكفى الكفاة كفى**

(1) تاريخ، ص122 .

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص100 .

**الأعداء. خير مالك ما أغناك وخير منه ما وقاك من ترك العمل بما ينبغي عومل بما لا ينبغي. ليس في الشر أسوة ولا في الخطأ قدوة"** [1].

يظهر جوهر الصقلي كأحد القادة الأكفاء الذين وضعوا حجر الأساس للدولة الفاطمية وعززوا نفوذها في بلاد المغرب، فقد استهدفت الاستراتيجية الفاطمية التوسع شرقاً لتقويض النفوذ العباسي وانتزاع الأراضي الخاضعة لسيطرتهم، مع عدّ مصر الهدف المحوري في هذا المخطط، ومن منطلق الحنكة السياسية أدرك المعز لدين الله ضرورة تأمين الجبهة الغربية أولاً وقمع القوى المناوئة في المغرب لضمان سلامة حدود الدولة الناشئة؛ لذا سيّر في عام( 347هـ/958م )حملة عسكرية كبرى قوامها عشرون ألف مقاتل تحت قيادة الصقلي، لتأديب الخصوم وتمهيد الطريق نحو الزحف الكبير باتجاه الشرق قيل فيها: "**سار جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين , ويفتح البلاد والمعاقل , وفرت أمامه القبائل من زناته وغيرهم, فأنفذ الأمر بالمغرب ثلاثين شهراً ثم انصرف إلى مولاه معد بن إسماعيل بعد أن دوخ بلاد المغرب وأثخن فيها وقتل حماتها وقطع الدعوة بها للمروانيين وردها للعبيدين فخطب لهم على جميع منابر المغرب**"[2].

وبعد تلك الانتصارات كان جوهر الصقلي هو الأجدر لقيادة حملة فتح مصر وبعد فتحها أدرك الفاطميون حجم الأخطار التي تلاحقهم لذلك لابد لهم من تغيير في عمارة مصر وبناء مدينة حصينة تتكامل فيها مرتكزات الدولة من جوانب سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية وكانت أطماع الروم في بلاد الإسلام تمثل الخطر الأكبر وكان سبيلهم إلى ذلك السيطرة على بلاد الشام التي مثلت الامتداد الجغرافي للبلاد المصرية ومنها ما ذكره

(1) سراج الملوك، ص766 . 767 .

(2) ابن أبي زرع , روض القرطاس , ص 90 .

ابن الأثير في أحداث سنة (360هـ/971م) في قوله: "**وَقَصَدَ (مَلِكُ الرُّومِ) حِمْصَ، وَكَانَ أَهْلُهَا قَدِ انْتَقَلُوا عَنْهَا وَأَخْلَوْهَا فَأَحْرَقَهَا مَلِكُ الرُّومِ وَرَجَعَ إِلَى بُلْدَانِ السَّاحِلِ (فَأَتَى عَلَيْهَا نَهْبًا وَتَخْرِيبًا) ، وَمَلَكَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْبَرًا وَأَقَامَ فِي الشَّامِ شَهْرَيْنِ يَقْصِدُ أَيَّ مَوْضِعٍ شَاءَ، وَلَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ**"[1]، أضف إلى ذلك خطر القرامطة الذين كان يصلهم من ابن طغج ثلاثمائة ألف دينار سنوياً والذين توجهوا إلى بلاد الشام وقتلوا جعفر بن فلاح قائد المعز في دمشق وأخذوا ماله وسلاحه وتوجه الحسين بن بهرام إلى مصر بعد أن استولى على بلاد الشام وهو ينشد

**زَعَمَتْ رِجَالُ الْغَرْبِ أَنِّي هِبْتُهَا فَدَمِي إِذًا مَا بَيْنَهُمْ مَطْلُولُ**

**يَا مِصْرُ إِنْ لَمْ أَسْقِ أَرْضَكِ مِنْ دَمٍ يَرْوِي ثَرَاكِ فَلَا سَقَانِي النِّيلُ**[2]

وترك المعز خلفه المغرب تحت قلق التمرد وخروجها عن نفوذ الدولة الفاطمية بعد أن ولى عليها يوسف بن زيري الذي خاطب المعز بقوله "**يا مولانا: أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفوا لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح**"[3].

جميع تلك الأخطار كانت في مخيلة الخلفاء الفاطميين لذلك كان لابد لهم من رسم استراتيجية متكاملة لبناء دولة قوية وحضارة مزدهرة ومجتمع متجانس لكي تستطيع كبح جماح الأخطار والمؤامرات المدعومة دولياً ولها موطئ قدم داخلياً لكون أرض مصر فيها خليط غير متجانس من القوميات والأديان والمذاهب المختلفة في عقائدها ومتبناتها .

(1) ابن الأثير، الكامل، ج7/ص285 .

(2) ابن الأثير، الكامل، ج7/ص300 .

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص99 .

لـذلك نجـد أنّ الخليفـة المعـز عنـد توديـع جـوهر الصـقلي علـى رأس الحملـة لفـتح مصـر يكشـف عـن سياسـته فـي بنـاء مدينـة جديـدة فـي مصـر تمثـل الحكـم الفـاطمي وجـدار الصـد فـي وجـه الأعـداء وعلـى الأرجـح لـم يقصـد بهـا اسـتحداث مدينـة فحسـب بـل إنّهـا أحـد الحلـول لإنقـاذ الـبلاد المصـرية والحفـاظ علـى النظـام الجديـد؛ لـذلك صـرّح بـأن يكـون مـن أولـى مهـام جـوهر بعـد فـتح مصـر ونزولـة فيهـا هـو بنـاء تلـك المدينـة وقـال فيهـا: **"ليفـتحن مصـر، وليـدخلنّها بالأرديـة مـن غيـر حـرب ولينـزلنّ فـى خرابـات ابـن طولـون ويبنـى مدينـة تسـمىّ القـاهرة تقهـر الـدنيا"**[1]، لـذلك نلاحـظ أنّ جـوهر فـي أول ليلـة وصـل فيهـا إلـى موقـع القـاهرة كـان فـي يـوم الثلاثـاء السـابع عشـر مـن شـعبان سـنة (358هـ/969م) قـد أسـس لبنـاء المدينـة وحفـر أسـاس القصـر لـيلاً، وفـي الصـباح باشـر فـي توزيـع الأمـوال علـى المحتـاجين والفقـراء وذلـك فـي مـا ورد **"ولمّـا أصـبح أنفـذ علـي بـن الوليـد**[2] **القاضـي لعسـكره، وبـين يديـه أحمـال مـال ومنـاد ينـادي: مـن أراد الصـدقة فليصـر إلـى دار أبـي جعفـر. فـاجتمع خلـق مـن المسـتورين والفقـراء، فصـاروا بهـم إلـى الجـامع العتيـق ففـرق فـيهم"**[3]، ومـن ذلـك تبـيّن أنّ جـوهر منـذ اليـوم الأول قـد حـدد مهامـه الأُولـى وهـي العمـران فـي إطـار الفلسـفة الإسـماعيلية فـي بنـاء الدولـة، أي التطـور والتكامـل فـي الجوانـب السياسـية والعسـكرية والاقتصـادية والاجتماعيـة وعنـد دراسـة الإسـهامات

(1) الدوإداري، كنز الدرر، ج6/ص138 .

(2) علي بن الوليد: هو قاضي العسكر المصاحب لجيش جوهر الصقلي عند فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ، تولى الفصل في المظالم الخاصة بالجيش ومراقبة الشعائر في بداية العهد الفاطمي بمصر، لم تورد المصادر التاريخية ترجمة موسعة له أو تذكر اسمه الكامل وسنة وفاته بدقة، ولم يأتِ ذكره إلا بشكل مقتضب جداً لدى المقريزي والداودي. اتعاظ الحنفا، ج ١ /ص ١١٤. أبو الفضل محمد بن خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ص ٣٩٥.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص114 .

العمرانية في بلاد مصر لابد من المرور على الأسباب الموجبة لتشييد تلك المنشآت والأهداف المرجو تحقيقها والنتائج التي حصل عليها الفاطميون من تلك الأعمال وذلك هو العمران الذي خلق دولة ذات مكانة عالمية .

وفي إطار ذلك ما قاله لينبول في بناء القاهرة: "**إنّ تأسيس القاهرة الحقيقية، التي تتميز عن مدينة مصر القديمة وما كانت تحويه من ضواحي مختلفة، يسير جنباً إلى جنب مع انقلاب خطير، لا يقتصر أثره على مجرد تغيير دولة بأخرى، أو انتقال إلى مقر جديد، فلقد كان الغزو الفاطمي، الذي تمخض عن المدينة الجديدة، بمثابة انقلاب في الدين والثقافة ونظام الحكم**"[1].

وبيّن الطرطوشي كيف تكون السياسة والتدبير في كسب الرعية لا من خلال العنف والقوة وكان ذلك نقلاً عن حكماء العجم قولهم: "**أسوس الملوك من قاد رعيته إلى طاعته بقلوبها. ولا ينبغي للوالي أن يرغب في الكرامة التي ينالها من العامة كرهاً، ولكن في التي يستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير**"[2].

وبعد أن قرر المعز الانتقال إلى البلاد المصرية مع جميع أهله ورجاله والأموال التي حملها معه كانت محل تعجب لكثرتها وتم التعامل معها من خلال سبكها ليسهل حملها كما في قولهم: "**حتى أنّ الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل ثم سار حتى وصل إلى الاسكندرية. وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم واحسن إليهم وسار فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وملك**

(1) سيرة القاهرة، ص112 .

(2) سراج الملوك، ص478 . 479 .

**الديار المصرية بلا ضرب ولا طعن"[1]**، ومن النص يتبيّن سياسة الأثر وحسن التدبير التي أثمرت في الانتقال المرحّب به من قبل المصريين، وأدرك أهل البلد أنّ النظام الجديد هو البديل لإنقاذهم من الفوضى وتدني الحياة المعيشية، وكان دلائل ذلك حجم الأموال التي حملها معه والإعانات التي منحها للمحتاجين، وساهمت في تحسين الأحوال المعيشية وتنشيط الحياة الاقتصادية .

وبيّن الكاتب شاكر مصطفى الفكر العمراني الحضاري في الإسلام الذي قام على العلاقة بين حياة الإنسان بجوانبها المختلفة والتعاون المنتظم لبناء مرتكزات الحضارة وقال في ذلك: "**والواقع أنّ الإسلام في روحه الأعمق وفي جوهره دين مدني، مرتبط بالحضر، وبالمدن والعمران وبالحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المتطورة ، وبالتنظيم المستقر للناس، و بالاجتماع الأوسع المتعاون"[2]**.

وعند دراسة العمران في مدينة القاهرة نجد التكامل الحضاري بين السياسة والعمارة والنشاط الاقتصادي والأمن الإستراتيجي والحياة الاجتماعية ومن ذلك ما ذكر ناصر خسرو(481هـ/1088م) بقوله: "**وقدرت أنّ في القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ... والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ... ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أي بناء وقد مسحه المهندسون**

(1) ابن العبري، مختصر الدول، ج1/ص169 .

(2) المدن في الإسلام، ج1/ص23 .

**فوجده مساويا لمدينة ميافارقين[1]، وكل ما حوله فضاء ويحرسه كل ليلة ألف رجل ... وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها... وفي القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة) الأزهر وجامع النور وجامع الحاكم وجامع المعز"[2].**

من ذلك الوصف لمدينة القاهرة نلاحظ التكامل الموجود بين قوة الحكم ومركزيته، واختيار الأشخاص ذوي الكفاءة والحكمة في إدارة البلاد، واعتماد التخطيط العمراني المثالي بعد الاطلاع على التطور العمراني في مدن أخرى مماثلة الذي امتاز في التنوع بين المرافق الحكومية والأمنية والاجتماعية والاقتصادية والاهتمام في النشاط التجاري والزراعي والبيئي، أضف إلى ذلك ازدهار السياحة من خلال توفر دور السكن والأمن والحريات العامة .

ووصف ناصر خسرو(481هـ/1088م) ازدهار النشاط الاقتصادي في مصر وأنّ الدكاكين مملوءة بأنواع البضائع والذهب والجواهر، وتوفر النقد عند الصرافين، والتجار لا يتكلمون إلّا الصدق ويعاقب كل من يرتكب خطيئة الكذب بأن يحمل على جمل وبيده جرس وينادي بأعلى صوته أنا كاذب وأتحمل عقوبتها وبذلك يكون إعلان إلى تجنب الكذب والغش في المعاملات التجارية[3] .

---

(1) هي من أكبر مدن ديار بكر قديماً وتقع جنوب شرق تركيا، تعد من أعرق مدن إقليم الجزيرة الفراتية، واشتهرت تاريخياً بكونها عاصمة الإمارة المروانية الكردية. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج5/ ص 235.

(2) سفر نامة ، ص104 . 106 .

(3) سفر نامة، ص120 . 121 .

وكان هناك اطمئنان لدى الناس وبالأخص من مارس التجارة بتوفر عوامل الازدهار ومن ذلك ما ذكره ناصر خسرو(481هـ/1088م) في قوله: "**وكان الناس جميعاً يثقون بالسلطان، فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين، معتمدين على أن السلطان لا يظلم أحداً ولا يطمع في مال أحد. ورأيت أموالاً يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقني الناس في فارس، فإنّي لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرهم . أمّا الأمن الذي رأيته هناك فاني لم أره في بلد من قبل**"[1]، وعند قراءة ذلك النص نلاحظ أنّ أساس الإصلاح وبناء الدولة على أسس صحيحة هو الثقة بالدولة وبقوانينها العدلية التي تولد روح المواطنة والحرص على استقرار البلاد وبالأخص عند شعور المواطن بأنّ حقوقه مصانة والدولة تعمل على تحقيق رفاه مواطنيها والذي يتكامل في حال تحقيق الأمن والأمان للجميع، وفي ذلك عامل مساعد على ازدهار التجارة الدولية وجذب التجار الأجانب ورؤوس الأموال إلى الداخل ممّا يساهم في تعزيز قوة الاقتصاد ونموه .

وبيّن الطرطوشي عوامل الاطمئنان والهيبة للدولة والأمل في استمرارها والثقة في إجراءات السلطان وذلك في قوله: " **وقال أبو عبيدة[2]: إذا كان الملك محصناً لسره بعيداً من أن يعرف ما في نفسه، متخيراً للوزراء مهيباً في أنفس العامة، مكافئاً بحسن البلاء، لا يخافه البريء ولا يأمنه المجرم، كان خليقاً لبقاء ملكه**"[3]، ومن ذلك أنّ الثقة بالدولة وقوانينها

(1) سفر نامة، ص121 .

(2) أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري، من أئمة العلم بالأدب واللغة، ولد بالبصرة سنة 110هـ/728م ، واستقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة 188هـ/803م، وقرأ عليه أشياء من كتبه . الطرطوشي، سراج الملوك، هامش 12، ص247 .

(3) سراج الملوك، ص247 . 248 .

وسمة العدل وكفاءة القائمين عليه ممّا يولد الرغبة لدى التجار في ممارسة أعمالهم بحرية وعدم الخوف على أموالهم ومشاريعهم من الظلم والمصادرة والخوف من تقلبات السياسات وزوال الدولة .

وذكر آشتور في تقييم للاقتصاد الفاطمي قوله: "**والميزة البارزة للنظام الفاطمي هي حرية المشاريع إذ كانت كل قطاعات الحياة الاقتصادية حرة المهن والصناعة والتجارة، وتدخلت الحكومة في تجارة المواد الغذائية عند الحاجة لتأمين تموين المدن الكبرى بالقمح**"[1]، وتلك السياسة مثلت فكراً اقتصادياً متطوراً، أثبت نجاحه في السياسات الاقتصادية المتقدمة وهو اطلاق الحريات في الأنشطة الاقتصادية المختلفة مع توفير المرافق العامة من موانئ وأسواق وفنادق و توفير الأمن في الممرات البحرية الدولية وفرض الرقابة الداخلية والأمن في داخل البلاد مع وضع اليد على المواد الإستراتيجية التي تلحق الضرر بالأمن الغذائي ومنها القمح .

وذكر الطرطوشي حواراً بين ملك الروم جوليان وسابور[2] ذي الأكتاف واستفسر عن السمو في السياسة وكان قوله: "**فقال له سابور: إنّي لم أزد في السياسة على ثمان خصال: لم أهزل في أمر ولا نهي، ولم أخلف في وعد ولا وعيد، ووليت أهل الكفاية، وأثبت على العناء لا على الهوى، وضربت للأدب لا للغضب، وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة،**

(1) التاريخ الاقتصادي، ص242 .

(2) سابور: سابور بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن سابور الملقب تاريخياً بـ (ذو الأكتاف أو سابور الثاني) أحد أبرز الأباطرة الساسانيين وأطولهم حكماً، تميز عهده بإرساء مركزية الدولة، شهد عصره ذروة الصدام العسكري مع الإمبراطورية الرومانية وتحديداً خلال الحملة الشرقية التي قادها الإمبراطور جوليان سنة ٣٦٣م/973م، ما أسفر عن مقتل جوليان ودفع خلفه جوفيان لتوقيع معاهدة سلام مهينة تنازلت بموجبها روما عن مقاطعات شرقية. (الطبري، تاريخ، ج ٢ / ص ٥٥. ابن الأثير، الكامل، ج ١ /ص ٣٩٩.

**والهيبة من غير ضغينة، وعممت بالقوت، ومنعت الفضول"**[1]، وتلك القواعد في السياسة توفر بيئة اقتصادية مثالية مشجعة للاستثمار في الجوانب الاقتصادية، وتمنح الثقة في الهيكل العام للدولة، فضلاً عن العوامل الأخرى المساعدة للازدهار الاقتصادي وظهور مدن اكتسبت صفة المدينة التجارية وفي ذلك تكامل بين العمران والقواعد الأخرى .

ومن المدن التجارية الفسطاط التي وصفها المقدسي في عصره أي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أنّها أجل وأكثر أهمية تجارية من بغداد[2]، وتلك المكانة التي حظيت بها الفسطاط جاءت من عدة عوامل منها ما تمتعت به من موقع جغرافي وأهمها وقوعها على نهر النيل في جانبه الشرقي، وصفها الأصطخري بأنّ مساحتها تعادل ثلث بغداد وتمتاز بعمارتها وخصوبة أرضها[3]، وفيها مرسى للسفن وذكر ابن الكندي ذلك في قوله: **"وتلك المدن كلها تأتي من السفن تحمل الطعام والمتاع والآلات إلى الفسطاط تحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير"**[4]، وفي ذلك النص إشارة إلى حجم التجارة القادمة من أكثر من مدينة محملة بالبضائع .

وأشار ابن حوقل إلى أهمية الفسطاط ووصفها بالمدينة العظمى[5]وبيّن ما فيها من ازدهار عمراني واقتصادي في قوله: **"غاية العمارة والخصب والطيبة واللذّة ذات رحاب في محالّها وأسواق عظام ومتاجر فخام وممالك**

(1) سراج الملوك، ص247 .
(2) أحسن التقاسيم، ص197 .
(3) المسالك والممالك، ص39 .
(4) فضائل مصر، ص6 .
(5) صورة الأرض، ج1/ص145 .

**جسام"**[1]، واكتسبت المدينة تلك الأهمية لوقوعها على طرق التجارة الدولية من الصين والهند والسند وصولاً إلى بلاد اليمن وعبر بحر القلزم مروراً بالسودان وبلاد النوبة إلى مصر، وتكون مفترق الطرق التجارية إلى بلاد الروم وجزر أقريطش وصقلية، وبلاد المغرب وسائر بلاد الشام، أضف إلى ذلك وقوعها على طريق الحج إلى بلاد الحرمين[2] .

ومن المدن الأخرى الإسكندرية التي ازدهرت في العصر الفاطمي وكانت مركزاً للتجارة الخارجية وذكر بنيامين التطيلي الأعداد الكبيرة من السفن التي تصل إليها من مختلف البلدان وقال فيها: "**وإسكندرية بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم. يؤمها التجار من الممالك النصرانية ... وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تجار النصارى**"[3] .

(1) ابن حوقل، صورة الأرض ، ج1/ص146 .

(2) الأصطخري، المسالك والممالك، ص5 ؛ النويري، نهاية الأرب، ج1/ص354 .

(3) رحلة بينامين، ص 358 . 359 .

## المبحث الثالث

## العمران الاجتماعي في الدولة الفاطمية

شهد تاريخ الدولة الفاطمية تحولات جذرية في العمران الاجتماعي بعد ظهور مجتمع جديد امتزجت فيه العناصر المغربية بسكان مصر الأصليين وحرص الفاطميون على تحقيق حالة الاندماج التدريجي بين مكونات المجتمع المصري الجديد، وكانت إجراءات جوهر الصقلي عند دخول جيوشه إلى مصر متوافقة مع هذا الهدف بدءاً من بناء مدينة القاهرة الذي كان أحد أهدافه ضمان عدم التصادم بين المغاربة وسكان البلاد الأصليين[1]، وحافظ جوهر على النظام الإداري القائم في مصر ولم يحدث فيه تغييرات مفاجئة وكبيرة لذلك أبقى الوزير جعفر بن الفضل[2] في مكانته السابقة وجلس إلى جانبه عند النظر في المظالم[3]، وطبق الأمر نفسه في المناصب الإدارية الأخرى ومنها القضاء، إذ أبقى القاضي أبا الطاهر في وظيفته، وجعل إلى جانب كل شاهد مصري شاهداً مغربياً ، إدراكاً لأهمية هذه الوظيفة في المجتمع المصري[4]، وقد أسهمت هذه السياسات في تحقيق

(1) ينظر: هيفاء عاصم، مدينة القاهرة، ص72 . 86 .

(2) جعفر بن الفضل، من بني حسن بن الفرات، أبو الفضل ابن حنزابة، من العلماء الباحثين، من أهل بغداد، نزل مصر واستوزره الإخشيد، وبقي في وزارة كافور، وبعد موت كافور قبض عليه ابن طغج وصادر أمواله وعذبه، ثم أطلق سراحه، فتوجه إلى الشام سنة ٣٥٨هـ/968م، ولما دخل جوهر القائد مصر معززاً استوزره. له تأليف في أسماء الرجال والأنساب. توفي بمصر سنة ٣٩١هـ/1000م وحمل إلى المدينة المنورة بوصية منه. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦ ص/ ٤٨٥. ابن الأثير، الكامل، ج9 /ص ١٦٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١١/ص ١٢٠.

(3) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع السادس، ص157 .

(4) الداعي ادريس، عيون الأخبار، السبع السادس، ص157 ؛ للمزيد ينظر: نظير، الشهود العدول، ص236 . 250 .

الانـدماج التـدريجي للعناصـر المغربيـة، مـع مـنحهم فرصـة كافيـة للتـدريب علـى المهـام قبـل تكلـيفهم بهـا مسـتقبلًا. وكـان لتلـك السياسـات الإداريـة أثـر واضـح على النسيج الاجتماعي في مصر.

بـيّن الطرطوشـي أهميـة أن تكـون للحـاكم سياسـة فـي ترتيـب الأمـور وذلـك فـي قولـه: "**والجـور المرتـب أبقـى مـن العـدل المهمـل، إذ لا شـيء أصـلح للسـلطان مـن ترتيـب الأمـور ولا شـيء أفسـد لـه مـن إهمالهـا**"[1]، ومـن ذلـك مـا قـام بـه الفـاطميون فـي جهـود مـن أجـل دمـج المجتمـع والتعـايش بـين جميع فئاته، وتطلب ذلك إجراءات عملية من أجل الوصول إلى ذلك الهدف.

إنّ أيّ ازدهـار عمرانـي فـي بلـد مـا بحاجـة إلـى عمـران اجتمـاعي يسـير فـي اتجـاه تطـوير أفكـار أفـراد المجتمـع وقابليـاتهم، ولا يـتم ذلـك إلّا مـن خـلال بنـاء المؤسسـات التعليميـة المختلفـة، لـذلك اعتنـى الفـاطميون فـي مرحلـة الإعـداد مـن تـوفير البيئـة التربويـة للأطفـال كـونهم الأسـاس فـي بنـاء المجتمـع وهـم قـادة المسـتقبل،,واعتنـى الفـاطميون أيضـاً بالنشـأ للخلفـاء وحرصـوا علـى اكتسـابهم العلـوم ومـن مظـاهر ذلـك نشـأتهم بـالقرب مـن خـزائن الكتـب والمؤلفـات، وبـيّن المقريـزي(845هـ/1441م) مـا كـان لـدى المعـز مـن كتـب عـامره وذلـك فـي قولـه: "**ولمـا كـان فـي بعـض الأيـام اسـتدعى المعـز فـي يـوم شـات عـدّة مـن شـيوخ كتامـة، فـدخلوا عليـه فـي مجلـس قـد فـرش بـاللبود، وحولـه كسـاء، وعليـه جبـة، وحولـه أبـواب مفتحـة تفضـي إلـى خـزائن كتـب، وبـين يديـه دواة وكتـب**"[2]، ودلّ ذلـك الـنص علـى أنّ المعـز قـد نشـأ فـي تلـك البيئـة الفكريـة ومـرّ فـي حقبـة مـن الإعـداد ليكـون قائـداً فـذاً عالمـاً علـى درايـة فـي سياسـة الحكـم،

(1) سراج الملوك، ص222 .

(2) المواعظ والاعتبار، ج2/ص187 .

ومن نتائج ذلك إتقانه لغات عدة، وهي الرومية والبربرية والسودانية و الصقلبية[1].

ومن عقائد الفاطميين أنّ الإمام أو من خلف النبي في الأمة لابد أنّه اكتسب صفة العلم لكي يتمكن من شغل مقام خليفة النبي، وذلك ما بيّنه الإمام أحمد بن عبدالله في قوله: "**وكذلك الجالس بعد النبي مجلسه، والقائم في الأمة، من بعده مقامه، يجب أن يكون يعرف جوابات عما يسأل عنه من أمور الدين ... وبواطن ظواهره، وتأويل تنزيله ... وإرشاد الأمة، وتقويم أعوجاج المعوج، وإصلاح الفاسد، ولم الشعث**"[2]، وتلك الصفات التي تؤهل القادة لإدارة الحكم لا تأتي من فراغ، وإنّما بحاجة إلى برامج تأهيلية تطور قدرات الفرد ليصل إلى المكانة التي تمكنه من رعاية مصالح الأمة وتقويم الاعوجاج فيها وإصلاح الفاسد من أمورها، وأحاط الخلفاء الفاطميون أبناءهم بمعلمين عرفوا بالعلم والمعرفة منهم أستاذ الحاكم بأمر الله، برجوان الذي خلف تركة كثيرة من الكتب[3] .

وذكر الطرطوشي أهمية مطالعة الكتب ومجالسة العلماء في قوله: "**وليس أحد من أهل الدرجات السنية والمراتب العلية، أحوج إلى مجالسة العلماء وصحبة الفقهاء، ودراسة كتب العلوم والحكم ومطالعة دواوين العلماء، ومجامع الفقهاء وسير الحكماء من السلطان**"[4] .

وذلك كون هؤلاء هم أكثر حاجة للحصول على العلم والحكمة ودراسة تجارب الأمم السالفة لتقييم السياسات الأقرب للصواب في إدارة الحكم

(1) اتعاظ الحنفا، ج1/ص101 .
(2) الرسالة الجامعة، ص477 .
(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص30 .
(4) سراج الملوك، ص263 .

وتحقيق مصالح العباد والبلاد، ولم يحتكر الأئمة الفاطميون العلم في ذويهم بل سعوا إلى نشره بين أتباعهم ومواليهم وفي ذلك قول المعز لأمر الله: "**ونريد أن نقضي بشيء ممّا أودعناه من حكمة لما نرجوه بذلك من صلاح أحوالهم وتزيين أمورهم ورفع درجاتهم وإلحاقهم بأهل العلم والحكمة والفضل**"[1].

اعتنى الفاطميون بتعليم أبناء غلمانهم، ولا سيما المعز لدين الله، الذي باشر تعليمهم بنفسه وعيّن لهم العلماء وخصّص لهم أماكن خاصة لذلك. ومنها ما نقل عنه "**وشرط، على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم، فمن كان ذا شهامة، وحسن خلقة ... فسيروا إليه عالما من أولاد الناس، فأفرد لهم دورا، وسماها الحجر**"[2] ، وفي أيام الخليفة الظاهر لإعزاز الله عمل على تعليم مماليكه مختلف العلوم والتدريب على صنوف القتال من المطاعنة والمسابقة والرماية[3]، وفي تلك الرواية إشارة إلى اهتمام الفاطميين بالإعداد العلمي والمعرفي جنباً إلى جنب مع الإعداد الاجتماعي والأمني والعسكري .

ومن المعالم الحضارية التي بناها الفاطميون في وقت مبكر الجامع الأزهر في سنة (360هـ/971م)[4] وقرأت فيه الخطبة الأولى سنة (361هـ/972م)[5]، وكان أشبه بالمدرسة التي تدرس فيها العلوم وله دور مهم في الحياة الفكرية، ولا سيما في خلافة العزيز، إذ قام وزيره يعقوب بن

(1) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص154 .
(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2/ص351 .
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2/ص316 .
(4) الصفدي، نزهة المالك، ص115 .
(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج15/ص442 .

كلس بتدريس كتابه الذي ألفه في فقه الطائفة الإسماعيلية في الجامع، واهتم بالمعلمين الذين كان أغلبهم من الفقهاء وبنى لهم داراً للعلم مجاورة للجامع الأزهر وأجرى لهم أرزاقاً وصلات تكفيهم مؤنتهم خلال العام وقيل فيه: "**ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقرّاء والنحاة وأصحاب الحديث ووجوه أهل العلم والشهود**"[1]، ومن أساليب التنظيم في التعليم ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) أنّ الوزير يعقوب بن كلس هو أول من نظم العطاء المالي لمهنة التدريس وذلك في قوله: "**وأوّل ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر، في خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب بن كلس، فعمل ذلك بالجامع الأزهر**"[2]، وكان منح تلك الأموال إلى من قام بالتدريس من العلماء والفقهاء بعد تعيين أسمائهم والاستمرار بذلك الفعل كان قد وضع الأساس لظهور المؤسسات التعليمية وتنظيم العمل فيها، واهتم الحاكم بأمر الله ووسع في الأوقاف المخصصة للجامع الأزهر ولدار العلم التي بجوار المسجد[3] .

وبيّن الطرطوشي أهمية طلب العلم وهي السلوك القويم للوصول إلى المقامات الرفيعة ومن ذلك ما ذكره في قوله: "**وروي أن أنوشروان كان له معلم حسن التأديب فعلمه حتى فاق في العلوم، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب فأوجعه فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك قال له: ما حملك على ما صنعت من ضربي يوم كذا وكذا ظلماً؟ قال له: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم إذا**

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4/ص162 .

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4/ص200 .

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3/ص413 .

**وليت"**[1]، وهنا نفهم من الرواية أنّ الطريق إلى الملك هو العلم وليس من الحكمة أن يولى غير العالم على شؤون الرعية، وكذلك بينت الرواية مكانة المعلم وقدسيته كونه يعمل على تأهيل الإنسان ليأخذ مكانه الطبيعي في الحياة العامة سواء حاكماً أم محكوماً .

وأصبح النشاط الفكري من قبل الفاطميين هو الفلسفة الأمثل في نشر المذهب الإسماعيلي بين المصريين وهو أحد الأساليب الأكثر رواجاً، وكذلك إقامة مجالس الدعوة أو الحكمة التي أقيم بعض منها في الجامع الأزهر والقسم الآخر في قصور الخلفاء أو في دور الدعاة ومن هذه المجالس ما كان مخصوصاً لفئة معينة من فئات المجتمع منها للخدم، ومنها للعوام أو الطارئين على البلاد، ومنها مجالس النساء، وأقيم البعض منها في الجامع الأزهر، ومنها مجالس الأولياء[2]، ونقلوا عن جعفر بن محمد (عليه السلام) قوله: "**رحم الله من أحيا أمرنا ، فقيل: يا ابن رسول الله (صلع)، وما إحياء أمركم ؟ قال: ذكره ، ونشره ، وتبليغه من لم يكن بلغه**"[3].

لذلك اعتنى الخلفاء الفاطميون بنشر المذهب الإسماعيلي من خلال نشر علوم الباطن التي امتازت بها العقيدة الإسماعيلية، ومنهم المعز لدين الله الذي ذكر القاضي النعمان(363هـ/973م) ما أمره به في قوله: "**أخرج إليّ كتباً من علم الباطن وأمرني أن أقرأها عليهم، في كل يوم جمعة في مجلس في قصره المعمور بطول بقائه، فكثر ازدحام الناس وغص بهم المكان ... ووصف له أن فيهم ممن قد شملته الدعوة أهل تخلف ومن لا يكاد يفهم القول، وأن مثل هؤلاء لو ميزوا وجعل لهم مجلس يقرأ عليهم**

(1) سراج الملوك، ص608 .

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2/ص260 .

(3) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص46 .

**فيه ما يحتملون ويفهمون، لكان أنفع لهم"[1]**، والظاهر من النص التنظيم العالي في أمر الدعوة وجعل المكان في قصر الخليفة أعطا أهمية أكبر للمجلس وزاد في مركزية الحضور بعد أن توجه إليهم الدعوة من الخليفة، فضلاً عن تنوع المجالس، وتنوع المواضيع التي تطرح فيها على وفق وعي المتلقي ورجاحة فهمه، ومن ذلك يفهم أنّ هنالك تدرجاً في ضخّ العلوم لتكون المنفعة أكبر والاستجابة أرجح وذلك أعطى مقبولية أكثر وانتشاراً أكبر للمذهب الإسماعيلي .

واستمر ذلك النهج مع تعاقب الخلفاء وذلك ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) نقلاً عن المسبحي في قوله: "**وقال المسبحيّ: وفي ربيع الأوّل يعني من سنة خمس وثمانين وثلثمائة، جلس القاضي محمد بن النعمان على كرسيّ بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد المتقدّم له ولأخيه بمصر، ولأبيه بالمغرب، فمات في الزحمة أحد عشر رجلا، فكفنهم العزيز بالله"[2]**، ومن ذلك استمرار التبليغ للدعوة في ذلك الأسلوب دلالة على وضوح أهداف الفاطميين في نشر المذهب من خلال مجالس الحكمة ممّا دلّ على اعتماد الفكر والثقافة في توطيد أركان الدولة .

ولم تقتصر المجالس على الأمور الدينية، وإنّما تعدّاه إلى مواضيع عقلية وفلسفية منها قول المؤيد للدين الشيرازي: "**فلو أنّ أحد الفلاسفة قدم على الرسول (ﷺ) يسأله عن الملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار وأوضاع شريعته من صلاتها وزكاتها وصومها وحجها وجهادها من حيث**

(1) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص386 .

(2) المواعظ والاعتبار، ج2/ص259 .

**يدل عليه البرهان العقلي، أكان يقول النبي (ﷺ): لا قبل لي ببرهان ذلك؟ حاش لله تعالى"**[1]، وفي ذلك النص تأكيد على ضرورة دراسة العلوم الأخرى، والدفاع عن الدين بواسطة العقل واستخدام الفلسفة في الرد على المخالفين وبيان براهين وحكمة الخالق في إقامة أحكام الشريعة.

وفي زمن الحاكم بأمر الله أنشأ دار الحكمة في القاهرة سنة (395هـ/1005م) وجمع فيها جميع العلوم وقيل فيها "**فتحت دار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها القرّاء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور، ودخل الناس إليها وجلس فيها القرّاء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء، وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا، وأجرى على من فيها من الخدّام والفقهاء الأرزاق السنية، وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق**"[2]، والظاهر من النص أنّ دار الحكمة هي أشبه بالجامعة اليوم كونها لم تقتصر على الفقه والعلوم الدينية، بل شملت مختلف العلوم من الفلك والطب واللغة وبقية العلوم الأخرى، وتوفر فيها جميع مقومات الدراسة من الكتب والقرطاسية والمرافق الأخرى ودفعت فيها الرواتب للعاملين فيها .

وبيّن الطرطوشي أنّ العمران البشري في الدولة بحاجة إلى قواعد وأركان تساهم في توفير البيئة المناسبة للنهوض الحضاري "**وكان الذي مهد له ذلك ... فبنى دور العلم للفقهاء، وأنشأ المدارس للعلماء، وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ثم أجرى لهم الجرايات والكسى والنفقات، وأجرى الخير والرزق، لمن كان من أهل الطلب للعلم**

(1) المجالس المؤدية، ص22 .

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4/ص164 .

**مضافا إلى أرزاقهم"**[1]، وبذلك توفير جميع متطلبات المدارس من بنى تحتية وطاقات بشرية وشمل تخصيص الأموال للطلاب والأساتذة والعاملين وذلك مهد لإعداد الكفاءات والسعي لتطور العلوم بما يخدم توفير متطلبات التقدم والنهوض بجميع قطاعات البلاد .

وانماز العصر الفاطمي بالتسامح الديني والمعرفي والدليل على ذلك ظهور مدارس مخالفة للمذهب الرسمي للدولة مثل مدرسة أبي بكر الطرطوشي الذي وصل إلى الإسكندرية في سنة (487هـ/1094م) وتزوج من سيدة من أهل المدينة كانت ميسورة الحال منحته مالاً ابتنى داراً كان فيها سكنه في الطابق العلوي وأنشأ مدرسة في الطابق السفلي[2]، وكان من مشاهير علماء المذهب المالكي في الإسكندرية وتتلمذ على يديه الكثير[3] .

ومن المدارس الأخرى التي درس فيها المذهب الشافعي المدرسة العدلية التي أسسها أحد الوزراء الفاطميين وهو العادل بن السلار[4] في زمن الخليفة الحافظ ( ٥٢٤ – ٥٤٤ هـ/ ١١٣٠ – ١١٤٩ م).وفوضها إلى الشيخ أبي طاهر السلفي الشافعي[5]، وفي ذلك دلالة على التسامح الديني

(1) سراج الملوك، ص514 .

(2) الضبي، بغية الملتمس، ص136 . 137 ؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، ج2/ص245 .

(3) أبو طاهر السلفي، معجم السفر، ص432 ؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص137 ؛ المقريزي، المقفى، ج7/ص23 .

(4) العادل بن السلار: علي بن السلار، أبو الحسن، كردي الأصل، وزير للخليفة الظافر سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، بعد ما كان يشغل ولاية الولايات في الصعيد والإسكندرية. ابن خلكان، وفيات الأعيان، توفي ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م. ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٩٢. الدوإداري، كنز الدرر، ج ٦/ ص ٥٢٤.

(5) حاجي خليفة، سلم الوصول، ج1/ص202 .

مع بقية المذاهب، أضف إلى ذلك الإنفاق الذي تقوم به الدولة في مجال التعليم بعيداً عن الاعتبارات المذهبية .

ومنها المدرسة التي بناها الوزير رضوان بن ولخشي[1] في الإسكندرية وأسند فيها التدريس إلى الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف وسميت بالمدرسة العوفية[2]، الذي ترجم له الذهبي**(ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)** في قوله: "**الشَّيْخُ الإِمَامُ، صَدْرُ الإِسْلَامِ، شَيْخُ المَالِكِيَّة، إِسْمَاعِيْلُ بنُ مَكِّيّ ... العوفي الإسكندري المالكي**"[3]، وتلك الترجمة دلت على المكانة التي وصل لها ذلك العالم في كنف الدولة الفاطمية، ولا سيما أنّه كان من مذهب مخالف للمذهب الرسمي للدولة، أضف إلى ذلك أنه قصده وتفقه على يديه صلاح الدين يوسف[4] الذي كان له الحظ الأوفر في إزالة الدولة الفاطمية .

أمّا العمران في الجانب الديني، فضلاً عن التسامح الذي عرف عنه الفاطميون عند قيام دولتهم والذي كان من معالمه انتشار المدارس والجوامع للمذاهب الدينية المختلفة في الديار المصرية، ظهر مجموعة من المؤلفات لعلماء من الطوائف المخالفة للمذهب الإسماعيلي، ولا سيما العلوم الشرعية

---

(1) رضوان بن ولخشي: وهو صاحب الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله، تولى الوزارة سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م بعد أن استبد رضوان الأرمني بالوزارة. فضل ابن ولخشي بعد أن استقر في الوزارة محاربة الأرمني وأتباعه والاستيلاء على أملاكهم، وعمل على تغيير المسلمين في المناصب التي كانت بيد الأرمن. كما عمل رضوان على خلع الخليفة الحافظ وعدم الاعتراف بإمامته كونه خليفة، عرف بشجاعته حتى لقب بـ(فحل الأمراء)، اتخذ لنفسه لقب الملك الأفضل فكان أول وزير فاطمي يلقب بالملك. ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٧٦ وما بعده .

(2) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص130 ؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، ج1/ص293.

(3) سير أعلام النبلاء، ج15/ص330 .

(4) ابن المستوفي، تاريخ أربل، ج2/ص376 ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج41/ص102 .

التي تمثل الفكر المخالف وقد تؤدي إلى إذكاء روح التمرد والتنافس مع السلطة الدينية التي مثلتها الدولة الفاطمية كونها مثلت عقيدة مخالفة لعقائد أهل البلاد المصرية، ومع ذلك منح الفاطميون علماء المذاهب المختلفة وفقهاءهم حرية التدريس والتأليف ومنحوا لهم مواقع مهمة في الدولة، ومن هؤلاء قاضي القضاة أبو المعالي المجلي من فقهاء المذهب الشافعي[1]، وذكر أن له مؤلفات منها كتابه الكبير في الفقه بعنوان (الذخائر)[2]، وعدّ من المصنفات التي جمعت الشيء الكثير من الفقه الشافعي ووصف بأن فيه ما ليس في غيره[3]، وفي ذلك دلالة على ما وصلت إليه الحريات التي منحت للمذاهب الإسلامية تحت نفوذ الدولة الفاطمية ممّا له آثار على العمران في الحياة الاجتماعية .

ومن العلماء الطرطوشي وما وصل إليه من علاقته برموز الدولة الفاطمية ومنهم الوزير المأمون الملقب المأمون البطائحي[4]، دلالة على صفة العمران والتجانس بين فئات المجتمع وتقييم الدولة لعلمائها بعيداً عن التمايز الطائفي، وبالمقابل تسامى نتاج هؤلاء العلماء ومن ذلك كتاب سراج الملوك الذي أهدي للوزير، وما فيه من علوم وخبرات في السياسة والعمران البشري الذي قال فيه أحد المستشرقين في ذكر الطرطوشي وكتابه في قوله:

---

(1) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص152 .

(2) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص154 .

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4/ص154 .

(4) وهو وزير الديار المصرية للدولة الفاطمية، الملك أبو عبد الله المأمون بن البطائحي. نشأ المأمون فقيراً معدماً، فكان من الحمالين في السوق بمصر، استخدمه الأمير الأفضل فراشاً، فتقدم وترقى به الحال حتى ملك، وهو الذي أعان الآمر بأحكام الله على قتل أمير الجيوش وولي منصبه، والذي تم قتله بتدبير من الخليفة الآمر سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٩ ص/ ٣٨٣.

**"وطار ذكره على أنّه مفكر سياسي إذ صنف رسالة مستحسنة . سراج الملوك . ... والعمل عبارة عن جمهرة رائقة من معارف سياسية، تدعم مُثُل دائرة الإنصاف . وذلك قبل قرون من النزعة المكيافيلية العملية القحة . بأمثلة مستقاه من التأريخ الإسلامي، ومن امبراطوريات قبل الإسلام، بل حتى من الأندلس"**[1]، وذهب الباحث إلى عدم استفادة الدولة الفاطمية من ذلك النتاج لأنّها كانت تمر في مرحلة الانزلاق وطريق اللاعودة وكان الأمل في نجاتها وتطبيق ما ذهب إليه الطرطوشي من المستحيلات[2]، والأجدر بالذكر علاقة أهل العلم مع الدولة الفاطمية والمشتركات التي التقى بها هؤلاء العلماء مع الوضع العام في السعي لنمو الدولة وتقدمها وتحسين الحياة العامة وإطلاق الحريات بما فيها الفكر الديني والمذهبي .

ومن العلماء أبو الصلت أمية بن عبد العزيز[3] الذي قيل فيه **"كان أوحد زمانه، وأفضل أقرانه، متبحراً في العلوم"**[4]، الذي كان شاعراً وفيلسوفاً وطبيباً[5]، له مصنفات منها كتاب الحديقة[6]، وهو كتاب في صنعة الشعر على أسلوب يتيمة الدهر، وكتاب رسالة العمل في

(1) كوب، السباق إلى الجنة، ص246 .

(2) كوب، السباق إلى الجنة، ص246 .

(3) أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، حكيم وأديب من أهل دانية بالأندلس، ولد فيها ورحل إلى العراق فأقام بمصر، حبس في الإسكندرية ثم نفي إلى المهدية، فاتصل بأميرها يحيى بن تميم الصنهاجي وابنه علي. توفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م. من تصانيفه: الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر، ورسالة العمل بالأسطرلاب. العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج ٢ /ص ٥٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠ /ص ١٣٤. الزركلي، الأعلام، ج ٢ /ص ٢٣

(4) الأصبهاني، خريدة القصر، ج2/ص845 .

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19/ص634،609 .

(6) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج36/ص119 .

الأسطرلاب[1]، وله من المؤلفات الأخرى الرسالة المصرية في آثار مصر وأعيانها، وكتاب تقويم الذهن في المنطق، والأدوية المفردة في ترتيب الأعضاء، ورسالة في الموسيقى، وكتاب الانتصار، والوجيز في الهندسة[2]، وامتاز العصر الفاطمي برعاية العلماء وإغداق الأموال عليهم وتنفيذ طلباتهم وشفاعاتهم بعيداً عن انتماءاتهم وقومياتهم ومذاهبهم[3]، وفي ذلك أدوات للعمران في الحياة الاجتماعية، مما أسس قواعد التقدم الحضاري .

وذلك ما ذكره الطرطوشي في حاجة السلطان للعلم والعلماء في قوله: "**وليس أحد من أهل الدرجات السنية والمراتب العلية، أحوج إلى مجالسة العلماء وصحبة الفقهاء، ودراسة كتب العلوم والحكم ومطالعة دواوين العلماء، ومجامع الفقهاء وسير الحكماء من السلطان**"[4]، وبيّن أنّ ذلك فيه مقدمات الحكم للوصول إلى أدوات الحكم وهي البصيرة في العلم، ليكتسب النظرة الثاقبة، والقدرة على الإدارة الحسنة والفصل في النزاعات، وهداية الناس إلى رشدهم وتجنيبهم مخاطر الظلال ويحدد لهم مساوئهم، وكل ذلك بحاجة إلى رجاحة العلم[5].

ومن المواضيع المهمة الأخرى التي كانت من مظاهر الحياة الاجتماعية هي، التعددية الإثنية وكيفية التعامل معها والعمل على تجانسها وتنظيم العلاقة بين عناصرها لتكون عاملاً إيجابياً في ازدهار الدولة الفاطمية وتطورها ، بدءاً من المغاربة وبالأخص الكتاميين الذين قامت على

(1) ابن الشعار، قلائد الجمان، ج1/ص63 ؛ الزركلي، الأعلام، ج2/ص23 .
(2) حاجي خليفة، سلم الوصول، ج1/ص346 .
(3) ينظر: بواعنة، دور علماء السنة ومساهماتهم في الدولة الفاطمية، ص49 . 59 .
(4) سراج الملوك، ص263 .
(5) سراج الملوك، ص263 ، 264 .

أيديهم الدولة الفاطمية في بلاد المغرب وكانوا هم القوة التي اعتمد عليها الفاطميون في أحلك الظروف، ومن ذلك ما ذكره ابن حماد في خطاب القائم للكتاميين عند تولية ابنه المنصور الذي على يديه استعاد هيبة الدولة الفاطمية بعد القضاء على فتنة ابن كيداد وذلك في قوله: "**ولي أبو القاسم إسماعيل ولي عهده وفوض إليه أمره وادخل جماعة من وجوه كتامة ورؤسائهم إلى نفسه فقال هذا مولاكم وهو ولي عهدي والخليفة من بعدي وهو صاحب هذا الفاسق وقاتله**"[1]، وفي ذلك دلالة على دور الكتاميين وقوتهم ونفوذهم في الدولة الفاطمية وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر كانوا هم نواة الجيش المغربي الفاتح واستمر نفوذهم ومكانتهم في البلاد المصرية إلى أن وصل زعيمهم ابن عمار إلى الوزارة في خلافة الحاكم بأمر الله وقيل في ذلك: "**وتقدّم أبو محمد الحسن بن عمّار وكان شيخ كتامة وسيّدها، ويلقّب بأمين الدولة، وهو أول من لقّب فى دولة المغاربة ونفذّ أوامره فى الخزائن والأموال إطلاقا وعطاء حتى على جواري القصر هبة وعتقا**"[2]، وفي ذلك إشارة إلى ما وصل إليه الكتاميون من نفوذ وسطوة في الدولة الفاطمية .

أمّا العنصر الآخر هم السودانيون الذي تدفقوا إلى أرض مصر منذ معاهدة البقط التي بموجبها منح ملك النوبة عدداً من العبيد السود إلى حكام مصر[3]، وبتوالي السنين زاد أعداد هؤلاء في البلاد المصرية، ومارس العديد منهم مختلف الأعمال في القطاعات الاقتصادية المتنوعة وقويت شوكتهم[4]،

(1) أخبار ملوك بني عبيد , ج 1/ص 57 .
(2) مسكويه، تجارب الأمم، ج7/ص263 .
(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص235 .
(4) التنوخي، معجز أحمد، ص406 ؛ ابن الأثير، الكامل، ج8/ص240 .

أضف إلى ذلك عبيد الشراء الذين ازدادت أعدادهم ونفوذهم في الدولة الفاطمية[1]، ولاسيما ما قامت به أم المستنصر من استقطاب أبناء جنسها كما ذكر المقريزي(845هـ/1441م) في قوله: "**فإنّها كانت السبب في كثرة العبيد السود بمصر، وذلك أنّها كانت جارية سوداء، فأحبت الاستكثار من جنسها، واشترتهم من كل مكان، وعرفت رغبتها في هذا الجنس، فجلبت الناس إلى مصر منهم، حتى يقال: إنّه صار في مصر إذ ذاك على زيادة على خمسين ألف عبد أسود**"[2].وعمل هؤلاء في جميع مرافق الدولة الفاطمية وخضعوا لقواعد الحكم وقوانينه وأصبحوا جزءاً من المجتمع المصري .

وأما الديلم والأتراك تكاثرت أعدادهم وظهر نفوذهم في خلافة العزيز وذلك ما أكده المقريزي(845هـ/1441م) في قوله: "**فلمّا قام في الخلافة بمصر من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار استخدم الديلم والأتراك واختص بهم**"[3]، وكان أول من استقدم الديلم إلى مصر هو أحمد بن طولون من الذين استوطنوا جنوب بحر قزوين وبلغت أعدادهم أكثر من أربعة وعشرين ألفاً[4]، وبعد مجيء الأخشيديين زادت الحاجة للمماليك من الأتراك والديلم وكانوا عصب الجيش حتى بلغت أعدادهم في مصر وبلاد الشام ما يقارب أربعمائة ألف من الجيش، وكان هناك ثمانية آلاف من المماليك تشكل منهم الحرس الخاص، وكذلك الفاطميون عززوا قواتهم من

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ص85 .
(2) المواعظ والاعتبار، ج2/ص158 .
(3) المواعظ والاعتبار، ج1/ص177 .
(4) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص35 .

هؤلاء المماليك من مختلف الأقوام ومنهم الأتراك والديلم[1]، وأصبح للعنصر التركي شأنٌ كبير في التأثير على السياسة في الدولة الفاطمية والتحكم في موازين القوى[2] .

وبيّن الطرطوشي أهمية تعزيز أعداد الجند ومراقبة سلوكهم وإعادة تقييمهم ومنحهم حقوقهم بالكامل وذلك في قوله: "**وينبغي للملك أن يتفقد جنوده كما يتفقد صاحب البستان بستانه، فيقلع العشب الذي لا ينفعه، فمن العشب ما لا ينفع ومع ذلك يضر بالنبات النافع وهو بالقلع أجدر. ولا يصلح الجند إلا بإدرار أرزاقهم وسد حاجاتهم، والمكافأة لهم على قدر عنائهم وبلائهم**"[3].

أمّا العنصر المهم الآخر الذين كان له الأثر في تاريخ مصر هم الأرمن، وظهروا على مسرح الأحداث بعد تدخل قائدهم بدر الدين الجمالي في القضاء على الفتنة في خلافة المستنصر بالله، وأسند إليه الوزارة ولقبه بأمير الجيوش وكلفه بولاية الدعاة والقضاء[4]، ودخل في صراعات وحروب مع المتمردين على الحكم الفاطمي، استطاع من خلالها إرجاع الأمور إلى نصابها حتى قيل فيه "**ثم استرد من القوّاد والأمراء بمصر جميع ما أخذوه أيام الفتنة من المستنصر من الأموال والأمتعة ... وأحسن إلى الرعايا ونظّم حالهم ... وعادت الدولة إلى أحسن ما كانت عليه**"[5]، وأصبح معظم

(1) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص35 .

(2) ابن الوردي، تاريخ، ج1/ص364 ؛ للمزيد ينظر: الأحمر، الحياة الاجتماعية في مصر، ص46 . 60 .

(3) سراج الملوك، ص493 .

(4) ابن خلدون، تاريخ، ج4/ص82 .

(5) ابن خلدون، تاريخ، ج4/ص82 .

الجيش من الأرمن وضعف دور كتامة وأصبحوا من عامة الناس بعد أن كانوا أهل النفوذ وسادة القوم[1] .

وكثر أعداد الأرمن وزاد نفوذهم بعد وصول بهرام النصراني الأرمني إلى الوزارة في خلافة الحافظ الذي سمح له بإحضار إخوته وأهله حتى بلغ أعدادهم ما يقارب ثلاثين ألف نسمة[2]، وبنى لهم كنائس وأديره حتى قيل فيه: "**وبنيت فى أيّامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة؛ وخاف أهل مصر منهم أن يغيّروا الملّة الإسلاميّة**"[3]، ومن ذلك دلالة على ما وصل إليه الأرمن من نفوذ في السياسة ودور في المجتمع المصري والعمران الاجتماعي .

وهناك عناصر أخرى أقل عدداً وأضعف تأثيراً في ميزان القوى والتأثير في الدولة الفاطمية، إلّا أنّهم كان أثرهم في الحياة العامة ومنهم الصقالبة الذين دخلوا كأفراد في الجيش ومنهم الخدم في القصور الفاطمية[4]، وسميت أكثر من حارة على أسماء الصقالبة الذين كان لهم الأثر المهم في تاريخ الدولة الفاطمية منها الجوذرية نسبة إلى جوذر خادم الخليفة المهدي ومنها اليانسية التي حملت اسم أمير الجيوش يانس الفاصد الصقلبي وزير الخليفة الحافظ[5]، والريدانية نسبة إلى ريدان الخادم

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3/ص23 .
(2) النويري، نهاية الأرب، ج28/ص301 .
(3) النويري، نهاية الأرب، ج28/ص301 . 302 .
(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص223 .
(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3/ص409 .

الصقلبي[1]، وهؤلاء اندمجوا في المجتمع المصري، ومارسوا دورهم في الحياة العامة .

وذكر الطرطوشي أنّ هناك عهوداً ومواثيق بين المسلمين وغيرهم من الملل الأخرى ومنهم الروم وإذا أخلوا بالشروط فرضت عليهم عقوبات وذلك في قوله: "**فإن نحن خالفنا في شيء ممّا شرطنا لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق**"[2]، وذلك أجاز للدولة الفاطمية التنكيل بالمخالفين منهم للقوانين القائمة .

والعنصر الآخر هم الروم الذين استخدمهم الفاطميون منذ ظهور دولتهم في المغرب كعبيد في دار الخلافة[3]، ثم استخدمهم المعز لدين الله في الجيش وكانوا جزءاً من قواته التي توجهت إلى مصر[4].

وبعد بناء مدينة القاهرة خصص فيها سكناً لهم سميت حارة الروم التي تكونت من حارتين هما حارة الروم في باب زويلة، وحارة داخل باب النصر سميت الروم الجوانية[5]، وذلك دلالة على كثرة عددهم في جيش المعز، وفي خلافة الحاكم بأمر الله حدثت فتنة قام على أثرها بهدم حارة الروم، وأخرجوا منها وهدمت كنائسهم، وكان لهم فيها كنيستان[6]، وبعدها نقلوا إلى مكان جديد سمي بالحمراء وبني لهم فيها ثلاث كنائس بدل كنائسهم التي هدمت[7]، وفي ذلك دلالة على حجم تلك الطائفة ومكانتهم لا

(1) النويري، نهاية الأرب، ج28/ص177 . 178 .
(2) سراج الملوك، ص543 .
(3) الداعي ادريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص177 .
(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1/ص177 .
(5) الدوإداري، كنز الدرر، ج6/ ص141 .
(6) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج3/ص16 .
(7) الأنطاكي، تاريخ، ص253 .

يمكن محوها أو تجاهلها وإنّما تعاملت الدولة مع حقوقهم في إنشاء موطن جديد لهم أكثر عمراناً وذلك من خلال بناء ثلاث كنائس بدل الإثنين اللذين تم هدمهما، وكذلك مثل المكان الجديد حلاً إدارياً وأمنياً لتلك الطائفة من المجتمع .

وذكر الطرطوشي ما هو قريب من ذلك المعنى في نقله عن آخرين قولهم: "**وقال مزدك الفارسي: خلتان في السلطان أقرب إلى صلاح الرعية مما سواهما: ثقة الرأي وشدة الرحمة، وما أحق بالسلطان أن يسلك بالرعية كل سبيل يصلحون عليه ويسودون معه**"[1]، ومعنى ذلك أن في عقوبة السلطان إصلاح كما في رحمته، بشرط أن يعاقب في وقت التمادي في الخطأ، من أجل الرجوع إلى الصواب، وأن يبادر إلى العفو والرحمة عند طلب الرعية من حاكمها لحفظ كرامتها وصيانة حقوقها واستئناف أعمالها .

وعند وقوع حادثة إحراق الأسطول الفاطمي في دار صناعة السفن بالمقس[2] في وقت صلاة الجمعة في خلافة العزيز بالله سنة (386 هـ/996م)، واعتراف البعض من الروم أنّهم من فعل ذلك[3]، مما نتج عنه قتل مائة وسبعة أشخاص منهم ونهبت أموالهم، صدر عن الدولة الفاطمية موقف شديد اتجاه من اقترف ذنب التفريط في العقوبة ضد الروم من قبل

---

(1) سراج الملوك، ص475 .

(2) المقس: ميناء القاهرة الفاطمية وترسانتها العسكرية، نشأ جغرافياً في موقع ضيعة قديمة عرفت بـ (أم دنين) على ساحل النيل، وسميت المقس لأن المكس (عاشر التجار، صاحب المكس) كان يقعد بها لجمع الضرائب، فقلبت الكلمة عامياً للمقس. تكمن أهميتها كعصب استراتيجي واقتصادي للروم الفاطمية، كما ضمت داراً لصناعة السفن الحربية لحماية الثغور وتأمين التجارة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥ /ص ١٧٤. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج ٣ /ص ١٣٠٣. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢ /ص ١٤٣.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3/ص342 .

الأهالي، وذلك في ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) في قوله: "**وتتبع من نهب فقبض على عدّة قتل منهم عشرون رجلا ضربت أعناقهم، وضرب ثلاثة وعشرون رجلا بالسياط، وطيف بهم وفي عنق كلّ واحد رأس رجل ممن قتل من الروم، وحبس عدّة أناس**"[1]، وذلك وضع الروم في عداد أفراد المجتمع الذين كان عليهم واجبات ولهم حقوق، وكما أنّهم تعرضوا للعقوبة في عند مشاركتهم في التجاوز على القانون، كان لهم الحق في الدفاع عنهم والقصاص من مرتكبي القتل بحقهم، لأنهم جزء من المجتمع المصري .

(1) المواعظ والإعتبار، ج3/ص343 .

# الفصل الرابع

# مثالب السياسة وآليات السقوط للدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي



المبحث الأول: مثالب السياسة في المغرب العربي

المبحث الثاني: مثالب السياسة في مصر

## المبحث الأول

## مثالب السياسة في المغرب العربي

خصّ الفاطميون أرض المغرب العربي بالقدسية كونها أرض الميعاد، فيها بشائر ظهور دولتهم الموعودة، منها ما ذكره القاضي النعمان(363هـ/973م) في قوله: "**المهدي من ولد فاطمة يظهر من جهة المغرب فيملأ الأرض عدلاً**"[1]، لذلك كانت أنظار الإسماعيلية متجهة صوب المغرب كونها أرض نشوء الأمل في قيام الدولة الفاطمية، ومن ذلك الروايات التي ذكرت الدعاة الأوائل الحلواني وأبا سفيان اللذين خصّت أحداها بأنّ الإمام الصادق (عليه السلام) هو من أرسلهما إلى أرض المغرب في سنة(145هـ/762م)[2]، وقال لهما: ""**بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر**"[3].

وكان الطرطوشي قريباً من تلك الأفكار التي تضع شروطاً للسلطان الذي في صلاحه مكاسب الدنيا والآخرة وهو بحاجة إلى صفات منها الجمع بين الشرف عند الله تعالى والمنافع التي يحققها على الأرض، وتلك الأعمال لا تكفي أن تكون مجرد أفكار يحملها السلطان وإنّما الميزان الحق هو ما يقدمه من منافع ونعم ظاهرة وكان ذلك في قوله: "**ثم كان السلطان صلاح الدارين، فأخلق بشخص يعم نفعه العباد والبلاد، ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة، وأن يكون شرفه عند الله عظيماً، كما كان قدره في العقول جسيماً، ومقامه عند الله كريماً، كما كان نفعه للعباد عميماً، وعلى قدر**

---

(1)المناقب والمثالب , ص 392 .

(2) القاضي النعمان , افتتاح الدعوة , ص 26؛ الدوإداري , كنز الدرر , ج 6/ص 113 ؛ المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 1/ص 50 .

(3) ابن الأثير , الكامل , ج 6/ص 583 ؛ ابن خلدون , تاريخ , ج 4/ص 41.

**عموم المنفعة تشرف الأعمال، وعلى قدر النعمة تكون المنة"**[1]، وتلك الصفات في السلطان في الاعتقاد الفاطمي لا يختص بها إلّا من كان إماماً، وأن ذلك الإمام حمل القدسية الإلهية وله مكانة فوق الخلق لا يدركها غيره[2] .

وبعد مجيء المنقذ وهو أحد الأئمة المهديين على وفق العقيدة الفاطمية وظهوره في أرض المغرب وهو الخليفة الأول عبد الله المهدي وقيام الدولة الفاطمية على يديه وقيامه بإصلاحات جوهرية تناولنا الحديث عنها في صفحات سابقة[3]، إلّا أنّ سياسته لا تخلو من هفوات، ومن أهمها كيفية التعامل مع القبائل مع نسيجها الاجتماعي الذي حمل تناقضات أزلية تقف عائقاً أمام الحكومات، وقد شخص القلقشندي(ت821هـ/1418م) جذور تلك القبائل وقسمها على قسمين، وذلك في قوله: "**وهي على كثرتها ترجع إلى أصلين لا تخرج عنهما وهم : الأول البرانس, وهم بنو برنس من بربر. والثاني : البتر, وهم بنو ما دغش الأبتر بن بربر**"[4] .

وكان البرانس من الحضر وهم أصحاب عماره ومارسوا مهن الزراعة والتجار[5]، وذكر ابن خلدون(808هـ/1406م) أصناف القبائل من البرانس بقوله: "**وأمّا شعوب البرانس فعند النسابين أنّهم يجمعهم سبعة أجذام وهي**

---

(1) سراج الملوك، ص185 . 186 .

(2) القاضي النعمان، آداب اتباع الأئمة، ص15 .

(3) ينظر: الاطروحة، ص215-217 , 130-132.

(4) قلائد الجمان , ص 35 .

(5) اليعقوبي، البلدان، ص191 ؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ج1/ص102 .

**ازداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة. وزاد سابق بن سليم وأصحابه: لمطة وهسكورة وكزولة"**[1].

أمّا البتر فقد سكنوا الصحارى وعاشوا حياة البداوة وتربية الجمال، وقاموا بأعمال الإغارة والسلب والنهب[2] وأهم بطونها التي حوت الكثرة والغلبة هي زناتة ونفوسة ونفزاوة ومطغرة[3]وكل قبيلة منها لها بطون متعددة[4] .

وهناك تباين في الولاءات بين تلك القبائل عبّر عنها ابن عذاري(695هـ/1295م) في قوله: "**وذلك أنّ زناتة كانت تقوم بدعوة الأمويين ... وكان صنهاجة تقوم بدعوة العبيديين**"[5]، وقبائل كتامة وصنهاجة عرفوا بولائهم للفاطميين وهم أنصار قيام دولتهم[6]، أمّا زناتة انتشرت فيهم الدعوة الخارجية والصفرية[7]، وركنوا في الولاء إلى الأمويين في الأندلس[8]، وكانت العداوة أزلية بينهم من ذلك قولهم: "**وكانت بين ملوك زناتة في قديم الزمان وحديثه، وبين أمراء صنهاجة جيرانهم بالحدود المسيلة من ملياني، والجزائر، والحدود التاهرتية، فما ورائها حروب عظيمة، وأضرار متصلة، وحسائف ظاهرة وكامنة**"[9] ومن ذلك نلاحظ أنّ

---

(1) تاريخ ابن خلدون، ج6/ص117 .
(2) ابن خلدون، تاريخ، ج6/ص150 . 151 .
(3) ابن خلدون، تاريخ، ج6/ص192 .
(4) ابن خلدون، تاريخ، ج6/ص155 .
(5) البيان المغرب، ج1/ص252 .
(6) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص152 .
(7) ابن خلدون، تاريخ، ج3/ص213 .
(8) ابن خلدون، تاريخ، ج6/ص174 .
(9) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2/ص319 .

أرض المغرب حملت تناقضات وأضداد، هي بحاجة إلى سياسات مدروسة بعناية لغرض إدارتها وكسب الولاء فيها للدولة وسيادة القانون .

ومن الحكم في السياسة ما نقله الطرطوشي عن أقوال الحكماء "**وقالت الحكماء: أسرع الخصال في هدم السلطان وأعظمها في إفساده وتفريق الجمع عنه إظهار المحاباة لقوم دون قوم، والميل إلى قبيلة دون قبيلة، فمتى أعلن بحب قبيلة فقد برئ من قبائل** "[1].

ونلاحظ أنّ الفاطميين منذ بداية مشروع قيام دولتهم بعد إرسال أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب خصوا أرض كتامة وقبائلها في روايات الظهور بالقدسية [2]، ومنذ الحوار الأول معهم الذي دار بين الشيعي وحجاج كتامة[3]، تبيّن أنّ هناك مجموعة عوامل ميزت أرض كتامة وسكانها عن غيرهم في اختيارها من دون غيرها واستخدام القداسة في الاختيار كان لها أهداف الربط مع البيئة المغربية التي ساعدت على قبول إضفاء الجانب الروحي على مشروع القيام، ومع تلك الحسنات في الرؤية الإسماعيلية، إلّا أنّها لا تخلوا من مخاطر ظهور الأعداء وزيادة الاحتقان في التركيبة الاجتماعية القبلية في بلاد المغرب .

وبعد قرب الفاطميين من أهدافهم في نشوء الدولة الفاطمية واستلام عبدالله المهدي لمقاليد السلطة بدأ الخلاف في الرأي بين الخليفة أو الإمام

---

(1) سراج الملوك، ص228 .

(2)القاضي النعمان , افتتاح الدعوة , ص 48 ؛ ابن الأثير , الكامل , ج 6/ص 583 . 584 ؛ المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 1/ص 55 . 57 ؛ إدريس , عيون الأخبار , السبع الخامس , ص 48 .

(3) ينظر: القاضي النعمان , افتتاح الدعوة , ص 36 – 37 ؛ ابن الأثير , الكامل , ج 6/ص 584 ؛ المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 1/ص 55 – 56 .

المنتظر وصاحب البذر وهما الاثنان أصحاب قداسة في روايات الظهور[1]، ولاسيما ما منحه الخليفة لقبيلة كتامة من هدايا وامتيازات، لاقت رفضاً من قبل أبي عبد الله الشيعي لتلك السياسة وذلك في قوله: "**يا مولانا إنّ كتامة قوم قد قومتهم بتقويم, وأجريتهم على ترتيب وتعليم, وتم لي منهم بذلك ما أردت, وبلغتُ بذلك منهم ما قصدت, وهذا الذي فعلتهُ أنت بهم من اعطائهم الأموال وتوليتهم الأعمال وما أمرتهم به من اللباس والحلي فسادٌ لهم للخروج من عادتهم**" [2] .

واستمر الشيعي في التمادي في الحديث داعياً الخليفة إلى تغيير تلك السياسة ومنح صلاحيات الحكم اليه وذلك في قوله: "**فتكون وادعاً في قصرك لا يصل أحد منهم ولا من غيرهم إليك, ليكون ذلك أهيب لك وأشد لأمرك, وأزجى**"[3] ، وهنا كانت انعطافة كبيرة في السياسة والحكم الذي فهم على أنّه تمرد من قبل أبي عبد الله الشيعي على العقائد الإسماعيلية التي تمنح القدسية لأقوال الإمام الفاطمي وأفعاله وذلك في قولهم: "**وكذلك ينبغي التسليم للأئمة ولا يجوز ولا يحل تعقب أفعالهم ولا إنكارها بل الذي يجب أن يتلقى ما يكون منهم بالقبول ظاهراً وباطناً ونيةً واعتقادا وقولاً وفعلاً**"[4]، وهنا استدعت من عبد الله المهدي الحزم في اتخاذ موقف من ذلك الفعل ، ولكن لأيّ مدى، هل يصل إلى عقوبة القتل كما فعل مع أبي عبد الله الشيعي، أم كان بإمكانه التريث واتخاذ القرار الأصوب .

---

(1) ينظر: ابن خلدون , تاريخ, ج 4/ص 41؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص41.

(2) القاضي النعمان , افتتاح الدعوة , ص 308 .

(3) القاضي النعمان , افتتاح الدعوة , ص 308 ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ،ج22/ص134 ؛ ادريس ، عيون الأخبار، السبع الخامس ، ص118 .

(4) القاضي النعمان ، آداب إتباع الأئمة ، ص93 .

وجاء الطرطوشي ليضع قواعد للسياسة مع تلك الظروف وذلك في ما ذكره من أقوال الحكماء: "**وكان بعض الحكماء يقول: من أراد أن يسلم من الإثم ويبقى له الإخوان فيجعل نفسه بينه وبينهم قاضياً عدلاً ويحكم بالعدل، ولا يقبل أحداً في أحد ولا في نفسه إلّا بشهود وتعديل، فإنّا قد أحببنا بقول أقوام وأبغضنا بقول آخرين، فأصبحنا نادمين**"[1] .

ونجد أنّ الخليفة عبد الله المهدي كان أقرب إلى العجلة من الحكمة في اتخاذ القرار ، ولا سيما أنّه ميّز بين فعل أبي عبد الله الشيعي وبين أخيه أبي العباس الذي سعى في حركة التمرد، وذلك اعتراف ضمني بأنّ الشيعي استحق عقوبة أخفّ من القتل، وما حمله ذلك القرار من تداعيات وآثار على تاريخ الدولة الفاطمية، ولاسيما الحوار الذي دار بين أبي عبدالله الشيعي وقاتليه الذين كان ردهم في قولهم: "**أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته**"[2]، وفي ذلك القول إشارة إلى عدم الرضا بقرار القتل من قبل المنفذين، والدلالة على أنّ عبد الله كان مربكاً في قرار قتل أبي عبد الله الشيعي ما ظهر منه من فعل وقول بعد أن تم تنفيذ عملية الاغتيال في يوم الإثنين من النصف من جمادي الآخرة سنة(298هـ/910م) وقيل في ذلك: "**فخرج المهديّ وصلّى عليهما وقال: رحمك الله يا أبا عبد الله وجزاك خيراً بجميل سعيك! ولا رحمك يا أبا العبّاس فإنّك صرفته عن الحقّ**"[3]، وذلك الفعل الذي صدر عن عبد الله المهدي من الترحم على أبي عبدالله الشيعي والدعاء له في عظيم الأجر دلالة على أنّه ما كان متمرداً ولا يرقى ما بدر من فعل إلى أن يكون عدواً ومشاركاً في مؤامرة ضدّ نظام الحكم فكيف

(1) سراج الملوك، ص619 .

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص164 .

(3) المقريزي، المقفى، ج3/ص278 .

عوقب بذنب أخيه، والظاهر من النص أنّ أبا العباس هو من قاد حركة التمرد على الخليفة الفاطمي وكان ساعياً لإشراك أخيه في الأمر مستغلاً نفوذه في كتامة وحبّهم وطاعتهم له، وذلك جعله ضحيه أكثر من صفة الخيانة، وكان مستهدفاً ركناً صلداً من أركان الدولة الفاطمية، والأولى الحفاظ على حياته والعفو عنه أو إصدار عقوبة بحقه أقل أثراً من قتله، ومن عواقب ذلك القرار وتداعياته، وكان أسبابها فقدان الثقة بالدولة وبالأمان الذي منح لهم وذلك في قوله: "**كان أول ما بدى من خلافهم ذلك أن جماعة من بني الأغلب كانوا عند أبي الحسن بن أبي حجر، وكان من وجوههم ومقدميهم وأسخيائهم، وقد حضر طعامه وهم يأكلون معه الى أن دخل عليه بعض خاصته فقال: قتل الساعة أبو عبدالله وأبو العباس . فرفع يده من الطعام، وضرب المائدة برجله، وقال لمن كان معه من أهل بيته: قتلتم والله كلكم قالوا: وما ذنبنا نحن؟ قال: هذا الذي آمنكم قد قتل، وهو صاحب هذا الأمر وسبب هذا المُلك فكيف بكم وأنتم تعدون في الأعداء، ومن قتل وليه كان الى قتل عدوه أسرع**"[1] . وفي ذلك النص دلالة على حجم الفوضى وفقدان الثقة في عدالة الدولة الفاطمية والشك في الحفاظ على تعهداتها مع المجتمع المغربي الذي لم تنضج بعد علاقته مع النظام الجديد، بعد مقتل أبو عبدالله الشيعي الذي كان ركناً أساساً في بناء الدولة الناشئة .

وبيّن الطرطوشي الاختلاف بين سياسات الحكم من خلال شخص السلطان في قوله: "**الملوك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى، فأمّا ملك الدين فإنّه إذا أقام لأهل المملكة دينهم كانوا راضين وكان الساخط**

(1) افتتاح الدعوة، ص319 - 320 .

**فيهم بمنزلة الراضي، وأمّا ملك الحزم فيقوم به الأمر، ولا يسلم من الطعن والسخط، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي، وأمّا ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر"**[1]، وصفة الحزم التي اتصف بها عبدالله المهدي في فتنة أبي عبدالله الشيعي على الرغم من تنفيذ الأوامر من قبل الكتاميين، إلّا أنّها كانت لها عواقب وآثار على الدولة الفاطمية، وكانت طائفة منهم غير راضية بذلك الفعل والدليل على ذلك حدوث فتن واضطرابات عقدية منها ما روي في قولهم: "**ثارت فتنة بسبب قتلهما وجرد أصحابها السيوف فركب المهدي وأمن الناس فسكنوا ثم تتبعهم حتى قتلهم، وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان قتل فيها خلق كثير، فخرج المهدي وسكن الفتنة، وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة ... ورجعت كتامة إلى بلادهم فأقاموا طفلا، وقالوا: هذا هو المهدي، ثم زعموا أنه يوحى إليه، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت**"[2]، والظاهر من النص أنّ الدولة الفاطمية دفعت ثمن قتل أبي عبدالله الشيعي من دماء رجالها وأموال خزائنها ومن جهود دعاتها وتزعزعت عقائدها وتطلب ذلك زمناً ليس بالقصير وجهوداً كبيرة إلى أن استطاعت أن تعيد ثقة سكانها وأمن أراضيها واستقرارها .

وبالعودة إلى الصراع القبلي التقليدي الذي اتسمت فيه أرض المغرب وأخص بالدراسة الصراع بين صنهاجة وزناتة والذي كان له بالغ الأثر في السياسة الفاطمية في المغرب العربي، وبالخصوص دخول صنهاجة معهم في الحرب التي خاضها الفاطميون ضد صاحب الحمار، ووقوف زناتة مع أبي يزيد، إذ حقق المنصور بالله انتصاره مع سيوف صنهاجة[3]، واستثمر

(1) سراج الملوك، ص222 . 223 .

(2) اتعاظ الحنفا، ج1/ ص68.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص84 .

المعز لدين الله ذلك العداء، وأسند إلى بلكين بن زيري[1] مهمة الحرب مع قبائل زناتة والقضاء على نفوذها ووفر له الدعم والإسناد وتمكن زيري من الانتصار وأوغل فيهم القتل والتشريد وسمت مكانته عند الفاطميين وقيل فيه: "**واستطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب، وغلب يده ... وسما به في الرتب عند الخلافة**"[2]، أضف إلى ذلك التحالف الإستراتيجي بين صنهاجة وكتامة والتوافق على عداء زناتة وإعداد الحملات المشتركة من أجل التنكيل بقبائل زناتة والقضاء على نفوذهم في المغرب العربي وكان أوجها في الحملات التي قادها بلكين بن زيري ومنها قولهم: "**واضطلع بالولاية وأجمع غزو المغرب فغزاه في جموع صنهاجة ومخلّف كتامة وارتحل إلى المغرب، وفرّ أمامه ابن خزر صاحب المغرب الأوسط إلى سجلماسة ... ثم بلغه أنّ زناتة اجتمعوا إلى تلمسان فرحل إليهم فهربوا أمامه**"[3]، وتلك السياسة محفوفة بالمخاطر وتؤدي إلى تفاقم الصراعات القبلية والمذهبية في أرض المغرب، وأن تلك القبائل كانت تتسم بالتسليم الكامل للدولة الاموية في الاندلس وتنطلق من دينها الاموي واسلامها الاول الذي كان على يد الامويين، وذلك في قولهم: "**وذلك أن زناتة كانت تقوم بدعوة الأمويين، لما**

(1) بلكين بن زيري : أبو الفتوح سيف الدولة المكنى يوسف، يُنسب إلى حمير، مؤسس الإمارة الصنهاجية بتونس كان بدء امره من قواد المعز الفاطمي ،ولاه افريقية ما خلا صقلية وطرابلس وسماه يوسف وكناه أبو الفتوح . ابن خلكان ،وفيات الاعيان ،ج1/ص 92. ،القلقشندي، صبح الأعشى،ج5/ص 124.

(2) ابن خلدون، تاريخ، ج6/ص204 .

(3) ابن خلدون، تاريخ، ج6/ص206 .

**تقدم لهم من هجرة جدهم خزر بن صولات وإسلامه على يد عثمان بن عفان"[1] .**

وبيّن الطرطوشي بعض الصفات التي تدخل الدولة في مأزق منها تعاظم الثقة بالقوة والأفعال إلى درجة إهمال التدقيق والمراجعة للسياسات وعدم الأخذ من عقول الحكماء بقوله: "**وقيل لملك بعد زوال ملكه: ما الذي أذهب ملككم؟ قال: ثقتي بدولتي واستبدادي بمعرفتي، وإغفالي استشارتي وإعجابي بشدتي وإضاعتي الحيلة في وقت حاجتي والتأني عند العجلة"[2]**، ونلاحظ أنّ الفاطميين استخدموا الإفراط في نصرة القبائل التي وقفت إلى جانبهم وأهملت وقست على القبائل التي كانت مناوئة لهم بسبب اختلافات منها عقدية واجتماعية، كان بإمكانهم التصرف بأكثر حكمة والتوازن في العلاقات بين القبائل وبذل الأموال في سبيل كسب ولاء المخالفين وإخضاعهم للدولة بأساليب مختلفة .

أمّا السياسة المالية فقد تعرضت لتقلبات في زمن الفاطميين فبعد أن كانت عامل جذب لسكان المغرب في بدايات نشوء الدولة الفاطمية، منها ما فعله أبو عبد الله الشيعي مع أهل مدينتي بالرمة[3] وطبنة[4]، بعد أن حضر

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص252 .

(2) سراج الملوك، ص229 .

(3) لم نجد معلومات كافية عن المدينة في المصادر المتوفرة سوى أنها أحد مدن بلاد الزاب مجاورة لمدينة طبنة، وكان أبي المقارع حسن بن أحمد والي عليهما معاً في حكم زيادة الله، ودخل أبو عبدالله الشيعي الى المدينتين في سنة 293هـ . ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص141 .

(4) هي مدينة كبيرة من أعظم بلاد الزاب لها حصن قديم عليه سور من حجر لم يكن من القيروان الى سجلماسة مدينة أكبر منها وهي حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير فتحها موسى بن نصير وبها أخلاط من العرب والعجم والأفارقة والروم . اليعقوبي ، البلدان ، ص190 ؛ البكري ، المسالك والممالك ، ج2/ص711 ، الادريسي ، نزهة المشتاق ، ج1/ص263 .

عنده الجباة فسألهم عن ما في أيديهم من الأموال، فكان جوابهم أنّها من العشر، فاستنكر ذلك، وبيّن لهم أنّها في الشريعة تكون من الحبوب وليس عيناً، وأمر بإرجاع الأموال إلى أصحابها، ورفض ما يؤخذ من المسلمين خراجاً، وقال فيه: "**هذا ما لا خير فيه ولا قابلة ولا خراج على المسلمين في أموالهم**"[1]، وشاعت في أفريقيا عدالته في جباية الأموال والرجوع فيها إلى أصل التشريع من القرآن الكريم، والسنة النبوية وروي في ذلك قولهم: "**فلما نظر أهل طبنة إلى فعله، سروا به وجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة. وانتشر فعله في جميع نواحي إفريقيا فتاقت أنفسهم إليه، وكاتبوه ودخلوا في طاعته**"[2] .

ولكنّ ذلك الالتزام بأحكام الشريعة في فرض الضرائب لم يدم طويلاً، ولا سيما فرض الجبايات ومصادرة الأموال، التي لم يكن لها أساس شرعي وإنّما أحكام وضعية فرضتها الظروف الوقتية ورؤية الخليفة الفاطمي، ومنها فرض الخراج والمغارم على المسلمين[3] ومن ذلك قولهم: "**وفيها أخذ أهل الضياع بأعمال أفريقية بمغرم سمى التضييع. وزعموا أنه من بقايا التقسيط**"[4]، وكذلك العمل بنظام القبالات كما في مدينة برقة[5]، وهناك موارد متعددة من الأموال ترد إلى بيت مال أفريقيا منها ما جاء على وفق الأحكام الشرعية، ومنها بواسطة أحكام وضعية لم ترد فيها نصوص شرعية، جاء البعض منها تقليداً لجبايات أمم أخرى ومن ذلك ما ذكره ابن حوقل في قوله: "**صاحب بيت مال أهل المغرب يقول فى سنة ستّ وثلثين وثلثمائة**

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص142 .
(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص142 .
(3) جوذر، سيرة، ص56 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص173 . 174 .
(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص181 .
(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ج1/ص97 .

**دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه عن خراج وعشر وصدقات ومراع وجوال ومراصد وما يؤخذ عمّا يرد من بلد الروم والاندلس فيعشر على سواحل البحر وما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر ويلزم ما يرد منها من الورق والمقوّم بقيمة العين والعين المجتبى من هذه الوجوه فيكون من سبع مائة ألف دينار إلى ثمان مائة ألف دينار"**[1]، وهنا نلاحظ أنّ هذه الضرائب والجبايات بعضها لا تصح من نظام ادعى أنّ قيامه مقدس وردت به بشارات أنّه سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وبذلك فإنّ الفاطميين لم يأتوا بجديد، بل قلدوا الأنظمة الاقتصادية الوضعية لدى الكثير من بلدان العالم وذلك يتعارض مع فلسفة إنقاذ البشرية [2].

وفي رسالة بعثها جوذر **(ت ٣٨٦هـ / ٩٩٦م)** إلى الإمام الفاطمي بيّن بها نقمة الناس على ارتفاع قيمة القبالات في مدينة المسيلة[3] ووالياها جعفر بن علي بن حمدون وكان جواب المعز أن يوكل أمر إصلاح جعفر والرجوع عن رأيه الفاسد إلى جوذر[4]، الذي قال مستنكراً ذلك الفعل في قوله: **"واحتاج مولانا صلوات الله عليه أن يقول: إنّما تركت ذلك لك، فأيّ دين يصح لي إذا أنا أعنت ورضيت بهذا الحال"**[5] .

---

(1) صورة الأرض، ج1/ص96 . 97 .

(2) البغوي ، شرح السنة ،ج15/ص85 ؛ إدريس ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ،ص17 .

(3) وهي مدينة من أعمال الزاب في بلاد المغرب وتسمى بالمحمدية، وهي من بلاد بني حمّاد بالغرب الأوسط، استحدثها علي بن الأندلسي في ولاية ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب . ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1273/3 ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج26/ ص323 ؛ مقديش، نزهة الأنظار، ج1/ص79 .

(4) سيرة، ص132 .

(5) سيرة، ص130 .

وبـيّن الطرطوشـي صـالح السياسـة فـي الجبايـة فـي قولـه: "**أيّهـا الملـك، كن بما يبقى في يد رعيتك أفرح منك بما تأخذ منها. لا يقل مع الصلاح شيء ولا يبقى مع الفساد شيء**"[1]، وهنا ذكر أنّ رفع المستوى المعيشي للرعيـة يسـهم فـي شـموخ الـبلاد وعلوهـا وهـو مـن ضـرورات الصـلاح وأنّ التمادي في فرض الضرائب يؤدي إلى زعزعة الثقة في السلطة وهو باب من أبواب الفساد وهو السبيل إلى ضعف الدولة وزوالها .

وبـالعودة إلـى أهميـة أرض المغـرب فـي نشـوء الدولـة الفاطميـة، إلّا أنّهـم سـرعان مـا رحلـوا عنهـا مـن دون رجعـة، ولا سـيما أنّ المعـز كـان مـدركاً بـأنّ خـروج المغـرب عـن طاعـة الفـاطميين متحققـة لا محالـة، وكـان مـن الأسـماء المرشـحة لتـوليتهم أرض المغـرب بعـد رحيـل الفـاطميين هـو جعفـر بـن علـي بـن حمـدون الزنـاتي[2] والـذي رد علـى المعـز لـدين الله فـي وضـع طلبـات عـدّة منهـا قولـه: "**تتـرك معـي أحـد أولادك أو أخوتـك جالسـاً فـي القصـر وأنـا أدبـر, ولا تسـألني عـن شـيء مـن الأمـوال إن كـان مـا أجبيـه بـإزاء مـا أنفقـه, وإذا أردت أمـراً فعلتـه ولـم أنتظـر ورود الأمـر فيـه , لبعـد مـابين مصـر والمغـرب, ويكـون تقليد القضاء والخراج وغيرة من قبل نفسي**"[3] .

وفسّـر المعـز تلـك المطالـب بأنّهـا خـروج عـن الطاعـة، وانسـلاخ أرض المغـرب مـن الفـاطميين هـي مسـألة وقـت لـذلك تـرك ذلـك الخيـار وقـال: "**يـا**

---

(1) سراج الملوك، ص497 .

(2) جَعْفَر بن عَليّ بن أَحْمد بن حمدَان الأندلسي أَبُو عَليّ وكان أبوه من بنى المسيلة، وكان أميرها وهي من أَعمال إفريقية، وكَانَ شَيخا كبيراً كثير الْعَطاء مؤثراً لأهل الْعلم، حدثت معركة بينه وبين زيري بن مناد قتل على أثرها، بعدها ترك ملكه وهرب الى الأندلس وقتل فيها سنة (364هـ/974م) . ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ص360 ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج11/ص90 .

(3) المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 1/ص 99 .

**جعفر: عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبددت بالأموال والأعمال دوني، قم فقد أخطأت حظك، وما أصبت رشدك"[1]**، واتجه إلى شخص آخر هو يوسف بن زيري، كأنسب الخيارات للفاطميين، كونه تابعاً ومطيعاً لهم إلّا أنّ ذلك لم يدم طويلاً، وتلك كانت قناعات المعز من قوله لأحمد بن عبد الله المهدي[2]: **"يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ واعلم يا عم أنّ الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر, ولكن هذا أولى وأحسن وأجود عند ذوي العقل, وهو نهاية ما يفعله من يترك دياره"**[3] .

ومن ذلك النص نلاحظ أنّ المعز على الرغم من أنّه على دراية في عواقب منح الحكم والنفوذ إلى زعيم قبيلة صنهاجة، إلّا أنّه وضع حلولاً مرحلية وهو في أوج قوة الدولة الفاطمية ونفوذها ، ورحل مصير الحكم وأزماته إلى المستقبل المجهول، وفي ذلك تخلى عن رسم استراتيجيات على وفق رؤى بعيدة الأمد، وذلك لا يخلو من مخاطر الزوال للدولة الفاطمية التي جاءت بعمل دؤوب استهلك جهوداً جبارة للتنظيم الإسماعيلي والأئمة الفاطميين في مرحلتي الستر والظهور .

إضافة الى ذلك كانت تداعيات الخيارات المتوفرة لدى المعز بين تولية جعفر بن علي بن حمدون الزناتي، وبين غريمه زيري بن مناد الصنهاجي كبيرة على مستقبل المغرب العربي وذلك ما ذكره ابن الأثير في قوله: **"ثُمَّ إِنَّ**

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص99 .

(2) أبو علي ابن المهدي الفاطمي أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل قدم إلى مصر مع المعز وأقام بالقصر إلى أن مات في سنة(382هـ/992م ). المقريزي ، المقفى الكبير ،ج1/ ص522 .

(3) المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 1/ص 99 – 100 .

**جَعْفَرَ بْنَ عَلِيٍّ، صَاحِبَ مَدِينَةِ مَسِيلَةَ وَأَعْمَالِ الزَّابِ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زِيرِي مُحَاسَدَةٌ، فَلَمَّا كَثُرَ تَقَدُّمُ زِيرِي عِنْدَ الْمُعِزِّ سَاءَ ذَلِكَ جَعْفَرًا، فَفَارَقَ بِلَادَهُ وَلَحِقَ بِزَنَاتَةَ فَقَبِلُوهُ قَبُولًا عَظِيمًا، وَمَلَّكُوهُ عَلَيْهِمْ عَدَاوَةً لِزِيرِي، وَعَصَى عَلَى الْمُعِزِّ، فَسَارَ زِيرِي إِلَيْهِ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَغَيْرِهِمْ، فَالْتَقَوْا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ، فَكَبَا بِزِيرِي فَرَسُهُ (فَوَقَعَ) فَقُتِلَ، وَرَأَى جَعْفَرٌ مِنْ زَنَاتَةَ تَغَيُّرًا عَنْ طَاعَتِهِ ... وَسَارَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ إِلَى الْحَاكِمِ الْأُمَوِيِّ، فَأَكْرَمَهُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ"**[1]، ومن ذلك النص نلاحظ آثار سياسة المعز في تولية خلفاً له في المغرب العربي، نتج عنها حرباً طاحنة خسرت فيها الدولة الفاطمية اثنان من كبار أنصارها ومؤيديها في المغرب العربي الأول زيري الصنهاجي الذي قتل في المعارك، والثاني جعفر بن علي الزناتي الذي تمرد وأعلن ولائه الى الأمويين في الأندلس، ألد أعداء الفاطميين وأكثر المساهمين في الفوضى والتمردات في المغرب العربي .

ووضع الطرطوشي أسباب التراجع والزوال للدول في قوله: "**ما الذي سلب عزكم وهدم ملككم؟ فقال: شغلتنا لذاتنا عن التفرغ لمهماتنا ووثقنا بكفاتنا، فآثروا مرافقهم علينا ... وحمل على أهل خراجنا فقل دخلنا وبطل عطاء عبيدنا، فزالت الطاعة منهم لنا، وقصدنا عدونا فقل ناصرنا، وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الأخبار عنا**"[2]، وذلك ما آلت إليه الأمور في المغرب العربي بعد أن منح استقلالية في الإدارة والجباية، إلى أن تمرد المعز بن باديس على الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ورفض شرعية الخلفاء الفاطميين وأعلن الولاء للخليفة العباسي وذلك في قولهم: "**الْمُعِزَّ بْنَ بَادِيسَ كَانَ خَطَبَ لِلْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ، وَقَطَعَ خُطْبَةَ**

(1) الكامل، ج7/ص306 - 307 .

(2) سراج الملوك، ص228 .

**الْمُسْتَنْصِرِ الْعَلَوِيِّ صَاحِبِ مِصْرَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ كَتَبَ إِلَيْهِ الْمُسْتَنْصِرُ الْعَلَوِيُّ يَتَهَدَّدُهُ، فَأَغْلَظَ الْمُعِزُّ فِي الْجَوَابِ"**[1]، واستمر في اجراءات التغيير العقدي من الفاطميين بإعادة سكّ العملة ورفع أسماء الخلفاء من جميع الدنانير والدراهم في مناطق نفوذه وكان ذلك في سنة (441هـ/1049م) ، وأصدر أمراً منع فيه تداول العملة التي تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين وفرض عقوبات مشددة على المخالفين[2] .

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8/ص86 .

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ص278 . 279 .

## المبحث الثاني

## مثالب السياسة الفاطمية في مصر

عاشت مصر قبل دخول الفاطميين اضطرابات، وفوضى سياسية واجتماعية واقتصادية، وساءت أحوال السكان فيها، وهم في انتظار الحلول، ومنها وجود المنقذ ولا فرق في ذلك أن يكون خارجياً، أم داخلياً، ولا سيما الدولة الفاطمية التي ظهرت في أرض المغرب وكان لها إصلاحات كبيرة وعوامل قوة ممكن أن تستثمر في مصر لتغيير الواقع السيء الذي عانت منه طبقة كبيرة من السكان، ومع أنّ الفاطميين حملوا معهم عناصر القوة والازدهار إلّا أنّها لا تخلوا من هفوات ظهرت وتطورت إلى أن أصبحت عوامل انهيار وزوال للدولة الفاطمية ومنها ما نحاول ذكره وتفسيره .

**أولاً: القداسة في نظام الوراثة .**

إنّ نظام الحكم القائم على قدسية الإمام والعلاقة التي أدارها في المصالح بين الدنيا والآخرة منها قولهم: "**الإمامة هي قطب الدين, وأساسه والتي يدور عليها جميع أمور الدين والدنيا, وصلاح الآخرة والأولى وينتظم بها أمور العباد, وعمارة البلاد**"[1]، وفي ذلك النص دلالات على مكانة الإمام وقدسيته وتلك الصفات لا يمتلكها إنسان ممكن اختياره من قبل الناس وإنّما هنالك تدخلات غيبية في خلق ذلك الإمام وما تميز به من صفات، ولاسيما أنّهم وضعوا قواعد النظام المقدس الذي أوجده الفاطميون في عملية انتقال الحكم من الخليفة السابق إلى اللاحق وفي ذلك ما ذكره الشهرستاني(548هـ/1153م) في قولهم: "**إنّه مات, وإنّما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده فإنّ النص لا يرجع قهقري والقول بالبداء**

(1) النيسابوري , إثبات الإمامة , ص 27 .

**محال .ولا ينص الإمام على واحد من أولاده إلّا بعد السماع من آبائه، والتعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة"**[1]، وذلك النص أشار إلى وجود شروط وآليات مقدسة لا تحمل التعديل والتغيير .

ومع أنّ ذلك النظام الوراثي جاء منه أفراد كانوا أهلاً للقيادة، ولهم أثر في تطور الدولة الفاطمية وازدهارها في أوقات عزها وقوتها، إلّا أنّ هذا النظام لم يكن مثالياً في أوقات الضعف بل كان عبئاً على الدولة الفاطمية وفاقم مراحل تدهورها وعجل في انهيارها وزوالها ، بدءاً من المستنصر بالله الذي منحه والده الظاهر ولاية العهد وهو رضيع ابن ثمانية أشهر[2]، في سنة (421هـ/1030م) وبويع بالخلافة وهو ابن سبع سنين في سنة(427هـ/1035م)[3] وبسبب صغر سنه فسح المجال لتحكم الوزراء في الحكم وسلبوا صلاحيات الخليفة ونفوذه ومنها قولهم: **"فاستولى على الوزارة والتدبير بمصر... وتمهدت الأمور وسكنت الدهماء والزم المستنصر بالله القصر ولم يبق له نهي ولا أمر إلا الركوب في العيدين"**[4] .

وذكر الطرطوشي المخاطر التي تتعرض لها البلاد في حال ضعف شوكة الحاكم وزوال سلطانه وذلك في قوله: **"وفي زوال السلطان، أو ضعف شوكته سوق أهل الشر، ومكسب الأجناد، ونفاق أهل العيارة والسوقة واللصوص والمناهبة"**[5]، وهنا إشارة إلى آثار ضعف السلطان

(1) الملل والنحل , ج 1 / ص 191 .
(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص179 .
(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص135 .
(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص135 .
(5) سراج الملوك، ص200 .

علـى ومسـتقبل الـبلاد اسـتقرارها، ممـا فسـح المجـال أمـام المنـاطق الرخـوة، وظهور التمردات والصراعات الداخلية، وبالتالي تدهور الوضع العام للبلاد .

وبسـبب التراكمـات التـي ظهـرت فـي خلافـة المستنصـر (427-487هـ/1035-1094م) ذكـر ابـن القلانسـي مـا وصـلت إليـه الـبلاد فـي قولـه: "**وفـي أيامـه ثـارت الفـتن مـن بنـي حمـدان وأكـابر القـواد ووجـوه العسـكرية والأجنـاد وغليـت الأسـعار وقلـت الأقـوات واضـطربت الأحـوال واختلـت الأعمال وحصر في قصره وطمح في خلعه لضعف أمره**"[1] .

وبعـد خلافـة المستنصـر تحولـت قدسـية ولايـة العهـد إلـى صـراع علـى الحكـم بـين نـزار الابـن الأكبـر للمستنصـر الـذي صـرف عـن الخلافـة، بسـبب نفوذ الـوزير الأفضـل[2]، والـذي حـال بـين تسـميته بهـا، لوجـود خلافـات معـه فـي حيـاة والـده[3]، وكـان راغبـاً فـي توليـة الابـن الأصـغر أبـي القاسـم أحمـد الملقـب بالمسـتعلى بـالله(487-495هـ/1094-1102م) [4]، وكـان المستنصـر فـي حياتـه قـد عقـد لـه علـى سـت الملـك ابنـة بـدر الـدين الجمـالي[5]، وكانـت ولادتـه فـي الرابـع عشـر مـن صـفر سـنة(452هـ/1060م)[6]، أمـا ابـن خلكـان كـان لـه رأي آخـر فقـد ذهـب انـه ولـد فـي القـاهرة فـي شـهر محـرم سـنة (469هـ/

(1) تاريخ دمشق، ص135 .

(2) الوزير ابو القاسم شاهنشاه الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، تـولى الوزارة عند اشتداد مرض والده بدر الجمالي في سنة(487هـ/1094م)، وتوفي مقتولاً سنة (515هـ/1121م) وكان له دوراً بارزاً في انقسام الدعوة الاسماعيلية . ابن خلكان ، وفيات ، ج2، ص 448-451.

(3) ابن الميسر، أخبار مصر، ص60 .

(4) ابن ميسر، أخبار مصر، ص60 .

(5) ابن ميسر، أخبار مصر، ص70 .

(6) السجلات المستنصرية، ص47 .

1075م)[1]، وعارض نزار هذه البيعة قائلا: "**ولو قطعت ما بايعت من هو أصغر سناً منّي وخط والدي عندي بأني ولي عهده وأنا أحضره**"[2]، ودخلت البلاد على أثر ذلك في حروب شديدة أنهكت الدولة وفرقت الناس بين مؤيد ومعارض انتهت بهزيمة نزار والقبض عليه والقضاء على تمرده وانقسمت الإسماعيلية بعدها إلى النزارية والمستعلية[3]، وفي ذلك الحدث تغيير في العقيدة الإسماعيلية في تعيين الإمام اللاحق من خلال النص من قبل الإمام السابق، ممّا نتج عنه تفكك في البنية التنظيمية الإسماعيلية، واستطاع الأفضل أن يصل إلى المنزلة التي أرادها، وذكر المقريزي(845هـ/1441م) ذلك في قوله: "**ولم يكن للمستعلى سيرة فتذكر، فإنّ الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة**"[4].

وتوافق حال توليه خلفاء صغار السن في الدولة الفاطمية وعواقب ذلك مع ما ذكر الطرطوشي أهمية زيادة عمر الإنسان في تمام العقل من خلال ما يتلقاه من حكم وطول التجارب[5]في زيادة العقل المكتسب والاستفادة من حوادث الأيام وذلك في قوله: "**تمام العقل طول التجارب ... وأمّا الزيادة في العقل المكتسب فزيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالظنون، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان**"[6]، وذلك العقل المكتسب يزداد حكمة ومعرفة بخفايا الأمور من خلال ما تتعاقب عليه من أحداث وتجارب وسياسات، لذلك تتولد

(1) وفيات الاعيان ، ج2، ص 98.

(2) ابن ميسر، أخبار مصر, ص 59 .

(3) ابن ميسر، أخبار مصر، ص62 . 63 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ص27،84 ، 85 .

(4) اتعاظ الحنفا، ج3/ص27 .

(5) سراج الملوك، ص278 . 279 .

(6) سراج الملوك، ص279 . 280 .

لديه قراءة مستقبلية للأحداث، وإلى أين تسير الأمور، وما هي ردات الفعل الأسلم والحلول الأفضل .

واستمر نفوذ الأفضل في التحكم في خلفاء الدولة الفاطمية بعد وفاة الخليفة المستعلي الذي حكم لمدة سبع سنوات وجاء بعده ابنه أبو علي المنصور وله من العمر خمس سنين ولقب بالآمر بأحكام الله[1]، واستمر التمسك بالقداسة من قبل الخلفاء الفاطميين وعولوا عليها في استمرار حكمهم الروحي في حال ضعف نفوذهم السياسي والعسكري ومنها ما قاله الآمر: " **انتقلت أنواره إلينا واتصلت أسبابه بنا وظهر من حالنا ويظهر تأييد الله تعالى ومشيئته ما يوشحّ به السير ويسير به الركبان**"[2]، وسعى الآمر بأحكام الله من أجل استعادة نفوذه الذي طغى عليه وزيره الأفضل لذلك اتهم في تدبير قتله[3]، واستمر في معاقبة المتآمرين ومنهم وزيره المأمون البطائحي وذلك في قولهم: **"قبض الآمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبي عبد الله محمّد وعلى أخوته الخمسة، وثلاثين نفرا من خواصّه وأهله، واعتقله، ولم يزل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين، فصلبه مع أخوته**"[4].

وبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله سنة (524هـ/1130م) تفاقمت مشكلة ولاية العهد، وظهرت انقسامات أخرى في الإسماعيلية منهم من أقر بأن الخليفة لم يخلف ولياً للعهد وليس لديه أبناء، لذلك انتقلت الخلافة إلى

(1) ابن العبري، مختصر الدول، ص197 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ص29 . 31 .
(2) الآمر بأحكام الله ,الهداية الآمرية, ص26.
(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5/ص299 .
(4) النويري، نهاية الأرب، ج28/ص291 .

ابن عمه عبد المجيد بن محمد بن المستنصر ولقب بالحافظ لدين الله[1]، وظهرت دعوة اسماعيلية عرفت بالطيبية التي تقول بإمامة أبي القاسم الطيب ابن الآمر بأحكام الله، وروي بأنّه في سنة (524هـ/1130م) ولد للآمر بأحكام الله ولد وسمي بولاية العهد وعقّ الخليفة عنه كبشاً وزينت مصر والقاهرة واستمرت الاحتفالات بمولده مدة أربعة عشر يوماً[2] .

وظهرت دعوة استتار الإمام أبي القاسم الطيب بعد الإمام العاشر في قولهم: "**يظهر منهم مؤيد بالمغرب فيقهر ويغلب ويبقى الملك في عقبه واهل مذهبه إلى أن يستكمل عشرةُ رجال من النسب ابن عن أب ونعتهم صلوات الله عليه في بعض كلامه بقباب النور العشر ثم اقتضت الحكمة الالهية استتار ولد مولانا الآمر لما طرأ من العلة .. لفساد نيات اهل عصره وكثرة ما يكتسبه المستجيبون لدعوته من الشكوك**"[3]، وهنا من الواضح قدسية الإمام، مع أنّه لم يكن حاكماً أو ظاهراً للعيان ، ونلاحظ أنّ ولاية العهد على الرغم من أنها تحولت إلى صراع وتنافس بين الطامحين إلى الوصول للحكم، ومع ذلك استمرت روايات القدسية والغيبيات ترافق الأحداث وذلك الفعل أدى إلى حصول انشقاقات عقدية هي أخطر من التنافس والصراع على الخلافة .

وحذر الطرطوشي من أصحاب الدهاء والمكر وذلك في قوله: "**والموصوف بالدهاء والمكر مذموم، وصاحبه محذور تخاف غوائله وتحذر عواقب حبائله**"[4]، ومن ذلك نلاحظ زيادة أصحاب الدهاء والمكر في أيام ضعف الدولة الفاطمية وتدهورها ، سواء أكانوا وزراء أم دعاة أم من المتحكمين في زمام الأمور، مما أدخل البلاد في مستقبل مجهول تخشى عواقبه .

---

(1) ابن ميسر، أخبار مصر، ص113 .

(2) ابن ميسر، أخبار مصر، ص109 . 110 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ص128 .

(3) ابن الوليد, أربعة كتب اسماعيلية ، ص169.

(4) سراج الملوك، ص284 .

والانعطافة الأكبر هي خلو منصب الخلافة من الوريث الشرعي للخلافة والأخطر هو الفراغ العقدي في عدم وجود إمام تنطبق عليه شروط الإمامة وانتقالها في الأعقاب من الأب إلى الإبن، وبيّن الداعي إدريس (872هـ/1467م) عملية التلاعب والمكر في مخالفة وصية الخليفة الآمر بأحكام الله لولده الطيب وأنّ عبد المجيد كان مستودعاً على الإمامة والحكم لحين إيصال صاحب مرتبة الإمامة الشرعي، إلّا أنّه طمع في الخلافة وتلاعب بالوصية وقال فيه: **"فأمّا عبد المجيد المتسمى في ذلك الإسم فقد عتى وأستكبر، وخالف أمر ولي الله (عليه السلام), وعلى الضلال والإضلال تمادى وأصر، ووردت كتبه إلى السيدة الصليحية [1] يدعي منها أمرة المؤمنين، وتسمى بعد أن كام يتكنى ولي عهد المسلمين، فغضبت الحرة قدس الله روحها لله وللدين"[2].**

وبعيداً عن الخوض في الأحداث والوصول إلى حقيقة ما حدث وهل هناك إمام مغيّب، أم هو نسج من الخيال، فالواضح هو وجود صراع وتنافس بين كبار الدعاة، كان له أثر على مستقبل الدعوة الإسماعيلية وكيانها السياسي الممثل في الدولة الفاطمية، واستمرت حالة الانقسام، وظهور دعوات جديدة بعد كل صراع على ولاية العهد، وكان دافع قدسية الإمام يفاقم

(1) السيدة الحرة الصليحية هي السيدة أروى بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي، تولى تربيتها وتأديبها السيدة أسماء بنت شهاب زوجة الداعي علي بن محمد الصليحي الذي كان يحفها بكثير من الكرم في صغرها وصفها الداعي ادريس بانها امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وعقل وعبادة ،وعلم ،فاقت الرجال ،وقامت بادارة الدعوة والملك في اليمن والجهات المضافة لها من الهند والسند وعمان وبعد وفاة ولدها المكرم بلغت السيدة الحرة منزلة عظيمة عند المستنصر الفاطمي ورفعها من حدود الدعاة إلى مقامات الحجج، وامر الدعاة بالامتثال إلى أوامرها . ابن ميسر، أخبار مصر ،ص 99 ؛ الداعي ادريس ،عيون الاخبار ، ص 151.

(2) زهر المعاني، ص265 .

الأزمة أكثر، هروباً من الإعلان عن الصراع بين إمامين على منصب الإمامة .

وبعد تولي أبي الميمون عبد المجيد الملقب بالحافظ لدين الله الخلافة سنة( ٥٢٤ هـ / ١١٢٢م) استمر صراع القدسية، وجاء طامع آخر هو أمير الجيوش، أحمد بن الأفضل شاهنشاه [1]، الذي قام باعتقال الخليفة وحبسه، وأظهر مذهب الإمامية الإثنى عشرية، واستخدم المنابر في الإعلان عن الدعوة للإمام المهدي المنتظر الذي يظهر في آخر الزمان[2]، لكنّ ذلك لم يدم طويلاً فقد أغتيل أحمد بن الأفضل بتدبير من عبد المجيد، وأخرجه الجند من الحبس ودعي إليه على المنابر، واستمر ادعاء القدسية وجاء إمام العصر على وفق ما جاء في قولهم: **"اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأعززت الإسلام بعد أن جعلت طلوعه على الأمة ظهوره وجعلته آية لمن تدبر الحقائق بناظر البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون"[3]** .

والغريب أنّ إمام الزمان عبد المجيد دخل في دوامة الصراع على الإمامة بين أبنائه في حياته نافى ذلك القدسية التي اكتسبها كونه صاحب العصر الذي من المؤمل أن ينشر العدل في الآفاق، وكان له اليد في اندلاع المعارك بين أبنائه بعد أن جعل الابن الأصغر حيدرة ولياً للعهد على

---

(1) احمد بن الأفضل: أبو علي كتيفات أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني ثم المصري، صاحب مصر وسلطانها الأكمل أبو علي، المتوفى سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٠م، الذي سجنه الخليفة الآمر بعد مقتل أبيه، وبعد مقتل الخليفة الآمر أُطلق سراحه من قبل الجند وفرضوه وزيراً للحافظ فاستبد بالحكم، تم قتله. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج11/ص443 ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ،ج19/ص 85؛ العسقلاني، رفع الإصر، ص 163.

(2) ابن ظافر، أخبار الدولة المنقطعة، ص94 .

(3) ابن ظافر، أخبار الدولة المنقطعة، ص95 .

حساب أخيه حسن الأكبر سناً، وكان ذلك في سنة (528هـ/1133م)، وقال فيها ابن ميسر: "**في شعبان كانت حرب بين أبي تراب حيدرة ابن الخليفة الحافظ، وبين أخيه حسن طالت وأشتدت ، فافترق لذلك العسكر فرقتين: فرقة مع أبي تراب وفرقة مع حسن، وهما الريحانية والجيوشية، فكانت بينهم حروب بين القصرين قتل فيها من الطائفتين نحو عشرة آلاف نفس**"[1]، ومن تلك الأحداث وتفاقم الصراع على ولاية العهد الذي أوصل البلاد إلى حالة الاقتتال وتمسك الفاطميين بعقيدة الإمامة وقدسيتها زاد في ظاهرة الانقسام العقديّ وخير مثال خروج اليمن عن طاعة الخلفاء الفاطميين في مصر وذكر الداعي إدريس(872هـ/1467م) ذلك في قوله: "**وفي ذلك حجج للدعاة باليمن واضحة البراهين، مثبتة لجريان الإمامة في العقب الطاهر بأبين التبيين، وكونها جارية في عقب الإمام الطيب أبي القاسم أمير المؤمنين، تشهد بها الأنفس والآفاق، وتقوم بها دلالات الحق على ساق ولا يبعد الله إلّا الظالمين، ويجعل العاقبة للمتقين، وقد انقطعت دعوة عبد المجيد اليوم، في جزيرة اليمن، ولم يبقى من يقول بها في سر ولا علن**"[2]، وبخروج اليمن عن طاعة الدولة الفاطمية إشارة إلى أزمة كبرى في السياسة والعقيدة لما تمثله أرض اليمن والدعوة الإسماعيلية فيها من مكانة في جذورالتاريخ السياسي والعقائدي للدولة الفاطمية .

وبيّن الطرطوشي مجموعة من هفوات السياسة التي تضيع الملك وذلك في قوله: "**وقيل لملك بعد ذهاب ملكه: ما الذي أذهب ملككم؟ قال: ثقتي**

(1) أخبار مصر، ص119 .

(2) عيون الأخبار، السبع السابع، ص272 .

**بدولتي، واستبدادي بمعرفتي، وإغفالي استشارتي، وإعجابي بشدتي، وإضاعتي الحيلة في وقت حاجتي، والتأني عند عجلتي"[1] .**

**ثانياً: نفوذ النساء في البلاط الفاطمي**

كان للنساء دور كبير في تاريخ الدولة الفاطمية، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، متأثراً بقوة الخليفة وضعفه والوضع العام للبلاد، ومن النساء تغريد أمّ العزيز بالله[2] وكانت تلقب بأم الأمراء التي كان لها نفوذ سياسي ونشاط تجاري وعمراني في حكم خليفتين هما زوجها المعز لدين الله وابنها العزيز الذي قرب النصارى كونها نصرانية[3] .

وهنا نخص بالدراسة تدخلات النساء التي كان لها أثر في تدهور الأوضاع في الدولة الفاطمية وترسيخ عوامل الضعف والانهيار، وأنزل الطرطوشي تدخل النساء من المهلكات وذلك في قوله: **"ثلاثة لا يسلم عليها إلّا القليل: صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم على التجربة"[4]**، ويظهر من كلامه وبذلك أن تسليم أسرار الدولة للنساء فيه مخاطر كبرى على مستقبل الدولة الفاطمية .

ومن النساء ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله وهي الأخت من الأب للخليفة الحاكم بأمر الله من زوجة نصرانية وكان لها نفوذ وسطوة في حكم

---

(1) سراج الملوك، ص229 .

(2) السيدة المعزية هي أم ولد من أصل عربي، زوجة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وأم الخليفة العزيز، ولقبت بأم الأمراء، نالت مكانة رفيعة وكان المعز يستشيرها في شؤون الدولة كما امتلكت نشاطا تجاريا واسعا بين المغرب ومصر ،وشيدت جامع القرافة الضخم سنة 366هـ ، ومنتجع منازل العز... توفيت سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥م. المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج4/ص 125 .

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1/ص100 ؛ المواعظ والاعتبار، ج426/2 ، 429 .

(4) سراج الملوك، ص480 .

ثلاث خلفاء فاطميين هم العزيز بالله الذي بيّن مكانتها ونفوذها السياسي ابن القلانسي وذلك في حادثة عزل الوزير النصراني عيسى بن نسطورس ومعاقبته وذلك في قوله: "**ثم أنّ عيسى طرح نفسه على ست الملك بنت العزيز وكان يحبها حبّاً شديداً ولا يرد لها قولاً واستشفع بها في الصفح عنه وتجديد الاصطناع له وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار وكتب إلى العزيز رقعةً يذكر فيها بخدمته وحرمته ورضي عنه وأعاده إلى ما كان عليه**"[1]، وهنا في هذه الحادثة دلالة على قوة ونفوذ ست الملك وتدخلها في سياسات وإدارة الدولة الفاطمية في زمن أبيها العزيز بالله وكذلك ذكر الأنطاكي(ت458هـ/1066م) أنّ العزيز عيّن أخوال ست الملك، إكراماً لها، كل من أريستس بطريركا على بيت المقدس واستمر إلى وفاته بعد عشرين عام وأخيه أرسانيوس عين مطراناً على كل من القاهرة ومصر[2] .

وفي خلافة أخيها الحاكم بأمر الله التي حملت كثيراً من التناقضات والتكهنات، فقد تولى الخلافة وعمره أحد عشر عاماً وخمسة أشهر[3]، ودخل المغاربة على الخليفة وألزموه بتعيين شيخهم الحسن بن عمار الكتامي لتدبير أمور البلاد، وكنّاه بأمين الدولة في سنة (386هـ/995م) وقام برفع جميع المكوس الزائدة جميعها التي أقرها عيسى بن نسطورس، وقبض عليه وقتله في شهر صفر من سنة ( 387هـ/996م)[4]، ولم يستمر ابن عمار في إدارة البلاد بل اعتزل في داره في تلك السنة إلى أن اغتيل في سنة (390هـ/999م)، ثم آلت الأمور إلى برجوان الخادم الذي كان معلماً وربيباً

(1) تاريخ دمشق، ص57 .

(2) تاريخ ، ص203 .

(3) الأنطاكي، تاريخ، ص237 .

(4) الأنطاكي، تاريخ، ص237 . 238 ؛ ابن الصيرفي، الإشارة، ص26 .

للخليفة الحاكم وهو ثقة والده العزيز وعهد إليه أمر الحرم والقصور، ودخل في خصام مع ست الملك إلى أن وصل الأمر به إلى القبض عليها وإرسالها إلى قصرها في القاهرة بعد اتهامه لها بالسعي إلى صرف الحكم عن أخيها الحاكم إلى ابن عمّها عبد الله [1] ، لذلك تآمرت من أجل إزالة برجوان من طريقها وتم اغتياله من قبل الحاكم بعد أن بلغ سن الرشد في القصر سنة (390هـ/999م)[2]، ومع ذلك كان لست الملك تأثير كبير على الحاكم بسبب حبّه لها حتى قال فيها ابن القلانسي: "**وكان يشاورها في الأمور ويعمل برأيها ولا يخالف مشورةً لها**"[3].

وبيّن الطرطوشي أهمية المشورة للوصول إلى صواب الرأي وذلك في قوله: "**إنفاذ الملك الأمور بغير روية كالعبادة بغير نية، ولم تزل العقلاء على اختلاف آرائهم يشهدون العيوب، ويستشيرون صواب الرأي من كل أحد حتى الأمة الوكعاء**"[4]، والمشورة هنا تعني الاستفادة من عقول الآخرين لتشخيص العيوب والخلل، والوصول إلى أصوب الآراء للعمل به، أمّا طاعة الحاكم لمشورة ست الملك تعني التسليم لنفوذها وسطوتها .

والظاهر أنّ تلك الطاعة لست الملك من قبل أخيها الحاكم لم تستمر طويلاً، إذ سرعان ما دبّ بينهما الخلاف وكانت غير راضية عن سلوك أخيها وهي تقول له: "**يا أخي، احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك**"[5]، وكذلك هو كان يتهمها في تصرفاتها وقال لها: "**فكان يسمعها**

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص74 .
(2) الأنطاكي، تاريخ، ص240 ؛ ابن الصيرفي، الإشارة، ص27 . 28 .
(3) تاريخ دمشق، ص97 .
(4) سراج الملوك، ص321 .
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4/ص185 .

**غليظ الكلام ويتهدّدها بالقتل. وبعث إليها يقول: رفع إلي أصحاب الأخبار أنّك تدخلين الرجال إليك وتمكّنينهم من نفسك"**[1]، والظاهر من الاتهام أنّه كان راغباً في الحدّ من تدخلاتها في شؤون البلاد، لأننّا لم نجد ما دلّ على سوء أخلاقها في بدايات شبابها، وأنّ هذا التشهير صدر على لسان الحاكم، ولم يكن شائعاً عند غيره .

أمّا اتهام الأمير سيف الدين ابن دواس[2] بقتل الحاكم فهو الأقرب لوجود مبررات القيام بذلك حفاظاً على نفسه ونفوذه من سطوة الحاكم وإسرافه في قتل من ثبت عليهم ارتكاب الأخطاء في دولته[3]، لذلك بادرت ست الملك إلى تدبير ظروف قتله في أثناء إعلان خلافة الظاهر لدين الله لأبيه، للأخذ بثأر الخليفة المقتول، ولحماية الخليفة الجديد من خطر ابن دواس ونفوذه[4] .

وبعد مقتل الحاكم والقضاء على الأمير سيف الدين زاد نفوذ ست الملك وأصبحت هي الحاكم الفعلي للدولة الفاطمية وذلك في قولهم: **"وولي الخلافة بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله، أبو الحسن علي بن منصور الحاكم بأمر الله، وبويع له بالخلافة. في اليوم السابع من قتل الحاكم،**

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4/ص185 .

(2) حسين بن عليّ بن دوّاس، الكتاميّ، يلقّب سيف الدين، كان من شيوخ كتامة، ومن كبار القواد في ذلك العهد. خدم الخليفة العزيز بالله، واستمر على تقدّمه في أيام الحاكم، إلى أن تغير عليه وعلى غيره ورآه يكثر من زيارة أخته (ست الملك) وتوعدها بالقتل إن زارها أحد، فراسلته حتّى اجتمعت به واتّفقا على قتل الحاكم، وإقامة ابنه في الخلافة موضعه، وأن يكون ابن دوّاس صاحب الجيش وشيخ الدولة القائم بها، وبعدها قتل بتدبير من ست الملك في سنة(411هـ/1020م).المقريزي، المقفى، ج3/ص316. 318؛ الزركلي، الأعلام، ج2/ص237

(3) الذهبي، سير أعلام ، ج11/ص438 .

(4) ابن الأثير، الكامل ، ج7/ص663 .

**وهو إذ ذاك صبي وكتبت الكتب إلى بلاد مصر والشام بأخذ البيعة له، وجمعت عمته أخت الحاكم، واسمها ست الملك، الناس، ووعدتهم وأحسنت إليهم ورتبت الأمور وباشرت تدبير الملك بنفسها، وقويت هيبتها عند الناس، وعاشت بعد قتل الحاكم أربع سنين وماتت"**[1]، وفي ذلك النص بيان بأنّ ست الملك هي الحاكم الفعلي للبلاد وجميع مقاليد الأمور بيدها، وكانت وصية على ابن أخيها الخليفة إلى أن يقوى على إدارة الحكم، وسعت الى عقد معاهدة مع الدولة البيزنطية لإصلاح ما فسدت بين الدولتين في أيام الحاكم بأمر الله[2].

وذكر الطرطوشي قول النبي (ﷺ) بعد موت كسرى وتولية ابنته بوران **"لمّا مات كسرى بلغ موته النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من استخلفوا بعده؟ قالوا: ابنته بوران. قال: لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة"**[3] .

ومن النساء أصحاب النفوذ والسطوة السيدة رصد[4] أمّ المستنصر التي ساعدتها أحوال الحكم على الظهور كالمراءة القوية للتدخل في إدارة البلاد منها تسمية ولدها المستنصر لولاية العهد وهو ابن ثمانية أشهر[5]، وأعلنت البيعة له بالخلافة وهو ابن سبع سنين وشهرين، وبذلك أصبحت أمّه هي الوصية عليه[6]، وبدأ في أيامه ضعف الدولة وتدهور الأوضاع في

(1) أبو الفداء، المختصر، ج2/ص151 .
(2) ينظر: عسكر، العلاقات البيزنطية الفاطمية، ص167 - 168 .
(3) سراج الملوك، ص552 .
(4) والدة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، كانت من ربات النفوذ والسلطان متغلبة في أمور الدولة الفاطمية ، إذ أنها كانت تصطنع الوزراء وتوليهم، ومن ثم عند استيحاشها منهم تحرض الخليفة عليهم للتخلص منهم ،ابن خلدون ،تاريخ ، ج4/ ص 80 ؛كحالة ،اعلام النساء ،ج5/ص 53-54.
(5) المقريزي، لتعاظ الحنفا، ج2/ص179 .
(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص135 .

الداخل والخارج وعبّر ابن القلانسي عن ذلك العصر في قوله: "**وفي أيامه ثارت الفتن من بني حمدان وأكابر القواد ووجوه العسكرية والأجناد وغليت الأسعار وقلت الأقوات واضطربت الأحوال واختلت الأعمال وحصر في قصره وطمح في خلعه لضعف أمره**"[1] .

ونقل الطرطوشي عن الإسكندر قوله: "**وقيل للإسكندر: لو أكثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحيا ذكرك. فقال: إنما يحيي الذكر الأفعال الجميلة والسيرة الحميدة، ولا يحسن بمن يغلب الرجال أن تغلبه النساء**"[2]، وهنا نرجح أشاره الاسكندر لسلبيات تدخل النساء في السياسة .

وظهرت أمّ المستنصر متحكمة في تصريف الأمور وتحملت وزراً كبيرة من الفوضى التي عمت البلاد وضعف الخلافة في ذلك العصر والتي قال في تدبيرها ابن خلدون(808هـ/1406م): "**كانت أمّ المستنصر متغلّبة على دولته وكانت تصطنع الوزراء وتولّيهم، وكانوا يتخذون الموالي من الأتراك للتغلّب على الدولة. فمن استوحشت منه أغرت به المستنصر فقتله**"[3]، وامتازت تلك المدة بكثرة التعيينات و العزل للوزراء وبالخصوص بعد موت الوزير الجرجرائي[4] الذي كان وزيراً للخليفة الظاهر منذ سنة (418هـ/1027م) واستمر في خلافة المستنصر بالله وطغت شخصيته على

(1) تاريخ دمشق، ص135 .
(2) سراج الملوك، ص219 .
(3) تاريخ، ج4/ ص80 .
(4) الوزير نجيب الدولة ابو القاسم علي بن احمد الجرجرائي عراقي الاصل ولقبه الجرجرائي نسبة إلى قرية جرجرايا بسواد العراق ، تولى ديوان الانشاء للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1020م) الذي أمر بقطع يديه ، الا أنه استمر في خدمة الدولة الفاطمية ، فولّاه الظاهر لأعزاز دين الله (411-427هـ/1020-1035م) الوزارة في سنة (418هـ/1027م) . وعندما تولّى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في سنة (427هـ/1035م) بسط الجرجرائي نفوذه على الدولة ، وتوفي في سنة (436هـ/1044م). ابن الصيرفي ، الأشارة، ص 36-37 ؛ المناوي ، الوزارة ، ص253-254 .

إدارة الدولة حتى وفاته سنة (436هـ/1044م)[1]، وبعدها أخذ نفوذ أمّ المستنصر بالظهور وبدأ صاحب ديوانها أبو سعيد التستري اليهودي[2]، يزداد في إدارة شؤون البلاد وأشار عليها بتولية الوزارة إلى أبي منصور الفلاحي[3] والذي كان شكلياً وذلك ما بيّنه المقريزي(845هـ/1441م) في قوله: " **فلمّا مات الجرجرائي وتولى الفلاحي انبسطت كلمة أبي سعيد في الدولة، بحيث لم يبق للفلاحي معه في الوزارة أمر ولا نهي، سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ لا غير، وأبو سعيد يتولى ديوان أمّ الخليفة المستنصر**"[4] .

وبيّن الطرطوشي عيوب الشراكة في القرار من قبل أكثر من شخص في نقله قول ابن عباس(رض)(ت 68هـ/687م) في قوله: "**وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما كانت فتنة الحرة من استعمل القوم؟ قالوا: عبيد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة الراهب على الأنصار قال: أميران؟ هلك والله القوم**"[5]، لذلك لم تستمر الشراكة في القرار بين التستري والفلاحي ودبر الأخير حادثة شغب الجنود وقاموا بقتل التستري، إلّا

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج29/ص329 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص266 .

(2) أبو سعيد التستري اليهودي الأصل، تولى الديوان الخاص لأم الخليفة المستنصر بالله (رصد)، وكان له نفوذه وانبسطت كلمته ،مما أدى إلى حقد الفلاحي عليه ،توفي سنة ٤٣٩هـ/1047م .. ابن ميسر ،المنتقى ،ج2/ ص 4 ؛ الصيرفي، الإشارة، ص 31.

(3) الفلاحي: أبو يوسف، وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يهودي الأصل.، اسلم فيما بعد استوزره المستنصر سنة 436هـ ،برع في ضروب الكتابة ولي نظر الشام ،ثم قدم مصر إلى القاهرة وتولى الوزارة بعد وفاة الجرجرائي الذي أشار في مرضه بان يستوزره المستنصر من بعده ، دفع الجند وحرضهم مع فتنة أبي سعيد التستري سنة 439هـ/1047م . بعد أن بسط كلمته مما اثار غضب السيدة رصد أم المستنصر، فحرمته من الوزارة ،واعتقلته في خزانة القصر وثم قتلته سنة 440هـ/1948م . المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2/ص184 .

(4) اتعاظ الحنفا، ج2/ص195 .

(5) سراج الملوك، ص552 .

أنّ أمّ المستنصر ساءها ذلك الفعل، فدبرت أمر عزله من الوزارة، ومن ثم اعتقاله وقتله[1]، واستمر تدخل السيدة رصد في إدارة الدولة وأصبحت ظاهرة عانى منها تاريخ الدولة الفاطمية وقال فيها ابن الأثير: "**كان أول ذلك انحلال أمر الخلافة, وفساد أحوال المستنصر بالله العلوي, صاحبها, وسببه أن والدته كانت غالبه على أمره**"[2] .

ومن النساء ست القصور عمّت الخليفة الفائز التي كان لها دور كبير في عصر تراجع الدولة الفاطمية وانهيارها ، فبعد مقتل الخليفة الظافر سنة (549هـ/1154م) من قبل نصر بن عباس[3]، واستدعت ست الملك الصالح بن رزيك[4]، الذي دخل إلى مصر وسيطر عليها من دون قتال، ووصل إلى دار نصر بن عباس بعد أن هرب منها نحو الشام[5]، وبعدها عملت على ترتيب قتله، وذلك ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) في قوله:

---

(1) اتعاظ الحنفا، ج2/ص196 .

(2) الكامل , ج 8/ص 237 .

(3) نصر بن عباس: نصر بن عباس بن أبي الفتوح الصنهاجي، ربيب الوزير الفاطمي العادل بن سلار ،نشأ في كنف اسرة صنهاجية نافذة في مصر ،جمعته بالخليفة الفاطمي الظافر بامر الله علاقة وثيقة وتأثير متبادل ، وتحولت إلى أداة سياسية بعد اقناع والده الوزير عباس الصنهاجي له باغتيال الخليفة الفاطمي سنة 549هـ/1154م ،وانتهت مسيرته تاريخيا بنهاية مأساوية ،اثر فراره نحو الشام ووقوعه في اسر الصليبيين الذين سلموه للسلطان الفاطمي بالقاهرة لينفذ فيه حكم الإعدام وصلبت جثته علنا في باب زويلة سنة 551هـ . النويري، نهاية الارب ،ج28/ص 316؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ،ج6/ص369؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ،ج5/ ص 310 .

(4) أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح، كان والياً على أعمال الصعيد واستنجد به أهل القصر بعد مقتل الخليفة الظافر، فتمكن من البلاد وسيطر على أوضاعها ،تولى الوزارة سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م، وتوفي سنة ٥٥٦ هـ/1155م . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج2/ ص 526 .

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16/ص369 ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5/ص310 .

**"لمّا ثقلت وطأته وكثرت مضايقته لأهل القصر، أخذت السيدة العمة ست القصور، وهي أخت الظافر الصغرى، في العمل على قتله"**[1]،وتم لها ذلك، وعاتب الخليفة العاضد (٥٦٧ هـ / ١١٧١م) وهو جريح على إقدامه على قتله وذلك في قوله: **"وبعث إلى العاضد يعتب عليه كيف رضي بقتله مع حسن أثره في إقامته خليفة؛ فأقسم أنه لم يعلم بذلك ولا رضى به"**[2] .

وذكر الطرطوشي تلك السياسة التي استنكرها الإمام علي (عليه السلام) بعد أن أشاروا عليه بها أن يستخدمها مع معاوية وذلك في قولهم: **"وهكذا أشاروا عليه فقالوا: يا أمير المؤمنين لو فضلت هؤلاء الأشراف ومن يتخوف منهم، وإنّما الناس أصحاب دنيا حتى إذا استوثق الأمر عدت إلى التسوية. فقال: أتأمروني أن أطلب العدل بالجور فيمن وليت عليه"**[3] .

وكانت قد راسلت الفرنج من أجل المساعدة في قتل نصر بن عباس الذي هرب إلى الشام عند دخول الصالح بن رزيك إلى القاهرة في سنة(550هـ/1155م)، وذلك في قولهم: **"وجَهَّزَتْ أُخْت الظَّافر رَسُوْلاً إلى الْفِرِنْج بِعَسْقَلَان، وَبَذَلَتْ لَهُم مَالاً، عَظِيْماً إن أَسرُوا لَهَا عباساً وَابْنَه، فَخرجُوا عَلَيْهِ، فَالْتَقَاهُمْ، فَقُتِلَ فِي الوقعَةِ، وَأُخِذَتْ خَزَائِنُهُ، وَأَسرُوا ابْنَه نَصْراً، وَبعثُوهُ إِلَيْهَا فِي قَفَص حَدِيد، فَلَمَّا وَصَلَ، قَبَضَ رَسُوْلهُم المَالَ، وَذَلِكَ فِي رَبِيْعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسِيْنَ"**[4]، وذلك أسوء ما وصلت إليه السياسة بقيام النساء بعقد المعاهدات والمواثيق التي تفسح المجال للأعداء في التحكم والتدخل في السياسات الداخلية للدولة الفاطمية .

---

(1) اتعاظ الحنفا، ج3/ص246 .

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3/ص248 .

(3) سراج الملوك، ص554 . 555 .

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15/ ص206 . 207 .

**ثالثا: الصراع بين طوائف الجيش الفاطمي**

بيّن الطرطوشي أهمية الجيش وذلك في قوله: "**اعلم أنّ الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده، وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة، والدافعون عن العورة وهم جنن الثغور وحراس الأبواب، والعدة للحوادث وإمداد المسلمين، والحد الذي يلقى العدو والسهم الذي يرمى به، والسلاح المدفوع في نحره، فبهم يذب عن الحريم وتؤمن السبل وتسد الثغور، وهم عز الأرض وحماة الثغور والذادة عن الحريم والشوكة على العدو**"[1] .

ظهرت البذرة الأولى للصراع بين مكونات الجيش الفاطمي منذ الدخول إلى مصر بقيادة جوهر، إذ سمي الجيش بالمغاربة، تمييزاً له عن أهل مصر، إذ مثل الانتماء الخارجي لذلك الجيش، واختلاف أطباع أفراده عن السكان الأصليين لأرض مصر، إضافة إلى ذلك حدوث تجاوزات من قبل الجند على أهل البلد منها حالات سلب ونهب وهتك حرمات[2] لذلك قام المعز بتحديد مناطق خاصة لسكن المغاربة مثل حارة زويلة وبرقة وحارة كتامة، وكذلك باب زويلة[3] .

وفي خلافة العزيز بأمر الله استكثر من جلب الغلمان الأتراك والديلم حتى نسبوا إليه ودخلوا في تنافس مع المغاربة وبالأخص كتامة وقيل في ذلك: "**فلمّا كان في أيّام ولده العزيز بالله نزار اصطنع الدّيلم والأتراك، وقدّمهم وجعلهم خاصّته، فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد إلى أن**

(1) سراج الملوك، ص472 .

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص4 .

(3) عبد الواحد المراكشي، أخبار المغرب، ص251 . 252 ؛ الدوإداري، كنز الدرر، ج6/ ص140.

**مات العزيز بالله"[1]**، وذلك التنافس والصراع أخذ بالتصعيد حقبة بعد أخرى إلى أن أصبح عاملاً فاعلاً في ضعف الدولة الفاطمية وانحدارها نحو الإنهيار .

وفي زمن الحاكم بأمر الله كان هناك منافسة وقتال بين المغاربة والموالي وذلك في قولهم: "**كان الحسن بن عمّار زعيم كتامة مدبّر دولته كما ذكرناه، وكان برجوان خادمه وكافله، وكان بين الموالي والكتاميين في الدولة منافسة. وكان كثيرا ما يفضي إلى القتال، واقتتلوا سنة سبع وثمانين، وأركب المغاربة ابن عمّار والموالي برجوان، وكانت بينهم حروب شديدة"[2]**، وبعدها تغيير الحاكم على الكتاميين وقام بقتل ابن عمار والكثير من رجال كتامة ممّا أدى إلى تراجع مكانتهم ونفوذهم مقابل طائفة الغلمان والموالي[3] .

وذكر الطرطوشي أنّ على الملك مراقبة جنوده لتشخيص مواطن القوة والضعف وسدّ حاجات الجند ومكافئة المجد ومعاقبة المقصر وذلك في قوله: "**وينبغي للملك أن يتفقد جنده كتفقد صاحب البستان بستانه، فيقلع العشب الذي لا ينفعه، فمن العشب ما لا ينفع ومع ذلك يضر بالنبات النافع فهو بالقلع أجدر. ولا يستصلح الجند إلّا بإدرار أرزاقهم وسدّ حاجاتهم، والمكافأة لهم على قدر عنائهم وبلائهم. وجنود الملوك وعددها وقف على سعود الأئمة ونحوسها"[4]**، وبذلك حدد الضرر الأكبر لكيان الدولة في حال ترك الإصلاح في مؤسسة الجيش وبقاء العناصر الفاسدة

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3/ص22 .
(2) ابن خلدون، تاريخ، ج4/ص75 .
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3/ص23 .
(4) سراج الملوك، ص493 .

والفاشلة في مواقعها ما يلحق ضرراً في بقية الأفراد والمواقع ولابد من مكافئة الجند على قدر استحقاقهم ليكون دافعاً لهم للارتقاء عندما يشعرون بأنّ حقوقهم مصانة والأجر على قدر العطاء .

واستمرت سياسات تفضيل طائفة على أخرى من قبل الخلفاء ممّا زاد في حجم الصراعات، وبدأ سوء الأحوال يتفشى في البلاد والتراجع في مواجهة الأزمات بسبب ضعف قوة الدولة وأدواتها، وبيّن المقريزي(845هـ/1441م) ذلك في قوله: "**وقام من بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله علي، أكثر من اللهو ومال إلى الأتراك والمشارقة، فانحطّ جانب كتامة، وما زال ينقص قدرهم ويتلاشى أمرهم حتّى ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر، فاستكثرت أمّه من العبيد حتّى يقال إنهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود، واستكثر هو من الأتراك، وتنافس كلّ منهما مع الآخر فكانت الحرب التي آلت إلى خراب مصر وزوال بهجتها**"[1]، وبدأت تظهر مكونات جديدة على ساحة الصراع، أو أقليات زاد عددها وعظمت قوتها وتعدادها، بسبب تلقيها دعماً من قوى متنفذة مثل أمهات الخلفاء، أو الخليفة نفسه في سعيه لمعالجة ميزان القوى وكفة الصراع، وتلك السياسات لا تجلب حلولاً استراتيجية، وإنّما حلولاً مؤقته لتغيير نفوذ أحد أطراف الصراع على حساب الآخر، فاقم ذلك الصراع وسمح بصعود قوى جديدة، كانت أخطر على مستقبل البلاد من التي سبقتها.

عانت الدولة الفاطمية في خلافة المستنصر بمرحلة فوضى سياسية وإدارية واجتماعية وأزمات اقتصادية وبالأخص بعد مقتل الوزير اليازوري (450هـ/1058م)، وذلك ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) في قوله:

(1) المواعظ والاعتبار، ج3/ص23 .

**"فلما قتل الوزير أبو محمد لم ترى الدولة صلاحاً، ولا استقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها، ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته، ولا يرضى تدبيره، وكثرت السعاية فيها، فما هو إلا أن يستخدم الوزير حتى يجعلوه سوقهم ويوقعوا به الظن، حتى ينصرف ولم تطل مدته، وخالط السلطان الناس، وداخلوه بكثرة المكاتبة، فكان لا ينكر على أحد مكاتبته، فتقدم منه سفساف، وحظى عنده عدة أوغاد، وكثروا ... حتى أنه كان يصل إلى السلطان في كل يوم ثمانمائة رقعة، فتشبهت عليه الأمور، وانتقضت الأحوال، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة، وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم ... فخربت أعمال الدولة، وقل ارتفاعها، وتغلب الرجال على معظمها"[1] .**

وذكر الطرطوشي قبح السعاية لدى السلطان وبيّن مضارها على الدولة وآثارها في تشتيت فكر الحاكم، وروي عن أحد الحكماء قوله: **"إياك والسعاة فإنهم أعداء عقلك ولصوص عدلك فيفرقون بين قولك وفعلك"[2].**

وما زاد الأحوال سوءاً تعرض البلاد إلى أزمة خانقة لمدة سبع سنين ابتداء من سنة (٤٥٧ هـ/١٠٦٤م) ،وكان أسبابها قصور نهر النيل وارتفاع الأسعار الفاحش، إضافة إلى ضعف الخلافة، وسيطرة أمراء الجيش على الدولة وتوالي الفتن والصراعات[3]، وذكر المقريزي(845هـ/1441م) ما حلّ بالدولة من تنازع طوائف الجيش، وتقاسم مواقعهم في البلاد وكان ذلك في قوله: ""**لم يكن هذا الغلاء عن قصور مد النيل فقط وإنما كان من اختلاف**

(1) إغاثة الأمة، ص96 . 97 .

(2) سراج الملوك، 618 . 619 .

(3) المقريزي، إغاثة الأمة، ص98 .

**الكلمة ومحاربة الأجناد بعضهم مع بعض، وكان الجند عدة طوائف مختلفة الأجناس , فتغلبت لواته والمغاربة على الوجه البحري, وتغلب العبيد السودان على أرض الصعيد, وتغلب الملثمة والأتراك بمصر والقاهرة وتحاربوا، وكان قد حصل ذلك من بعد قتل اليازوري في سنة خمسين كما تقدم فما زالت أمور الدولة تضطرب وأحوالها تختل, ورسومها تتغير, من سنة خمسين إلى سنة سبع وخمسين, فابتدأت الشدة منها تتزايد إلى سنتي ستين وإحدى وستين فتفاقم الأمر وعظم الخطب واشتد البلاء والكرب وما برح المصاب يعظم إلى سنة ست وستين وكان أشدها مده سبع سنين, من سنة تسع وخمسين إلى سنة أربع وستين أخصبت كل شر, وهلك فيها معظم أهل الإقليم"**[1].

وذكر الطرطوشي لجوء السلطان إلى الوزير هو الشريك في الرأي والعون عند الشدائد وذلك في قوله: "**الوزير عون على الأمور، وشريك في التدبير، وظهير على السياسة، ومفزع عند النازلة**"[2].

ولم يكن أمام المستنصر إلّا الطلب من بدر الجمالي الحضور لإنقاذ ما بقي من الدولة معتمداً على مكون جديد هم الأرمن، واشترط بدر الجمالي على الخليفة أنّه لا يأتي إلّا وجميع جيشه معه، وطلب أن يوافقه على أن لا يبقي أحداً من جيش مصر، فوافق المستنصر بالله على شروطه[3]، وبذلك سمح المستنصر للدخول إلى مصر وإعلان الحرب على الجيش المصري وذلك أسوء ما يصل إليه بلد وقيل في دخوله: "**دخل أمير الجيوش بدر عشية يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادي الأولى فما لبث أن سير كل**

(1) اتعاظ الحنفا ،ج2/ص300 .

(2) سراج الملوك، ص288 . 289 .

(3) المقريزي، المقفى، ج2/ص228 .

**أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة ليلاً وأمره أن يأتيه برأسه، فأصبح وقد حضره من رؤوس أمراء الدولة شيء كثير, وقبض على الأتراك فقويت شوكته وعظم أمره وتتبع المفسدين فلم يبق أحد منهم بمصر والقاهرة حتى قتله"**[1] .

وبذلك استطاع بدر الدين الجمالي من الدخول إلى القاهرة سنة (466هـ/1074م) والقضاء على إلدكز قائد الأتراك، والوزير ابن كدينة، والوزير أبي شجاع محمد بن الأشرف [2]وبذلك طويت صفحة من استغلال القوة والنفوذ والمكون في التجاوز على صلاحيات الخليفة وإضعاف مركزية الحكم، وبدأ عصر جديد وقوى جديدة سارت على المنهاج نفسه ووصلت إلى نتائج مشابهه، وذلك ما ذكره المقريزي(845هـ/1441م) في قوله: **"ولما قدم أمير الجيوش من عكا صار وزير السيف والقلم، وولي القضاء أيضا، وزيد في ألقابه كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين. ثم لما مات وزر من بعده ابنه الأفضل"**[3]، وبذلك ظهرت الأسرة الجمالية واستمرت الخلافة الفاطمية تحت نفوذ تلك الأسرة وقيل في ذلك: **""ولى مملكة مصر بعد موت أبيه بدر الجمالي في أيام المستعلى إلى أن مات المستعلى فأقام الأفضل هذا ولده مكانه في الخلافة ولقبه بالآمر ودبر دولته وحجر عليه, وكان الخليفة المستنصر جد الآمر هذا وولده المستعلى والد الآمر كلاهما أيضا تحت حجر بدر الجمالي والد الأفضل هذا فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر**

(1) ابن ميسر , أخبار مصر , ص 40 .

(2) ابن الأثير، الكامل، ج8/ص244 ؛ النويري، نهاية الأرب، ج28/ص242 .

(3) اتعاظ الحنفا، ج2/ص334 .

**والتضييق عليهم وزاد الأفضل هذا في حق الآمر حتى انه منعه من شهواته, وأراد قتله بالسم"**[1] .

وحكمت الأسرة الجمالية بدءاً من بدر الجمالي(466 ـــ 487هـ/1074 ـــ 1094م)[2]، وجاء بعده ابنه الأفضل شاهنشاه(487 ـــ 515هـ/1074 ـــ 1121م)[3]، ومن ثم عاد أحمد بن الأفضل(524 ـــ 526هـ/1129 ـــ 1131م)[4] إلى الوزارة وبذلك تكون الأسرة الجمالية قد حكمت أكثر من خمسين عام .

وكان آخر من استلم الوزارة من الأسرة الجمالية قال فيه ابن تغري بردي(ت 874هـ/1469م): **"فاستمرّ الحافظ في الخلافة تحت الحجر، وصار الأمر كلّه للوزير؛ فضيّق على الحافظ وحجر عليه ومنعه من الظهور وأودعه في خزانة لا يدخل إليه أحد إلّا بأمر الأكمل (أعني الوزير المذكور) فإنّه كان لقّب بالأكمل في أيام وزارته. وطلع الوزير إلى القصر وأخذ جميع ما فيه، وقال: هذا كله مال أبي وجدّي؛ ثم أهمل خلفاء بني عبيد والدعاء لهم"**[5].

وذكر الطرطوشي بيت شعر فيه حكمة قال فيه: **"وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب"** [6].

---

(1) ابن تغري بردي , النجوم الزاهرة , ج 5 / 222 .

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص210 ؛ ابن الأثير، الكامل، ج8/ص243 .

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص210 . 211 ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5/ص221 . 222 .

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص363 ؛ أبو الفداء، المختصر، ج3/ص4 .

(5) النجوم الزاهرة، ج5/ص239 .

(6) سراج الملوك، ص211 .

وقال الطرطوشي أيضاً: **"تهلك العامة بعمل الخاصة، ولا تهلك الخاصة بعمل العامة، والخاصة هم الولاة"**[1].

أسس بدر الدين قوة الوزارة والسلطة للوزراء أرباب السيوف واستمر ذلك إلى نهاية الدولة الفاطمية، بمعنى كانت للوزير السلطة والنفوذ، وأطلق يده في الحكم وأصبح هو الحاكم الفعلي للبلاد وتصدر شؤون الدولة الإدارية والعسكرية والدينية، وأصبح منصب الخلافة شكلياً، وبالرغم من سيادة الأمن والنظام أغلب الأحيان، إلّا أنّه كان على حساب سلطة الخليفة الفاطمي ونفوذه .

وبعد مقتل الوزير أحمد بن الأفضل في سنة (526هـ/1131م) غاب الدور السياسي للأسرة الجمالية واستمر دور طائفة الأرمن التي ينتمي لها الوزير الجديد الذي دبر مؤامرة اغتيال الأفضل وهو يانس الأرمني[2] الذي عيّن وزيراً من قبل الخليفة الحافظ ولقب بأبي الفتح صاحب الباب الذي استمر في سياسة الإقصاء والصراع الداخلي وقام بقتل ثلاثمائة من صبيان الخاص [3] واستهدف بعض من خاصة الخليفة ومنهم القاضي أبو الفخر صالح بن عبدالله، والداعي أبو الفتوح بن قادوس لذلك وجد الخليفة الحافظ

---

(1) سراج الملوك، ص189 .

(2)هو أحد غلمان الأفضل وقد واصل الارتقاء في المناصب حتى وصل إلى مرتبة صاحب الباب والتي تعادل الوزارة خلال تلك الفترة تنسب اليه احدى فرق الجند المعروفة باليانسية . ابن الميسر ، أخبار مصر ، ص117 –118؛ المقريزي ، المواعظ والإعتبار،ج2/ص 16 – 17، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ،ج5/ص 240.

(3) وهي طائفة كانت تعرف بصبيان الخاص أن من مات من الأمراء والأجناد وعبيد الدولة وله ولد فأنه يحمل إلى حضرة الخليفة ويودع في أماكن مخصوصة ويؤخذ في تعليمه أنواع الفروسية من الرمي وغيره . ابن خلدون ، تاريخ ،ج4/ص96 ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ،ج3/ص199.

نفسه أمام خطر جديد يستدعي تدبير أمر الخلاص منه ونفذ عملية قتله من خلال سقيه السم [1], وبعد مقتل يانس الأرمني ظل منصب الوزارة شاغراً تخوفاً من استمرار استبداد الوزراء وفي سنة (528هـ/1133م) أسندت الوزارة إلى ولده الأكبر سليمان ، ولم يستمر بها سوى شهرين بسبب موته وتجاوز الخليفة ولده حسن، وانتقل إلى تكليف ولده الأصغر حيدرة[2]، ممّا أدخل البلاد في صراع جديد بين الإخوة، فضلاً عن حدوث تداعيات ذلك إلى قتال داخلي، وذلك في قولهم: "**سعى في نقض ذلك بان أوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشيه[3] والطائفة الريحانية[4], وكانت الريحانية قوية الشوكة مهابة مخوفة الجانب, فاشتعلت نيران الحرب بين القوتين وصاح الجند يا حسن يا منصور, يا للحسينية والتقى الفريقان فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس فكانت هذه الوقعة أول مصائب الدولة الفاطمية من فقد رجالها ونقص عساكرها, فلم يبق من الطائفة الريحانية إلّا من نجا بنفسه من ناحية المقس وألقى نفسه في بحر النيل**"[5] .

---

(1) المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 3 / ص 144 – 145 .

(2) المقريزي , المواعظ والاعتبار, ج 3 / ص 34 .

(3) هم طائفة من العسكر العبيد السود وقفت بالضد من الخليفة الحافظ لدين الله في نزاعه مع ابنه حسن وانظم إلى جانبهم طوائف الاسكندرية والفرحية وطائفة من صبيان الخاص ، إلى أن بدد حشودهم بهرام الأرمني وقتل حسن ابن الحافظ وسكنت الدهماء . أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص6 ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ،ج3/ص155 .

(4) هم طائفة من العسكر تتكون من عبيد الخليفة الحافظ الفاطمي استخدمهم في صد أطماع ولده حسن في الخلافة ، وكانوا يتجمعون في صعيد مصر . اسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص6 ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ،ج3/ص150 .

(5) اتعاظ الحنفا , ج 3/ص 35 .

وتطور الصراع إلى مطالبة الأرمن بقيادة بهرام الأرمني[1] الخليفة الحافظ بالتخيير بين حياة ولده حسن والخلافة، وحاول الخليفة تسوية الأمر معهم من خلال بذل الأموال، والعهود بتحقيق مطالبهم، فلم يوافقوا وتمسكوا بتمردهم، وأعدوا العدة لإحراق القصر بمن فيه، ممّا اضطر الخليفة الحافظ إلى تدبير قتل ابنه حسن من خلال سقيه السم[2]، وذكر ابن الطوير ما نزل فيه من بلاء في قوله: "**فألجأته الضرورة إلى أن يستبصرهم ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل في حق ولده، فرأى أنه لا ينفك من هذه النازلة العظيمة التي لم ير مثلها إلّا أن يقتله مستورا**"[3]، واضطر الحافظ أن يجبر ولده على شرب السم ومات، ولم يثقوا بقتله إلّا أن دخلوا عليه وغرسوا سكيناً في جسده فلم يتحرك فأيقنوا أنه مات[4]، وبعدها تقدم بهرام الأرمني نحو القاهرة وضرب حصاراً حولها إلى أن دخلها وأصبح الحافظ أمام الأمر الواقع وسمّاه بالوزارة على الرغم من أنّه نصراني لاقى رفضاً في توليته، إلّا أنّه أجزل عليه بالألقاب، مثل سيف الإسلام تاج الملوك[5]، وأخذ بهرام بجلب أبناء قومه وزيد في أعدادهم حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وقيل في ذلك: "**فلمّا ولى الوزارة وثبتت بها قدمه سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله،**

(1) سيف الاسلام تاج الملوك ابو المظفر بهرام الارمني ، كان نصرانياً من تل باشر شمال حلب قدِم إلى القاهرة وألتحق بخدمة الدولة ، ترقّى في الخدم وتولّى الوزارة للخليفة الفاطمي الحافظ بعد مقتل الأمير حسن في سنة (529هـ/ 1134م) وعُزل عنها في سنة (531هـ / 1136م) ، توفي سنة (535هـ / 1140م) . ابن الطوير، نزهة المقلتين ، ص 38–39 ؛ المناوي، الوزارة، ص278.279.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص38 . 39 .

(3) نزهة المقلتين، ص39 .

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص39 . 40 .

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين ، ص43.44 ؛ ابن ميسر ,أخبار مصر , ص 122 – 123 .

**فأذن له في ذلك. فأرسل إليهم وأحضرهم من تلّ باشر، فتواصلوا حتى كمل منهم ومن غيرهم من الأرمن تقدير ثلاثين ألف إنسان؛ فاستطالوا على المسلمين. وبنيت في أيّامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة؛ وخاف أهل مصر منهم أن يغيّروا الملّة الإسلاميّة. وكثرت الشّكايات فيه"[1] .**

وبيّن الطرطوشي عندما يطغى نفوذ الوزير يحجب الناس من خير الملك في قوله: "**ومثال الملك الخير مع الوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي، فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحاً وكان إلى الماء محتاجاً"[2]**. وهنا وصف الوزير بالتمساح دلالة على شراسته وقوة فعله، إذ لا ترى الناس إلا سطوته وحكمه، أما الخليفة فهو مغيب ومحجوب الفعل عن الرعية .

ولم يجد أمراء الجيش بدّاً إلّا طلب المدد والقدوم من رضوان بن الولخشي[3] الذي كان والياً للغربية للتدخل للقضاء على وزارة بهرام[4]، ولم يستطع رضوان القدوم إلّا بعد أن عمل على تحشيد الناس ودعوتهم للجهاد فاستطاع إعداد ثلاثين ألفاً والسعي لمحاربة بهرام والقضاء عليه، والتقى

(1) النويري، نهاية الأرب، ج28/ص301 . 302 .
(2) سراج الملوك، ص290 .
(3) السيد الاجلّ الملك الأفضل رضوان بن ولخشي ولد في سنة (487هـ /1094م)، وألتحق بخدمة الدولة الفاطمية وترقّى في الخدمة حتى أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله في سنة (531هـ / 1136م) بعد هرب الوزير بهرام الأرمني وكان سنّي المذهب وأول من حمل لقب ملك من الوزراء ، وهرب إلى بلاد الشام في سنة (533هـ / 1138م) بعد ثورة الأجناد عليه ، وقُتل في سنة (542هـ / 1147م). ابن الطوير ، نزهة المقلتين ، ص52.44 ؛ المناوي ، الوزارة ، ص280.279.
(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين ، ص45.44 ؛ ابن ميسر , أخبار مصر , ص 124 .

الجيشان قرب القاهرة واستخدم رضوان عملية رفع المصاحف بأسنة الرماح لاستدراج مشاعر المسلمين في جيش بهرام والسعي لكسبهم لصالح جيش رضوان وحدث أن انهزم بهرام وانسحب إلى قوص، وصل بعدها رضوان إلى القاهرة ودخل على الحافظ الذي بدوره سمح له بالجلوس في دار الوزارة وسماه بها[1] .

واستمر الصراع على الوزارة وسعى الخليفة الحافظ في سنة (533هـ/1138م) إلى الخلاص من رضوان وأدخل الجند في ذلك وحدثت حرب بين الجانبين انتهت بهزيمة الوزير واضطراره إلى الهرب إلى حليفه والي صرخد[2] كمشتكين[3] الذي ساعده في اعداد جيش والعودة إلى مصر في سنة (534هـ/1139م) ووقعت حرب عند باب الفتوح وبعدها اتجه إلى الصعيد فأرسل الخليفة على أثره قواته بقيادة ابن مصال[4] الذي هزمه واقتاده أسيراً إلى القصر الذي سجن فيه وأعلن العفو عن قواته من الأتراك [5] .

---

(1) ابن ظافر، أخبار, ص 98 ؛ ابن ميسر , أخبار مصر , ص125.126 .

(2) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ، ينسب إليها الخمر الجيد . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج3/ص401 ؛ ابن عبد الحق ،مراصد الإطلاع ، ج2/ص838.

(3) بن عبدالله أمين الدولة ربيع الإسلام أمين الدين نائب قلعة صرخد وبصرى كان أميراً جليلاً ولاه على القلعتين الأتابك طغتكين وامتدت أيامه إلى أن توفي في شهر ربيع الآخر سنة (541هـ/1146م). الصفدي ، الوافي بالوفيات ،ج24/ص276 ؛ كرد علي ، خطط الشام ، ج6/ص76 .

(4) نجم الدين ابو الفتح سليمان بن محمد بن مصال اللُّكي المغربي ، عمل في الدواوين الفاطمية وتولّى الوزارة للخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله في سنة (544هـ/1149م) وكانت وزارته نحو خمسن يوما ، فثار عليه والي الاسكندرية ابن السّلار وقتله . للمزيد يُنظر : ابن الطوير، نزهة المقلتين ، ص55-56.

(5) ابن ميسر , أخبار مصر , ص 131 – 132 .

وبعد وفاة الخليفة الحافظ لدين الله ( 544 هـ / 1149 م )، جاء الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل صاحب السبعة عشر سنة وأصغر الأولاد واستمر التنافس والحروب على النفوذ والحكم وجاء ابن سلار والي الإسكندرية إلى الوزارة، ثم قتل وعُلّق رأسه عند باب الذهب[1]، وجاء إلى الوزارة بعده عباس الصنهاجي الذي عينه الخليفة الظافر بأمر الله وخصّه بألقاب "**بسيف الدين الأفضل أمير الجيوش ركن الإسلام**"[2]، وبعده اشترك في مكيدة لقتل الخليفة الظافر سنة (549هـ/1154م) وقتل إخوته بعد أن اتهمهم الوزير بقتله، وبعدها جاء إلى الخلافة الفائز وهو طفل صغير له من العمر خمس سنين [3] .

وبيّن الطرطوشي أهمية موقع الوزير للدولة في قوله: "**إنّ موضع الوزارة أن يشد قواعد المملكة، وأن يفضي إليه السلطان بعجزه، وبجره إذا استكملت فيه الخصال المحمودة**"[4].

وراسل أهل القصر والي منية الخصيب طلائع بن رزيك وطلبوا منه القدوم للثأر لدم الخليفة المقتول فاستجاب الصالح لطلبهم وسار ومعه أعداد من العرب باتجاه القاهرة وهم يلبسون السواد تعبيراً عن حزنهم وطلبهم للثأر ولاقى الموقف استعداداً من الأمراء والأجناد للوقوف إلى جانب طلائع بن رزيك ممّا اضطر عباس الصنهاجي إلى الهرب مع أحمال من أمواله

(1) أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص18 ؛ ابن ميسر , أخبار مصر, ص 146 – 147 .
(2)أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص19 ابن الطوير , نزهة المقلتين , ص 66 .
(3) أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص 21.20 ؛ ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة , ص 103 – 104 ؛ ابن الطوير , نزهة المقلتين , ص 67 – 69 ؛ ابن ميسر ,أخبار مصر , ص 148.
(4) سراج الملوك، ص287 .

والمقربين، ومنهم أسامة بن منقذ، نحو الشام ودخل ابن رزيك إلى القاهرة منتصراً وسار إلى إخراج رفاة الخليفة المغدور وإقامة العزاء على روحه [1] .

وبعدها توفي الفائز قبل أن يكمل العشر سنين سنة (555هـ/1160م) ولم يكن هناك ولي للعهد فأحظروا عبد الله بن يوسف بن الحافظ وهو ابن إحدى عشرة سنة وسمي بالخلافة وحمل لقب العاضد وكان دوره شكلياً والحكم الفعلي لطلائع بن زريك [2] وقيل في ذلك: "**استقر العاضد اسما والصالح معنى فتمكن وقويت حرمته , واستولى على الدولة وتمكن منها , ونقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة , وأساء السيرة باحتكار الغلات , فوقع الغلاء وارتفعت الأسعار , وأكثر من قتل أمراء الدولة**"[3] .

واستمرت عملية اغتيال الوزراء في الدولة الفاطمية وتآمرت طائفة من السودان على قتل الوزير طلائع بن رزيك في سنة (556هـ/1160م)[4], واستطاع ولده العادل رزيك من الوصول إلى الحكم واستمر فيها إلى سنة (558هـ/1162م) إذ تآمر ضده أمير الجيوش شاور السعدي[5] واستطاع القضاء عليه وشغل مكانه في الوزارة[6].

---

(1) أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص23 ؛ ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة , ص 108 – 109 ؛ ابن الأثير , الكامل ج 9/ص 213 – 214 .

(2)ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة , ص 111 ؛ المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 3/ص 244 .

(3)المقريزي , المصدر نفسه والصفحة .

(4) ابن ظافر ، أخبار, ص 113 ؛ اتعاظ الحنفا , ج 3/ص 246 .

(5) ابو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر السعدي، أول وزير عربي تولّى الوزارة من وزراء السيوف لدفعتين ، وقتله صلاح الدين الأيوبي في سنة (564هـ / 1168م). ابن خلّكان، وفيات الأعيان ،ج2/ص 439–448 ؛ المناوي ، الوزارة والوزراء ، ص288.

(6) ابن ظافر، أخبار, ص113 ؛ابن الأثير ,الكامل ،ج 9/ص 298 ؛ أبو الفداء , المختصر, ج3/ص40.

وبيّن الطرطوشي خطر الوزراء والأعوان غير الأكفاء في قوله: "**وأعظم الأشياء ضرراً على الناس عامة، وعلى الولاة خاصة أن يحرموا صالحي الوزراء والأعوان، فتكون أعوانهم غير ذي جدوى وغنى، ويحذر الملك أن يولي الوزارة غير المتحرين، كي لا تضيع الأمور، كما يحذر أن يتطبب بغير طبيب بصير مأمون**"[1].

وبعد وصول شاور السعدي إلى الوزارة دخلت البلاد في نفق مظلم بسبب السماح للتدخلات الخارجية والاستعانة بها لتغليب قوة طرف على آخر من الأطراف المتصارعة، وكان ذلك بعد حدوث تنافس وصراع مع أبي الأشبال ضرغام[2]، وقيل فيه: "**استقر شاور في الوزارة وتلقب بأمير الجيوش, وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم ثم إن ضرغام, جمع جمعاً ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان وقوى على شاور, فانهزم شاور إلى الشام, مستنجداً بنور الدين ولما تمكن ضرغام في الوزارة, قتل كثيراً من الأمراء المصرين لتخلو له البلاد, فضعفت الدولة لهذا السبب, حتى خرجت البلاد من أيديهم**"[3] .

وجاءت تلك السياسات الخاطئة التي أخرجت البلاد من المكانة الدولية التي كانت تتمتع بها وفتحت الباب أمام أعداء الدولة الفاطمية للتدخل في السياسات والصراعات الداخلية وقدمت الأطراف المتنافسة

---

(1) سراج الملوك، 289.

(2)أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي ، من امراء الدولة وكبار قوادها ، ترقّى في المناصب حتى أصبح صاحب الباب وهي مرتبة تلي الوزارة ، ثم تولّى الوزارة بعد هزيمة شاور في رمضان سنة (558هـ / 1163م) ، وبقي في منصبه إلى أن قُتل على يد جيش نور الدين زنكي في أواخر شهر جمادي الآخرة سنة (559هـ / 1164م). ابن ظافر , أخبار, ص 114 ؛ المناوي ، الوزارة ، ص289.

(3) أبو الفداء , المختصر , ج 3/ص 40 ؛ ابن الوردي , تتمة المختصر , ج 2/ص 65 .

الخطوات المثالية للقضاء الوجودي على كيان الدولة الفاطمية ومنها التنازلات التي قدمها شاور إلى نور الدين زنكي[1] كما جاء فيها "**طلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه, ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر, ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر ويتصرف بأمر نور الدين واختياره**"[2]، وفي ذلك احتلال من قبل جيش أجنبي مرتبط إدارياً في الخارج مع استنزاف لموارد البلاد المالية من خلال التنازل عن نسبة كبيرة من الدخل المالي للدولة .

وبين الطرطوشي السياسة السيئة التي تتبع الهوى وذلك في قوله: "**قال بعض الحكماء: كيف يرجو العاقل النجاة، والهوى والشهوة قد اكتنفاه، والهوى أبعد من أن تنفذ فيه حيلة الحازم المحتال**"[3]،وتلك السياسة وذلك المكر الذي اتبعها شاور تابعاً هواه للحفاظ على مصالحه الخاصة على حساب المصالح العليا للبلاد، التي تركها تحت رحمة الأعداء .

وافق نور الدين زنكي على طلب شاور وأرسل حملة على رأسها أسد الدين شيركوه[4] سنة (559هـ/1163م)، ودخلت الجيوش إلى مصر ودارت

---

(1) نور الدين زنكي: أبو القاسم محمود بن عماد الدين أبي سعيد زنكي التركي، ولد سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م، وتملك نيابة حلب بعد مقتل ابيه في حصار جعبر سنة 541هـ/1146م، حاصر دمشق وتملكها وافتتح الكثير من المدن وحارب الصليبيين ،توفى سنة 569هـ/1173م . الذهبي ، سير اعلام النبلاء،ج20/ص 331-334 .

(2) ابن العديم , زبدة الحلب , ص 345 .

(3) سراج الملوك، ص 278 - 279 .

(4) أسد الدين شيركوه : أبو الحارث بن شاذي بن مروان الملقب بالملك المنصور ،اسد الدين شيركوه، وعم السلطان الايوبي صلاح الدين ،تولي دمشق مدة، وقام بحرب الفرنج وفتح حصونهم ، وقصد الديار المصرية مع ثلاث دفعات واستطاع السيطرة على زمام الأمور بعدما خلع عليه الخليفة العاضد بالوزارة سنة 564 هـ/1169م ،توفي بعد عدة أسابيع من تسلمه الوزارة . ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،ج23/ ص 284؛ابن خلكان، وفيات الأعيان ج2/ص 479؛ ابن تغري بردي ،مورد اللطافة، ج2/ص 1 .

معارك مع القوات الحكومية في بلبيس[1] بقيادة همام[2] واندلعت مواجهات بين الطرفين هزم فيها الجيش المصري وانسحب ضرغام من المعركة وبعدها قتل مع إخوته جميعاً [3] .

وذكر الطرطوشي حساد الرفعة و كثرة الخير والأموال وذلك في قوله: **"كلما ازداد الخير كثرة كان الخارج منه أشد حسرة. بقدر السمو في الرفعة تكون وجْبَةُ الوقعة"[4]**، وذلك كان واقع القوى المجاورة للفاطميين كل من الشاميين والإفرنج كانوا يدركون حجم الثروات التي توجد في مصر ومقدار المكانة العالمية التي وصلها الفاطميون، وكانت تلك الأرض عصية عليهم في أوقات عز وقوة الدولة الفاطمية.

وهنا شعر شاور في خطر الجيش الشامي الغازي الذي استقر في أرض مصر وأخذ يهدد وجود الدولة الفاطمية، وارتكب خطأ أكبر بلجوئه إلى ملك الإفرنج للخلاص من شيركوه وجنوده وقيل في ذلك: **"لمّا تحقق شاور أنّه لا قبل له بشيركوه كتب إلى مري[5] ملك الفرنج بالساحل يستنجده ويخوفه من تمكن نور الدين من مصر, ويقول له متى استقروا**

---

(1) مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج1/ص479 ؛ ابن عبد الحق ، مراصد الإطلاع ،ج1/ص216 .

(2) همام بن عامر بن سوار اللخمي ناصر المسلمين ، أخ الوزير ضرغام بن عامر ، من القادة الشجعان الذي هزم جيش الفرنج في بلبيس سنة (558هـ/1162م) قتله أسد الدين شيركوه مع إخوته سنة (559هـ/1163م) . ابن ظافر ، أخبار ، ص114 ؛ المناوي ، الوزارة ، ص289.

(3) ابن ظافر ,أخبار, ص 114 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج2/ص444 ؛ المناوي، الوزارة ، ص289.

(4) سراج الملوك، ص 769 .

(5) هو ملك الفرنج في الشام ، لم يكن لهم منذ ظهروا فيها مثله شجاعةً ومكراً ودهاءاً مات سنة (570هـ/1174م). ابن الأثير، الكامل،ج9/ص408،337؛ أبي شامة، الروضتين،ج2/ص332.

**في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا وضمن له مالاً وعلفاً, ويقال إنّه جعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار, وسير إليه بذلك مع ظهير الدين بدران, فسر الفرنج بذلك وطمعوا في ملك مصر"**[1].

وبعد عقد الاتفاق أرسل مري ملك الفرنج حملة بدأت من عسقلان نحو مصر، وعزز قوته بانضمام القوات المصرية له , مما أجبر شيركوه على الانسحاب إلى بلبيس وحوصر بها إلى ثلاثة أشهر، وحاول نور الدين زنكي فك الحصار عن شيركوه، ونتج عن ذلك طلب الفرنج الصلح بعد الاتفاق على مغادرة الجيش الشامي البلاد المصرية وتم الاتفاق مع دفع نفقات الحملة من قبل المصريين والبالغة ثلاثين ألفاً وبذلك انتهت حملة شيركوه الى مصر[2] .

واستمرت مخططات شيركوه في سعيه ورغبته الشديدة للعودة في حملة الى مصر وفي سنة (562هـ/1166م)، استكملت الاستعدادات بقيادته وبمرافقة ابن أخيه صلاح الدين يوسف وبقية الأمراء[3]، )، وسلكت الحملة طريق وادي الغزلان[4] وعاود شاور الاتفاق مع ملك الإفرنج للتعاون معاً لصد جيش شيركوهً وعسكروا في بلبيس وكانت قواتهم أكثر عدداً، والتجأ شيركوه الى دعوة المصريين لمناصرته من الناقمين على أعمال شاور، ووقف أهالي الإسكندريةً ضد الإفرنج، وأعلنوا مناصرته ودعمه بالسلاح

(1) المقريزي , اتعاظ الحنفا , ج 3/ص 276 .

(2) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص345 ؛ الدواداري ، كنز الدرر ،ج7/ص29 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا, ج 3/ص 277 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ،ج9/ص327 ؛ أبي شامة , الروضتين , ج 2 / ص 10.

(4) وكان يسمى بقرية الحسينية بالقرب من عزاز من وادي بردى على طريق بعلبك . العمري ، مسالك الأبصار ،ج19/ص309 ؛ ابن بدران ، منادمة الأطلال ، ص303 ؛ الغزي، نهر الذهب ،ج1/ص52 .

والأموال[1]، وساعده ذلك في تحقيق النصر، وقال ابن الأثير فيه: **"كان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل"**[2].

ولم يحقق ذلك الانتصار الحسم في المعركة ولكنه دفع باتجاه عقد اتفاق بين الأطراف المتصارعة، مع تحقق مكاسب جزئية لكل طرف، أما شاور كان عليه أن يدفع تكاليف الحرب لطرفي النزاع، فأعطى إلى أسد الدين خمسين ألف دينار مع ما تحقق لديه من مغانم، أما الفرنج تم عقد اتفاق معهم من أجل بقاء قواتهم في القاهرة لحمايتها من الجيش الشامي، مقابل مائة ألف دينار سنوياً[3]، وبعدها زادت أطماع أطراف الصراع، وبدأ الفرنج بقيادة حملة نحو مصر قيل فيها: ""**ثم عادوا في جمع عظيم بعد ذلك بمدة فنزلوا مع ملكهم مري على بلبيس وافتتحوها عنوه وأخذوا منها من الأموال والأُسارى والرجال والنساء والأطفال ما لا يحصى**"[4] .

وزادت الأطماع من قبل الإفرنج، وحاول الخليفة العاضد أن يبعد خطرهم من خلال دفع الأموال فعرض مائتي ألف دينار تسلم الى ملكهم مقابل انسحابهم، إلا أنه طلب مبلغاً كبيراً، مقداره ألفي ألف دينار لينهي سبيل التفاوض، ولم يبقى لدى شاور إلا اتباع أساليب أخرى منها قيامه بإحراق مدينة مصر لإبطاء تقدم جيش الفرنج، واستمر في التفاوض معهم حول الأموال لكسب الوقت[5]. مع قيامة بإرسال دعوة الى أسد الدين شيركوه

---

(1) ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ج1/ص77.76 ؛ أبو الفداء ، المختصر ،ج3/ص43 ؛ المقريزي ،اتعاظ الحنفا ،ج3/ص284.282 .

(2) الكامل , ج 9/ص 328 .

(3) ابن الأثير , الكامل , ج 9/ص 329 ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر ،ج2/ص71.70 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج12/ص314.

(4) ابن ظافر , أخبار, ص 115 .

(5) ابن ظافر , أخبار, ص 116 ؛ أبو الفداء ، المختصر ،ج3/ص45 .

للمساعدة في صد قوات الإفرنج ، وأعطى ذلك الفرصة لشيركوه للدخول الى مصر والتحكم فيها، فأسرع في القدوم الى مصر ولم يكن لدى الفرنجة الاستعداد الكامل لمواجهته فاختاروا الانسحاب[1] .

وبذلك كانت الأحوال مهيئة لأسد الدين، وكان همه الخلاص من شاور قبل أن يسعى لمكيدة ضده واستطاع صلاح الدين من تنفيذ عملية قتله وأرسل رأسه إلى الخليفة العاضد ثم دخل شيركوه القصر لنيل منصب الوزارة التي كانت تمنح للأقوى ، وتم له ذلك وحصل على لقب الملك المنصور أمير الجيوش، وكان ذلك في ربيع الأول سنة (564هـ/1168م)[2] .

تولى أسد الدين مهام الوزارة واهتم بتعيين الولاة ومنح الاقطاعات لقادة الجيش من الأمراء، وطغى نفوذه على الخليفة العاضد إلّا أنه لم تدم وزارته أكثر من شهرين وخمسة أيام بسبب وفاته في جمادى الآخرة سنة (564هـ/1168م)[3]،وعين صلاح الدين خلفاً له بالوزارة بعد منافسة له من قبل أمراء الجيش الآخرين ومنهم عين الدولة الياروقي[4] الذي رجع الى نور

(1) ابن ظافر , أخبار, ص 116 ؛ ابن شداد , النوادر السلطانية , ص 79 .

(2) ابن الوردي , تتمة المختصر , ج 2/ص 73 ؛ اليافعي , مرآة الجنان , ج 3/ص 335 .

(3) ابن واصل , مفرج الكروب , ج 1/ص 164 ؛ ابن كثير , البداية والنهاية , ج 12/ص 319 ؛ ابن خلدون , تاريخ , ج 4/ص 102 – 103.

(4) أبو جعفر القاسم بن محمود بن بكلك الياروقي ، كان من كبار أمراء أسد الدين شيركوه في الحملة التي أرسلها نور الدين زنكي ، اعترض على تولية صلاح الدين الوزارة ، وكان يعتبر نفسه أحق بها وقال "لا أخدم يوسف أبدا" .أبي شامة ، الروضتين ،ج2/ص71 ؛ ابن الفوطي ، مجمع الآداب ،ج2/ص394 ؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام ،ج12/ص216 .

الدين زنكي بعد تولية صلاح الدين[1]، لرفضه تعيينه كونه قليل التجربة، وكان مدمناً على اللهو وشرب الخمر[2] .

وقال الطرطوشي أن أعظم البلاء على الحاكم هو الحرمان من ذوي الكفاءة وذلك في قوله: "**وأعظم الأشياء ضرراً على الناس عامة، وعلى الولاة خاصة أن يحرموا صالح الوزراء والأعوان، فتكون أعوانهم غير ذي جدوى وغنى، ويحذر الملك أن يولي الوزارة غير المتحرين كيلا تضيع الأمور، كما يحذر أن يتطبب بغير طبيب بصير مأمون**"[3]، وجاءت تولية صلاح الدين الوزارة بعد مشورة من حاشية الخليفة العاضد الذين قالوا بأن صلاح الدين أكثر طواعية وخضوعاً للخليفة من باقي القادة وأنه ليس لديه عسكر خاص به وتبين ان مشورتهم بعيدة عن الصواب وقيل في ذلك: "**اجتهد العاضد رأيه وظن أن في صلاح الدين بقاء ملكه، فكان فيه إسراع هلكة**"[4] ، وكان سوء اختيارهم، إذ اختاروا شخصاً طامعاً غازياً للبلاد ، أضف الى ذلك كان لاهياً شارباً للخمر وقيل في صلاحه بعد توليته الوزارة: "**وفوض الأمر بعده الى السلطان ... فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد، وما عاد عنه**"[5]، وما يهمنا من النص كيف كان قبل توليته الوزارة، أي أنه لم يكن صالحاً للوزارة .

---

(1) ابن الأثير، الكامل ،ج9/ص344 ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ج1/ص359 ؛ الحنبلي , شفاء القلوب , ص 66 – 67.

(2) ابن العديم , زبدة الحلب , ص 351 ؛ الحنبلي , شفاء القلوب , ص 67 – 68 .

(3) سراج الملوك، ص289 .

(4) الحنبلي، شفاء القلوب، ص67 .

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص81 .

وبتولي صلاح الدين الوزارة سعى بخطوات مدروسة الى القضاء على وجود الدولة الفاطمية، وبعد أن تمكن من السلطة أرسل إليه نور الدين زنكي يأمره بإقامة الخطبة للعباسيين وأرسل إليه أوامر الخليفة العباسي وبعد المشورة من خاصته، اتفقوا على إعلان ذلك من قبل الفقيه أبو يحيى بن يشفع، فأعلن الخطبة للخليفة المستضئ العباسي على المنبر في السابع من محرم سنة (567هـ/1171م) [1] .

وبعدها بثلاثة أيام توفي الخليفة العاضد في ظروف غامضة، وقيل أن صلاح الدين هو من دبر موته بعد أن سقاه السم: ""**قيل أن يوسف ابن أيوب سمه وانسلخ من لوح الحياة اسمه ولما مات سجى برداء أشرب وغطى ودخل عليه يوسف بن أيوب وأدخل الشهود الأعيان فرأوه وقلبوه فلم يروا به مأثر قتل ومشى ابن أيوب في جنازته, راجلاً مشقوق العباء وقد لبس البياض**"[2] .

وبعد أن زال الخليفة الفاطمي من طريقه، اتخذ سياسة تطهير السلالة الفاطمية من الوجود واستولى على جميع ممتلكاتهم "**تسلم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قصر الخلافة واستولى على ما كان به من الأموال والذخائر, وكانت عظيمة الوصف, وقبض على أولاد العاضد وحبسهم في مكان واحد بالقصر وأجرى عليهم ما يمونهم وعفى آثارهم, وقمع مواليهم وسائر نسائهم**"[3] .

وبذلك زالت الدولة الفاطمية بسبب مثالب سياساتها التي أوصلتها الى نهاياتها بعد تراكم الأخطاء واستمرار التراجع وضعف النفوذ، وفسح المجال أمام أعدائها في التوغل في سياساتها .

---

(1) ابن الأثير , الكامل , ج 9/ص 365 ؛ ابن الوردي , تتمة المختصر , ج 2/ص 78 ؛ الحنبلي , شفاء القلوب , ص 75 .

(2) ابن حماد، أخبار بني عبيد , ص 109 .

(3) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة , ج 5/ص 341 .

# الخاتمة

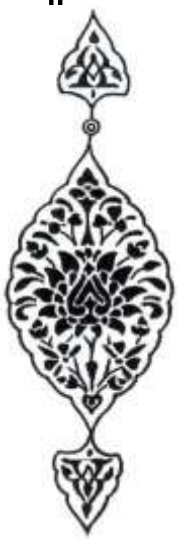
## الخاتمة

بعد الانتهاء من موضوع دراستنا الموسومة **(تاريخ الدولة الفاطمية في ضوء فلسفة الطرطوشي 520هـ/1126م للسياسة والعمران)** توصلنا إلى مجموعة من الاستنتاجات أهمها:

- إنّ مقام الإمامة في الإسلام مثل الزعامة العامة في أمور الدين والدنيا، ومن أهم واجباتها حفظ الدين وتطبيق العدالة وتنظيم حياة المجتمع، وهي ضرورة لاستقرار الأمة وحماية منجزاتها .
- السياسة الرشيدة في الدولة الفاطمية، هو تدبير شؤون الأمة على وفق أحكام الشريعة ومقاصدها، واجتهاد الإمام أو الخليفة، وتعمل على تحقيق العدالة، ودفع الضرر عن الأمة وجلب المصالح .
- لم يتناول أبو بكر الطرطوشي موضوع العمران البشري بدراسة مستقلة كما فعل ابن خلدون(808هـ/1406م)، وإنّما ناقش الاجتماع البشري وأُسس بناء الدولة ونظام الحكم من خلال أقوال الأنبياء والحكماء وتجارب الأمم .
- كان التعدد الإثني والعقدي في الدولة الفاطمية سلاحاً ذا حدّين، بدءاً من استثماره في بناء الجيش والإدارة في بدايات نشوء الدولة الفاطمية، وصولاً إلى دخوله عاملاً أساسياً في نشوب الانقسامات والصراعات الداخلية التي ساهمت في تراجع الدولة الفاطمية وانهيارها .
- من الأسباب الجوهرية في ضعف الخلافة الفاطمية، هي تولي خلفاء صغار السن، مما أدخل البلاد في حالة من الفراغ في القيادة العليا، مما فسح المجال واسعاً، أمام الطامعين في السلطة والنفوذ، أمثال الوزراء وقادة الجيش الكبار، وكذلك حاشية الخليفة منهم نساء القصر مثل أمهات الخلفاء وأخواتهم وعماتهم وغيرهم من المقربين بالنسب، ممّا أوجد حالة من الصراع والاقتتال الداخلي بين المتنافسين .

- يرى الطرطوشي أنّ أساس البقاء للدول وازدهارها هو إقامة العدل، ومن أسباب انهيارها وزوالها هو اتباع سياسة الظلم والسعي إلى الترف والإسراف .
- بيّنت الدراسة توفر الإمكانات العسكرية والإدارية والقضائية للدولة الفاطمية وأثرها على عالمية الدعوة الفاطمية من حيث امتلاكها لجميع مقومات الحضارة ووجودها .
- بين البحث أنّ لكل حضارة عوامل ازدهار ونمو وتطور ولها عوامل انهيار وانحلال وأنّ ما ناقشته أفكار الطرطوشي من الأسباب الواقعية في انهيار الحضارات و انحلالها ينطبق على ما حدث للدولة الفاطمية من عوامل واضطرابات أدت في النهاية إلى انهيارها وانحلالها .
- بيّن البحث أثر الصراعات الداخلية في انهيار الدولة الفاطمية إذ إنّ البحث تناول أثر تلك الصراعات والتمحور والتمزق الداخلي على مستقبل الدولة الفاطمية باعتبارها من العوامل الأساسية لانهيارها ، وقد تطابق ذلك مع أفكار الطرطوشي.
- ناقش البحث أثر التدخلات الخارجية والدور الكبير الذي قاد إلى انهيار الدولة الفاطمية وانحلالها والذي مثل السماح لقوى أجنبية من التدخل في شؤونها الداخلية لتعلن في النهاية انهيار الدولة الفاطمية وزوالها من مسرح الأحداث التاريخية .
- أنّ الدول والحضارات هي من ترسم نهاياتها وليس القدر المحتوم، وما جلب الحلول من الخارج إلّا مرحلة من مراحل الانهيار والانحلال وهذا ماجنته الدولة الفاطمية وأدى الى انهيارها .

# المصادر والمراجع



**أولاً-القرآن الكريم.**

**ثانياً-المخطوطات:**

* **الحسين بن علي بن محمد بن الوليد (ت667هـ/1268م).**

1- الرسالة الوحيدة في تثبيت أركان العقيدة، مخطوط غير محقق .

**ثالثاً- المصادر الأولية:**

* **ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ) .**

2- الحلة **السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٥م) .**

* **ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) .**

3- الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي (بيروت – ١٩٩٧م).

* **الآجُرِّيُ، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠ م) .**

4- الشريعة، تحقيق: عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، ط٢، دار الوطن (الرياض / ١٩٩٩ م).

* **أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م).**

5-مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة (د.م – ٢٠٠١ م).

* **أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .**

6-الرسالة الجامعة، تحقيق: مصطفى غالب، ط2، دار الأندلس، (بيروت 1981م).

* **الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م).**

7-نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب (بيروت ١٩٨٨م).

* **ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي (ت ٨٩٦هـ).**

8-بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار، ط1، وزارة الإعلام، (العراق د.ت).

* **أسامة بن منقذ، مؤيد الدولة أبو مظفر أُسامة بن مرشد بن علي الكناني الشيزري (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م).**

9-الاعتبار، تحقيق: فليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية (مصر – د.ت).

* **الاصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م).**

10-المسالك والممالك، دار صادر (بيروت – ٢٠٠٤م).

* **الآمر بأحكام الله، منصور بن أحمد بن معد (ت ٥٢٤هـ / ١١٣٠م) .**

11- لهداية الآمرية في ابطال دعوى النزارية، جامعة أكسفورد (نيويورك ١٩٣٨م).

* **الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م).**

12-تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس (طرابلس – لبنان . ١٩٩٠م).

* **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ).**

13-التقريب والإرشاد (الصغير)، تحقيق: عبد الحميد بن علي أبو زنيد، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٨ م).

* **البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م).**

14-صحيح البخاري، دار طوق النجاة (بيروت – ٢٠٠٢م).

* **ابن بدران عبد القادر بن أحمد بن مصطفى (ت ١٣٤٦هـ).**

15-منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق: زهير الشاويش، ط٢، المكتب الإسلامي، (بيروت ١٩٨٥م).

* **البُستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الدارمي (ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م).**

16-الثقات، ط١، دائرة المعارف العثمانية (حيدر آباد – ١٩٧٣م).

* **ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ).**

17- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، ط2، مكتبة الخانجي، (د.م ١٩٥٥ م).

* **أبي بصير، يحيى بن القاسم الأسدي (الوفاة قرن ٢هـ / القرن الثامن الميلادي).**

18-مسند أبي بصير، دار الحديث (قم – ٢٠١٠م).

* **البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن السيد (٥٢١ هـ) .**

19- رسائل في اللغة، تحقيق: وليد محمد السراقبي، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (الرياض ٢٠٠٧ م) .

* **ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م).**

20- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية (الرباط ١٩٩٦م).

* **البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (ت ٥١٠هـ / ١١١٧ م).**

21-معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي (بيروت – ٢٠٠٣م).

22-شرح السنة للبغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط٢، المكتب الإسلامي (دمشق ١٩٨٣م).

* **البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م).**

23-المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي (د.م . ١٩٩٢ م).

* **البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م).**

24-فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال (بيروت ١٩٨٨م).

* **البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليٍّ (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م).**

25-السنن الكبير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات (ت.م - ٢٠١١ م).

* **التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد (ت بعد ٧١١هـ / ١٣١١م).**

26-رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب (تونس ١٩٨١م).

* **الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢ م).**

27-سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت - ١٩٩٨م).

* **التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع (ت ٢٨٣هـ / ٨٩٦م).**

28-تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٣م).

* **التطيلي، الرابي بنيامين بن الرابي يونة النباري (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م).**

29-رحلة بنيامين التطيلي، ط١، المجمع الثقافي (أبو ظبي ٢٠٠٢م).

* **ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)**

30-مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية، (لقاهرة د.ت).

31- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب (مصر - د.ت).

* **التميمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م).**

32-مجاز القرآن، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى (القاهرة - ١٩٦٠م).

* **التنوخي (المعري)، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد (ت ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م).**

33-معجز أحمد (شرح لديوان المتنبي).

* **ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله الخضر النميري الحراني (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م).**

34- منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (د.م – ١٩٨٦ م).

* **الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٤ م).**

35-الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي (بيروت – ٢٠٠٢م).

* **الثمالي، أبي حمزة ، ثابت بن دينار الأزدي (ت ١٤٨ هـ / ٧٦٥م).**

36-تفسير أبي حمزة الثمالي، تحقيق: عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين، دفتر نشر الهادي (طهران – ٢٠٠٠م).

* **أبي الجارود، زياد بن المنذر الهمداني (ت بعد ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م).**

37-تفسير أبي الجارود ومسنده، تحقيق: علي شاه علي زاده، دار الحديث (قم – د.ت).

* **ابن الجَعْد، علي بن عبيد الجَوْهَري البغدادي (ت ٢٣٠هـ).**

38-مسند ابن الجعد، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط1، مؤسسة نادر، (بيروت ١٩٩٠).

* **ابن أبي جمهور، محمد بن علي بن ابراهيمي الإحسائي (910هـ/1505م).**

39-عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، تحقيق: مجتبى العراقي، ط1، مطبعة سيد الشهداء، (قم 1985م).

* **ابن الجنيد البجلي، أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي ثم الدمشقي (ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م)**

40-الفوائد، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد (الرياض – ١٩٩٢م).

* **الجوذري، أبو علي منصور الكاتب العزيزي (ت ٣٨٦هـ / ٩٩٦م).**

41-سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق: محمد كامل حسين ومحمد عبدالهادي شعيرة، دار الفكر العربي (القاهرة د.ت).

* **ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١ م)**

42-زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي (بيروت – ٢٠٠٢م).

43-كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن للنشر (الرياض - ١٩٩٧م).

* **حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بـ «كاتب جلبي» (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧م).**

44-سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا (تركيا ٢٠١٠م).

* **الحبري، أبو عبد الله حسين بن الحكم بن مسلم الحبري (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م).**

45-تفسير الحبري، تحقيق: محمد رضا الحسيني (بيروت - ١٩٨٨م).

* **الحرضي، يحيى بن أبى بكر بن محمد بن يحيى العامري (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٦م).**

46-بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، دار صادر (بيروت - د.ت).

* **الحكيم الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر (ت نحو ٣٢٠هـ / ٩٣٢ م).**

47-نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل (بيروت - د.ت).

48-ختم الأولياء، تحقيق: عثمان اسماعيل يحيى، ط٢ (بيروت - ٢٠٠١م).

* **الحلبي، نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد أبو الفرج ابن برهان الدين (ت ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م).**

49-السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، ط٢، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٧م).

* **الحمادي، أبو عبد الله محمد بن مالك المعافري اليماني (ت نحو ٤٧٠هـ).**

50-كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة الساعي، (الرياض د.ت).

* **الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م).**

51-معجم البلدان، ط٢، دار صادر (بيروت ١٩٩٥م).

* **الحميدي، أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي المكي (ت ٢١٩هـ / ٨٣٥ م).**

52-مسند الحميدي، تحقيق: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ، دار السقا (دمشق - ١٩٩٦م).

* **الحميري، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع اليماني الصنعاني (ت ٢١١ هـ / ٨٢٦م).**

53-المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المجلس العلمي (الهند - ١٩٨٣م) / وتحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل (د.م - ٢٠١٣م).

* **الخُشَني، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن ثعلبة القرطبي (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م).**

54-طبقات علماء أفريقيا، ط١، تحقيق: محمد زينهم محمد، مكتبة مدبولي (القاهرة ١٩٩٣م).

* **الخطيب التبريزي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري (ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠ م).**

55-١٠٤- مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي (بيروت - ١٩٨٥م).

* **ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٦م) .**

56- تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط ٣، مكتبة نزار مصطفى الباز (المملكة العربية السعودية - ٢٠٠٩م).

* **ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)**

57-رفع الإصر عن قضاة مصر، مكتبة الخانجي (القاهرة - ١٩٩٨م).

58-لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعرف النظامية - الهند، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت - ١٩٧١م).

* **ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ).**

59-جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٣م).

* **ابن حماد، أبو عبدالله محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي القلعي (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م).**

60-أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع (القاهرة - د.ت).

* **الحِميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ).**

61-الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، (بيروت ١٩٨٠ م).

* **الحنبلي، أبو البركات أحمد بن إبراهيم الكناني المصري (ت876هـ).**

62-شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد .

* **الحنبلي، ابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري ، (ت ١٠٨٩هـ).**

**63-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، (بيروت ١٩٨٦ م).**

* **ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م)**

64-صورة الأرض، دار صادر أفست ليدن (بيروت ١٩٣٨م).

* **ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م)**

65-أعمال الأعلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية (بيروت ـ د.ت).

* **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)**

66-ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، دار الفكر (بيروت ١٩٨٨م).

* **ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .**

67-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت – د.ت).

* **الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي (ت ٣٨٧هـ/997م) .**

68-مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب العربي، (د.م ، د.ت) .

* **ابن زولاق، أبو محمد الحسن الليثي (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م).**

69-أخبار سيبويه المصري، تحقيق: محمد عبد الله عنان (د.م . د.ت).

* **الداعي إدريس، عماد الدين إدريس بن الحسن القريشي (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م).**

70-زهر المعاني، تحقيق: مصطفى غالب، ط١، المؤسسة الجامعية (لبنان ١٩٩١م).

71-عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت ١٩٧٨م).

* **الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م).**

72-معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد ماضور، مكتبة الخانجي (مصر . د.ت).

* **الدوإداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك (ت بعد ٧٣٦هـ / بعد ١٣٣٥م).**

73-كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار عيسى البابي (القاهرة ١٩٦١م).

* **الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م).**

74-سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة (بيروت ١٩٨٥م).

75-المعين في طبقات المحدثين، تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد، ط١، دار الفرقان (عمان ١٤٠٤هـ).

76-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط٢، دار الكتاب العربي (بيروت ١٩٩٣م).

* **الرازي، أحمد بن سهل (المتوفى في الربع الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي).**

77-أخبار فخ وخبر يحيي بن عبد الله وأخيه إدريس بن عبد الله، تحقيق: ماهر جرار، دار الغرب الإسلامي (بيروت - ١٩٩٥م).

* **الرسي، قاسم بن إبراهيم بن إسماعيل (ت ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م).**

78-تثبيت الإمامة، تحقيق: صالح الورداني، الغدير للطباعة والنشر (بيروت - ١٩٩٨م).

* **الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م).**

79-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط٣، دار الكتاب العربي (بيروت - ١٩٨٦م).

* **زيد بن علي، أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١٢٢هـ / ٧٣٩ م).**

80-تفسير الشهيد زيد بن علي (تفسير غريب القرآن)، تحقيق: حسن بن محمد تقى حكيم، الدار العالمية (بيروت - ١٩٩١م).

* **ابن سباهي زادة، محمد بن علي البروسوي (ت ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م).**

81-أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق: المهدي عبد الرواضية، ط١، دار الغرب الإسلامي (د.م - ٢٠٠٦م).

* **سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي بن عبد الله (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م).**

82-مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ط١، دار الرسالة العالمية (دمشق ٢٠١٣م).

* **السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م).**

83-طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة (د.م ١٩٩٢م).

* **السِّجِسْتاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م).**

84-سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية (صيدا - د.ت).

* **ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م).**

85-الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي (القاهرة - ٢٠٠١م)<

* **السلاوي، أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م).**

86-الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب (الدار البيضاء – د.ت).

* **السِّلَفي، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه لأصبهاني (ت ٥٧٦هـ)**

87-أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق: : إحسان عباس، ط1، دار الثقافة، (بيروت ١٩٦٣م).

* **السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت ٣٧٣هـ / ٩٨٣ م).**

88-بحر العلوم (د.م – د.ت).

* **السنوسي، أبو عبد الله محمد بن عثمان بن محمد (ت ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م).**

89-مسامرات الظريف بحسن التعريف.

* **السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي، (ت ٥٦٢هـ).**

90-الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ط1، مجلس دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد١٩٦٢ م).

* **السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزى التميمي (ت ٤٨٩هـ / ١٠٩٦ م).**

* **السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م).**

91-تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز (د.م . ٢٠٠٤م).

92-حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية (مصر – ١٩٦٧م).

93-تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن (الرياض – ١٩٩٧م).

* **ابن شاذان، الفضل بن شاذان الأزدي (ت ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م).**

94-الإيضاح، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي، مؤسسة انتشارات وچاپ دانشگاه (طهران – ١٩٤٧م).

* **الشاشي، أبو سعيد الهيثم بن كليب بن سريج بن معقل البِنْكَثي (ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦ م).**

95-المسند، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة – ١٩٩٠م).

* **الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع (ت ٢٠٤هـ / ٨٢٠ م).**

96-تفسير الإمام الشافعي، تحقيق: أحمد بن مصطفى الفرَّان، دار التدمرية (المملكة العربية السعودية – ٢٠٠٦م).

97-الأم، دار المعرفة (بيروت – ١٩٩٠م).

* **أبي شامة أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥ هـ).**

98-الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط1، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٧ م).

* **ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الموصلي (ت ٦٣٢هـ)**

99-النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط2، مكتبة الخانجي، (القاهرة ١٩٩٤ م).

* **ابن الشعار، كمال الدين أبو البركات المبارك الموصلي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م)**

100-قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٥م).

* **ابن شهر آشوب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م).**

101-المناقب، ط١ (قم – ١٩٦٠م).

* **الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م).**

102-الملل والنحل، مؤسسة الحلبي (د.م – د.ت).

* **الشيباني، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد بن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ / ٩٠٠ م).**

103-الآحاد والمثاني، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية (الرياض – ١٩٩١م).

* **ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت ٢٣٥هـ / ٨٤٩ م) .**

104- مسند ابن أبي شيبة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي، دار الوطن (الرياض – ١٩٩٧م).

105- المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد (الرياض – ١٩٩١م).

* **الشيخ الأنصاري، مرتضى بن محمد أمين الدزفولي (ت ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م).**

106-كتاب المكاسب، تحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم (د.م – ١٩٩٥م).

* **الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ / ٩٩١ م).**

107-الأمالي، مؤسسة البعثة (قم – ١٩٩٧م).

* **الشيخ الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (329هـ/941م).**

108-الكافي، ط1، دار الحديث، (قم د.ت).

* **الشيرازي أبو اسحاق إبراهيم بن علي (ت ٤٧٦هـ).**

109-طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، (بيروت ١٩٧٠م).

* **ابن الصباغ، علي بن محمد المالكي المكي (855هـ).**

110-الفصول المهمة في معرفة الأئمة، تحقيق: سامي الغريري، ط1، دار الحديث، (قم 1422هـ).

* **الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م).**

111-الوافي بالوفيات، تحقيق: احمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث (بيروت – ٢٠٠٠م).

* **الصَّفَدِي، الحسَن بن أبي محمّد عبد الله بن عمر بن محاسن الهَاشِمِي العبّاسي (ت بعد ٧١٧ هـ / ١٣١٧م).**

112-نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية (بيروت – ٢٠٠٣م).

* **ابن الصلاح، تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، (ت ٦٤٣هـ) .**

113-طبقات الفقهاء الشافعية، ط1، تحقيق: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، (بيروت ١٩٩٢م) .

* **ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)**

114-الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: عبدالله مخلص، مطبعة المعهد الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية (القاهرة ١٩٢٤م).

* **الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد الضبي (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م).**

115-بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، (القاهرة 1967م).

* **أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن عبد الله (ت341هـ/952م) .**

116-تثبيت الإمامة، تحقيق: سامي مكارم (د.م – د.ت).

* **أبو طاهر السِّلَفي، صدر الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد سِلَفَه الأصبهاني (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م).**

1- معجم السفر، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية (مكة المكرمة . د.م).

* **الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، (ت ٣٦٠هـ).**

2- **المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، (القاهرة د.ت).**

* **الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣م).**

3- الاحتجاج، تحقيق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان (النجف الأشرف – ١٩٦٦م).

* **الطبري، محب الدين ، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م).**

4- ذخائر العقبى في مناقب ذوى القربى، دار الكتب المصرية (مصر – ١٩٣٨م).

* **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، (ت ٣١٠هـ).**

5- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، ط2، دار التراث، (بيروت ١٣٨٧ هـ).

* **الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الأزدي المصري (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م).**

6- شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة (د.م – ١٩٩٤م).

* **الطرطوشي، أبي بكر محمد بن الوليد الفهري (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م).**

7- بر الوالدين ما يجب على الوالد لولده وما يجب على الولد لوالده، تحقيق: محمد صالح محمد، ط1، دار الحديث، (اليمن- 2019م).

8- الدعاء المأثور و آدابه وما يجب على الداعي إتيانه واجتنابه، تحقيق: عبدالله محمود محمد، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت-2002).

9- رسالة في تحريم الجبن الرومي وكتاب تحريم الغناء والسماع، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط1، دار الغرب الإسلامي، (بيروت – 1997م).

10- سراج الملوك، تحقيق: محمد فتحي، تقديم: شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة-1994م).

* **ابن طلحة، كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي (ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤ م).**

11- مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، تحقيق: ماجد ابن أحمد العطية (د.م – د.ت).

* **ابن الطوير، ابو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م).**

12- نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مطابع دار صادر (بيروت – ١٩٩٢م).

13- أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: أندريه فريه، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة ١٩٧٢م).

* **الطيالسي، أبي داود ، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود البصرى (ت ٢٠٤هـ / ٨٢٠ م).**

14- مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر (مصر – ١٩٩٩م).

* **ابن ظافر، جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي (ت ٦١٣هـ / ١٢١٧م)**

15- أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: علي عمر، ط١، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة ٢٠٠٠م).

* **ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ).**

16- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، (بيروت ١٩٩٢ م).

* **ابن عبدالحق البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م)**

17- مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، دار الجيل (بيروت ١٩٩١م).

* **ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر السعدي المصري (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م)**

18- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل (د.م – د.ت).

* **ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس ابن أهرون بن توما الملطي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م).**

19- تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، ط٣، دار الشرق (بيروت ١٩٩٢م).

* **العجلوني، أبو الفداء، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي الدمشقي (ت ١١٦٢هـ / ١٧٤٨م).**

20- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية (د.م – ٢٠٠٠م).

* **ابن العديم، كمال الدين عمر بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م).**

21- زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية (بيروت – ١٩٩٦م).

* **ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت نحو ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م).**

22- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة (بيروت – ١٩٨٣م).

* **أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي (ت ٣٣٣هـ / ٩٤٥م).**

23- المحن، تحقيق: عمر سليمان العقيلي، دار العلوم (الرياض . ١٩٨٤م).

* **أبو عروة البصري، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي نزيل اليمن (ت ١٥٣ هـ / ٧٦٩ م).**

24- الجامع، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المكتب الإسلامي (بيروت – ١٩٩٤م).

* **ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م).**

25- تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (١٩٩٥م).

* **العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت نحو ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م).**

26- معجم الفروق اللغوية، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي (قم ١٤١٢هـ).

* **العلامة الحلي، أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م).**

27- نهج الحق وكشف الصدق، تحقيق: السيد رضا الصدر، دار الهجرة (قم – ٢٠٠١م).

* **علي بن ابي طالب، أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي (ت ٤٠ هـ / ٦٦١م).**

28- نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر (قم – ١٩٩٢م).

* **العليمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحنبلي، أبو اليمن، (ت ٩٢٨هـ).**

29- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، (عمان د.م).

* **عماد الدين الكاتب الأصبهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد صفي الدين (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م).**

30- خريدة القصر وجريدة العصر – أقسام أخرى.

* **العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م).**

31- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط١، المجمع الثقافي (أبو ظبي ٢٠٠٢م).

* **العياشي، أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي (ت ٣٢٠ هـ / ٩٣٢م).**

32- تفسير العياشي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية (طهران – د.ت).

* **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ / ١١١١ م).**

33- فضائح الباطنية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية (الكويت – د.ت).

* **الغزي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي (ت ١٣٥١هـ).**

34- نهر الذهب في تاريخ حلب، ط2، دار القلم، (حلب ١٤١٩ هـ).

* **الفاسي، أبو الحسن علي بن أبي زرع الفاسي (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م).**

35- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور (الرباط ١٩٧٢م).

* **أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود ابن عمر الأيوبي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م).**

36- المختصر في أخبار البشر، ط١، المطبعة الحسينية المصرية (د.م . د.ت).

37- تقويم البلدان، دار صادر (بيروت . د.ت).

* **ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م)**

38- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث (القاهرة . د.ت).

* **الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي (ت ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م).**

39- المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد (بغداد – ١٩٧٤م).

40- عيون الأخبار، ط٣، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٣م).

* **القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م).**

41- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ط١، طبعة فضالة – المحمدية (المغرب . د.ت).

* **القاضي النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور التميمي المغربي (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤ م).**

42- إفتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت ٢٠٠٥م).

43- آداب اتباع الأئمة، تحقيق: مصطفى غالب، دار مكتبة الهلال (بيروت، ١٩٨٩م).

44- المناقب والمثالب، تحقيق: ماجد أحمد العطية، ط١، مؤسسة الأعلمي (بيروت، ٢٠٠٢م).

45- المجالس والمسايرات، تحقيق: الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي، ط١، دار المنتظر (بيروت ١٩٩٦م).

* **ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوَريّ (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م).**

46- تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية (بيروت – د.ت).

* **قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م).**

47- الخراج وصناعة الكتابة، ط١، دار الرشيد للنشر (بغداد . ١٩٨١م).

* **القرشي، محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن نصر الله الحنفي (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م).**

48- الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه – كراتشي (د.م . د.ت).

* **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م).**

49- الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية (القاهرة – ١٩٦٤م).

* **القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م).**

50- الاستذكار، تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٠م).

* **القزويني، أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م).**

51- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت – د.ت).

* **القسطلاني، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر القتيبي المصري (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧ م).**

52- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المكتبة التوفيقية (القاهرة – د.ت).

* **القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي المصري الشافعي (ت ٤٥٤هـ / ١٠٦٢ م).**

53- مسند الشهاب، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مؤسسة الرسالة (بيروت – ١٩٨٦م).

54- تاريخ القضاعي (كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف)، تحقيق: جميل عبدالله محمد المصري، جامعة أم القرى (مكة المكرمة ١٩٩٥م).

* **ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م).**

55- تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار حسان (دمشق ١٩٨٣م).

* **القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م).**

56- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية (بيروت – د.ت).

57- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط٢، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني (د.م ـ ١٩٨٢م).

* **القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم (ت ٣٢٩ هـ / ٩٤١ م).**

58- تفسير القمي، تحقيق: طيب الموسوي الجزائري، ط٣، مؤسسة دار الكتاب (قم – ١٩٨٤م).

* **القمي، أبي خلف سعد بن عبدالله الأشعري .**

59- المقالات والفرق، تعليق: محمد جواد شكر، (د.م 1360هـ).

* **ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م).**

60- البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر (د.م ٢٠٠٣م).

61- جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله الدهيش، ط٢، دار خضر (بيروت – ١٩٩٨م).

62- طبقات الشافعيين، تحقيق: أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم، مكتبة الثقافة الدينية، (د.م ١٩٩٣ م ) .

* **الكرماني، حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرماني (ت ٤١١ هـ / ١٠٢١م).**

63- المصابيح في إثبات الإمامة، تحقيق: مصطفى غالب، دار المنتظر للطباعة والنشر (بيروت – ١٩٩٦م).

* **الكَشّي، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر (ت ٢٤٩هـ / نحو ٨٦٤ م).**

64- المنتخب من مسند عبد بن حميد، تحقيق: الشيخ مصطفى العدوي، ط٢، دار بلنسية (د.م – ٢٠٠٢م).

* **الكناني، أبو الحسن عبد العزيز بن يحيى بن مسلم بن ميمون المكي (ت ٢٤٠هـ).**

65- **الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقهي، ط2، مكتبة العلوم والحكم، (المدينة المنورة ٢٠٠٢م).**

* **الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصري (ت بعد ٣٥٥هـ / ٩٦٦م).**

66- كتاب الولاة وكتاب القضاة، تصحيح وتهذيب: رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت ١٩٠٨م).

* **المَاتُرِيدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود (ت ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م).**

67- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية (بيروت – ٢٠٠٥م).

* **ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٧م).**

68- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (د.م ـ د.ت).

* **مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر (ت179هـ/795م).**

69- الموطأ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط1، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، (أبو ظبي ٢٠٠٤ م).

* **المالكي، ابو بكر عبدالله بن محمد (ت بعد سنة ٤٣٥هـ / ١٠٦١م).**

70- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقيا وزهادهم وعبادهم، تحقيق: بشير البنكوش، دار الغرب الاسلامي (بيروت د.ت).

* **الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م).**

71- تفسير الماوردي (النكت والعيون)، تحقيق: ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية (بيروت – د.ت).

72- الأحكام السلطانية، دار الحديث (القاهرة – د.ت).

73- الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٥، دار الكتب الإسلامية (طهران – ١٩٤٨م).

* **ابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك المروزي (ت ١٨١ هـ / ٧٩٧ م).**

74- الزهد والرقائق (رواية الحسين المروزي)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي (الهند – د.ت).

* **المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٨ م).**

75- الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر العربي (القاهرة – ١٩٩٧م).

* **المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي بن المقصود علي المجلسي (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م).**

76- بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي وعبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط٢، مؤسسة الوفاء (بيروت – ١٩٨٣م).

* **المخزومي، أبو الحسن علي بن عثمان بن محمد (ت ٥٨٥هـ / ١١٨٩م).**

77- كتاب المنهاج في علم خراج مصر، تحقيق: كلود كاهن، مراجعة: يوسف راغب، مكتبة الخبر (القاهرة ١٩٨٦م).

* **المرادي، أبو الفضل محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد (ت ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م).**

78- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط٣، دار ابن حزم (د.م – ١٩٨٨م).

* **المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م).**

79- المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط١، المكتبة العصرية (صيدا – بيروت . ٢٠٠٦م).

* **ابن مزاحم المنقري، نصر بن مزاحم بن يسار المنقري (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧ م).**

80- وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، المؤسسة العربية الحديثة (القاهرة – ١٩٦٢م).

* **المسبحي، عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحي (ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩م).**

81- أخبار مصر في سنتين (٤١٤ ـ ٤١٥)، تحقيق: وليم ج. ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ١٩٨٠م).

* **المستنصر بالله، أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله (ت 487هـ/1094م).**

82- السجلات المستنصرية، تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، (مصر 1954م)

* **ابن المستوفي، شرف الدين المبارك بن أحمد بن المبارك اللخمي الإربلي (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م).**

83- تاريخ إربل، تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار، دار الرشيد للنشر (العراق ١٩٨٠م).

* **ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد مسكويه الرازي (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م).**

84- تجارب الأمم، تحقيق: أبو القاسم امامي، ط٢، دار سروش للطباعة والنشر (د.م – ٢٠٠١م).

* **ابن المغازلي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الطيب الواسطي المالكي (ت ٤٨٣هـ / ١٠٩٤ م).**

85- مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تحقيق: تركي بن عبد الله الوادعي، دار الآثار (صنعاء – ٢٠٠٣م).

* **مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م).**

86- تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث (بيروت، ٢٠٠٥م).

* **مقاتل ابن عطية، أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م).**

87- أبهى المداد في شرح مؤتمر علماء بغداد، مؤسسة الأعلمي (بيروت – ٢٠٠٤م).

* **المقدسي، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البشّاري (ت بعد ٣٧٧هـ / ٩٨٧م).**

88- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، دار صادر (بيروت ١٩٩١م).

* **مقديش، أبو الثناء محمود بن سعيد بن محمود مقديش الصفاقسي (ت ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م).**

89- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، ط١، دار الغرب الاسلامي (بيروت – ١٩٨٨م).

* **ابن المقرئ، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي الأصبهاني الخازن (ت ٣٨١هـ / ٩٩١ م).**

90- المعجم، تحقيق: عادل بن سعد، مكتبة الرشد (الرياض – ١٩٩٨م).

* **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٠ م).**

91- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط١، لجنة إحياء التراث (القاهرة – د.ت).

92- إغاثة الأُمّة بكشف الغمة، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٥٧م).

93- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت ١٩٩٧م).

94- المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط٢، دار الغرب الاسلامي (بيروت – ٢٠٠٦م).

95- تاريخ الأقباط، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة (د.م . د.ت).

96- رسائل المقريزي، تحقيق: رمضان البدري وأحمد مصطفى قاسم، ط١، دار الحديث (القاهرة ١٩٩٨م).

* **ابن المقفع، ساويرس (بعد 987م)**

97- تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين، من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة 2006م).

* **ابن مماتي، الأسعد بن المهذب بن زكريا (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م).**

98- قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، ط١، مكتبة مدبولي (القاهرة ١٩٩١م).

* **ابن المنادي، أبو الحسين أحمد بن جعفر بن محمد (ت ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م).**

99- الملاحم، تحقيق: عبد الكريم عقيلي، دار السيرة (قم – ١٩٩٨م).

* **المنجم، إسحاق بن الحسين ، (ت قبل ٤٠٠هـ / ١٠١٠م).**

100- آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ط١، عالم الكتب (بيروت ١٩٨٧م).

* **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري الإفريقى (ت ٧١١هـ / ١٣١١ م).**

101- لسان العرب، ط٣، دار صادر (بيروت . ١٤١٤ هـ).

102- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس وآخرون، دار الفكر (دمشق – ١٩٨٤م).

* **مؤلف مراكشي مجهول، (من كُتاب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي).**

103- الإستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد ١٩٨٦م).

* **المؤيد في الدين الشيرازي، داعي الدعاة هبة الله بن موسى بن داود (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م).**

104- المجالس المؤيدية، تحقيق: محمد عبد الغفار، ط١، مكتبة مدبولي (القاهرة ١٩٩٤م).

* **ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م).**

105- أخبار مصر (المنتقى من أخبار مصر)، تحقيق: أيمن فؤاد سيّد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة ١٩٨١م).

* **ناصر خسرو، أبو معين الدين ناصر بن خسرو الحكيم القُبادياني المروزي (ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٨م).**

106- سفر نامة، تحقيق: يحيى الخشاب، ط٣، دار الكتاب الجديد (بيروت ١٩٨٣م).

* **ناصر الدين البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م).**

107- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي (بيروت – ٢٠٠٩م).

* **النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن الجذامي المالقي الأندلسي (ت نحو ٧٩٢هـ).**

108- تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط5، دار الآفاق الجديدة، (بيروت ١٩٨٣م).

* **النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت ٣٣٨هـ / ٩٥٠ م).**

109- معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى (مكة المكرمة – ١٩٩٧م).

* **النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م).**

110- ١٩٣- السنن الكبرى، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة (بيروت – ٢٠٠١م).

* **النعماني، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣ م).**

111- اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية (بيروت – ١٩٩٨م).

* **ابن نقطة، معين الدين، محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع الحنبلي البغدادي (ت ٦٢٩هـ).**

112- التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط1، دار الكتب العلمية، (د.م ١٩٨٨ م).

* **النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبد الدايم القرشي (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م).**

113- نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة ٢٠٠٢م).

* **النيسابوري، أحمد بن إبراهيم بن محمد (الوفاة القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي).**

114- اثبات الإمامة، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت، ١٩٩٦م).

* **النيسابوري، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر (ت ٣١٩هـ / ٩٣١م).**

115- كتاب تفسير القرآن، تحقيق: سعد بن محمد السعد، دار المآثر (المدينة المنورة – ٢٠٠٢م).

* **النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الضبي الطهماني (ت ٤٠٥هـ / ١٠١٤م).**

116- المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت – ١٩٩٠م).

* **الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م).**

117- تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي (بيروت . ٢٠٠١م).

• **الهمذاني، أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسرو الديلميّ (ت ٥٠٩هـ / ١١١٥م).**

118- الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية (بيروت – ١٩٨٦م).

* **الهيتمي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر السعدي الأنصاري (ت ٩٧٤هـ / ١٥٦٧ م).**

119- الفتاوى الحديثية، دار الفكر (بيروت – د.ت).

* **الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ / ١٠٧٥ م).**

120- التَّفْسِيرُ البَسِيْط، ط١، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (المملكة العربية السعودية - ٢٠٠٩م).

* **ابن واصل، أبو عبد الله محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ، المازني التميمي (ت ٦٩٧هـ).**

121- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال و حسنين محمد ربيع و سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة ١٩٥٧م).

* **ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمربن محمد بن أبي الفوارس (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م).**

122- تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت ١٩٩٦م).

* **وَكِيع، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ, (ت ٣٠٦هـ)**

123- **أخبار القضاة، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، ط1، المكتبة التجارية الكبرى، (بيروت ١٩٤٧م).**

* **ابن الوليد، علي بن محمد بن الوليد (ت ٦١٢هـ / ١٢١٥م).**

124- أربع كتب اسماعيلية، تحقيق: شتروتمان، ط١، التكوين للطباعة والنشر (دمشق ٢٠٠٦م).

* **ابن وهب، أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (ت ١٩٧هـ / ٨١٣ م).**

125- تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، تحقيق: ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي (د.م - ٢٠٠٣م).

* **اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨هـ).**

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧ م).

* **يحيى بن سلام، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي البصري الإفريقي القيرواني (ت ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م).**

126- تفسير يحيى بن سلام، تحقيق: هند شلبي، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٤م).

* **اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت بعد ٢٩٢هـ / بعد ٩٠٥م)**

127- البلدان، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت ٢٠٠١م).

* **أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى التميمي الموصلي (ت ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م)**

128- مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث (دمشق - ١٩٨٤م).

* **أبو يعلى ابن الفراء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م).**

129- الأحكام السلطانية، تصحيح: محمد حامد الفقي، ط٢، دار الكتب العلمية (بيروت ـ ٢٠٠٠ م).

130- فضائل مصر المحروسة.

* **اليماني، محمد بن محمد بن حوشب (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م).**

131- سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقّادة، تحقيق: فلاديمير إيفانوف، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، العدد الرابع (مصر ١٩٣٦م

**رابعاً- المراجع:**

* **الأحمر، رمضان محمد رمضان:**

132- الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية (358 ـ 969/567 ـ 1171م)، ط1، دار القدس، (القاهرة 2012م).

* **أرسلان، شكيب.**

133- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، (بيروت-د.م).

* **إسماعيل، محمود:**

134- الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط 2، دار الثقافة، (المغرب 1985).

* **البراوي، راشد:**

135- حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ط1، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة 1948).

* **البواعنة، لؤي:**

136- دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي (490 ـ 1097/648 ـ 1250م)، دار اليازوري، (الأردن 2006).

* **الجابري، علي حسين:**

137- الفلسفة الإسلامية دراسات في المجتمع الفاضل والتربية والعقلانية، ط1، دار الزمان، (دمشق 2009م).

138- مفكرو الإسلام والعمران البشري، دراسة في فلسفة الحضارة والاجتماع، دار مكتبة البصائر، (بيروت 2011م).

* **الزركلي، خير الدين بن محمد بن محمود:**

139- الأعلام، ط 15، دار العلم للملايين، (د.م 2002م).

* **سلام، محمد زغلول:**

140- الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، (الإسكندرية).

* **الصلابي، علي محمد:**

141- الدولة الفاطمية، ط1، مؤسسة اقرأ، (القاهرة 2006م).

* **ضيف، شوقي:**

142- تاريخ الأدب العربي، ط1، دار المعارف، (مصر . 1960 – 1995 م).

* **عبد الحميد، أحمد مختار .**

معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، **عالم الكتب، (د.م ٢٠٠٨ م) .**

* **عنان، محمد عبدالله:**

143- دور الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، (القاهرة 1990م).

* **كحالة، عمر رضا:**

144- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ط5، مؤسسة الرسالة، (د.م 1984م).

* **كرد علي، محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد:**

145- خطط الشام، ط3، مكتبة النوري، (دمشق –1983م).

* **مخلوف، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم .**

146- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، (لبنان ٢٠٠٣ م).

* **مصطفى، شاكر:**

147- المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط1، مكتبة لسان العرب، (د.م ـ 1988م).

* **معصوم، فؤاد:**

148- اخوان الصفاء فلسفتهم وغايتهم، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق 1998م).

* **المناوي، محمد حمدي:**

149- الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف بمصر، (القاهرة – 1970م).

* **وليد بن أحمد الحسين الزبيري، إياد بن عبد اللطيف القيسي، مصطفى بن قحطان الحبيب، بشير بن جواد القيسي، عماد بن محمد البغدادي**

الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة «من القرن الأول إلى المعاصرين مع دراسة لعقائدهم وشيء من طرائفهم، ط1، مجلة الحكمة، (بريطانيا ٢٠٠٣ م).

**خامساً- الرسائل والأطاريح الجامعية**

* **حايد، فاضل عبدالرضا:**

150- الدولة الفاطمية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة واسط، كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2021.

* **الطيار، هيفاء عاصم محمد:**

151- مدينة القاهرة في عصر الخلافة الفاطمية دراسة النظم السياسية والمعالم الحضارية، أطروحة دكتوراه منشورة، الجامعة المستنصرية، المعهد العالي، 2005م.

* **عبدالله، حيدر ناصر:**

152- الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي 322 ـ 334هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة واسط، 2018م.

* **عسكر، حيدر مزهر:**

153- العلاقات البيزنطية الفاطمية دراسة في التاريخ السياسي والعسكري 297 . 487هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة واسط، كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2008.

**سادساً-البحوث**

* **الحسيني، محمد عايد مانع:**

154- الدور العلمي للطرطوشي ت520هـ/1126م في تاريخ فلسفة العمران والسياسة من خلال كتاب سراج الملوك، مجلة آداب الكوفة، العدد 21، الكوفة، (2015م).

* **ربوح، عبد القادر:**

155- تجربة الإصلاح عند أبي بكر الطرطوشي (ت526هـ/1130م) من خلال مؤلفاته، دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجلفة، مجلد 10، العدد 4، الجزائر، (2018م).

* **عبد علي، عبد المنعم حامد:**

156- الثورات المناهضة لإمارة الأغالبة (223 . 838/289 . 902م)، مجلة المدارات العلمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 2، الأنبار، (2024م).

* **لبيب، صبحي:**

157- التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، العدد4، مصر، (1951).

* **مرهج، ريم هادي:**

158- دور الوزير الفاطمي اليازوري وسياسته الداخلية والخارجية لمصر، مجلة التراث العلمي العربي، العدد4، (2017).

* **نظير، صفاء شكري:**

159- الشهود العدول في مصر خلال العصر الفاطمي، (356 . 567هـ/966 . 1171م)، المجلة المصرية للبحوث والدراسات الإسلامية، جامعة سوهاج، كلية الآداب، المجلد 10، العدد 10، 2023م.

**سابعاً-المراجع المعربة:**

* **اشبنغلر،اسوالد.:**

160- تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، (بيروت 1964م).

* **آشتور، آ.:**

161- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبله، دار قتيبة، (دمشق 1985م).

* **جواتياين، س. د:**

162- دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، ط1، وكالة المطبوعات، (الكويت 1980).

* **فريدوني، علي .**

163- آفاق الفكر السياسي عند اخوان الصفا، ترجمة: عبد الحسن آل نجف، مكتبة مؤمن قريش، (قم 2006م).

* **فيريية، رامون .:**

164- مدخل الى فكر الإسلام الاقتصادي من القرن الثامن الى القرن الخامس عشر، ترجمة: خالد محمد جهيمة، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، (بيروت 2024م).

* **كوب، بول م.:**

165- 226- السباق إلى الجنة تاريخ إسلامي للحروب الصليبية، ترجمة: علاء مصري النهر، مدارات للأبحاث والنشر، (مصر . د.ت).

* **لينبول، ستانلي:**

166- سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، تقديم: أيمن فؤاد سيد، المركز القومي للترجمة، (القاهرة 2011م).

* **ولسن، كولن:**

167- سقوط الحضارة، ترجمة: أنيس زكي حسن، ط3، دار الآداب، (بيروت 1982م).

**Abstract:**

The Islamic world witnessed the emergence of the Fatimid State in the late second and early third centuries AH, a rise facilitated by a highly secretive and complex ideological organization. Due to this foundational secrecy, coupled with subsequent political and doctrinal biases, many historians marginalized the state's history and overlooked its profound political and civilizational achievements. The Fatimid era experienced remarkable phases of human development and administrative success, alongside periods of severe deterioration driven by cumulative policy errors and internal conflicts that ultimately rendered the state unsalvageable. Studying the architecture of a state built upon justice, rigorous administration, and social equity is paramount to understanding human civilization. Therefore, this dissertation investigates the history of the Fatimid State through the philosophical lens of the Arab thinker Abu Bakr Al-Turtushi. Despite being a Maliki jurist—a sect antithetical to the Fatimid doctrine—Al-Turtushi lived under their rule. He staunchly opposed the unjust policies of Vizier Al-Afdal but actively supported the reformist agenda of Vizier Al-Ma'mun Al-Bata'ihi, to whom he dedicated his seminal work, Siraj Al-Muluk. This text articulates Al-Turtushi's reformist philosophy, detailing the intrinsic link between ethics and politics. By applying his universal principles to the Fatimid context, this study seeks to extract historical lessons regarding the rise and fall of states, thereby utilizing the philosophy of history to read the present and forecast the future.

The research posits that by applying Al-Turtushi's practical political framework to historical texts concerning the Fatimids, researchers can conduct an accurate, structured analysis of the state's political and civilizational dynamics. The study employs an applied historical methodology, building upon prior philosophical-historical literature. This includes studies analyzing the Fatimids through Ibn Khaldun's civilizational cycles and the author's prior Master's thesis, which examined the Fatimid State through Arnold Toynbee's theory of Challenge and Response. The thesis is organized into an introduction, four main chapters, and a conclusion. Chapter One analyzes the philosophy of the Imamate in the Fatimid State juxtaposed with Al-Turtushi's thought, exploring the concept of the Imamate in the Quran, the Prophetic Sunnah, and Ismaili doctrine, along with Al-Turtushi's prerequisites for leadership. Chapter Two examines the rational politics of the Fatimid State, detailing the caliphs' administration of the masses in the Islamic Maghreb and Egypt, alongside their foundational financial policies. Chapter Three explores human civilization under the Fatimids, focusing on political institutions, economic activities, urban development, and overarching social organization. Chapter Four critiques the political flaws and structural vulnerabilities of the state, highlighting critical issues such as the perceived sanctity of succession, the political influence of court women, and the devastating factionalism within the military.

The study yielded several key conclusions. The Imamate in Islam represents the supreme leadership in both religious and secular affairs, essential for national stability. Sound policy in the Fatimid State was defined by managing the nation's affairs in accordance with Sharia

objectives, striving to achieve justice, and securing the public interest. Unlike Ibn Khaldun, Al-Turtushi seamlessly integrated his sociological principles into discussions regarding governance and prophetic wisdom rather than composing an independent treatise on civilization. Furthermore, ethnic and doctrinal diversity served as a double-edged sword for the Fatimids; while initially leveraged to build a robust administration, it later became the primary catalyst for internal fragmentation. A fundamental cause of the Caliphate's decline was the accession of underage caliphs, which created severe power vacuums that allowed ambitious viziers, military generals, and harem women to usurp authority. Validating Al-Turtushi's core thesis, the study concludes that establishing justice guarantees state survival, whereas tyranny and unchecked luxury are the primary vectors of collapse. Ultimately, the fall of the Fatimids demonstrates that states script their own demise through poor policy and internal disunity, and the fatal illusion of seeking structural solutions from external actors is in itself a definitive phase of a state's collapse.

Ministry of Higher Education
and Scientific Research
University of Wasit
College of Education for Humanities
Department of History

# The History of the Fatimid State in the Light of Al-Turtushi's (d. 520 AH /1126 CE) Philosophy of Politics and Civilization

A Dissertation Submitted by the Student

**Fadhil Abdul-Ridha Hayed Al-Kashawi**

to the Faculty Council of the College of
Education for the Humanities – University of Wasit
as part of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy
in the Philosophy of Islamic History

under the supervision of

**Prof. Dr**

**Prof. Dr. Haider Mizher Askar Al-Abidi**

**1447 AH** **2026 AD**